تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي

من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول

تأليف

حسن السندوبي

رئيس مكتبة وقاعة محاضرات وزارة الأوقاف
بقبة الغوري

[الطبعة الأولى]
مطبعة الاستقامة بالقاهرة
١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد : فقد جمعنى مجلس من الفضلاء ، يضم نخبة من العلماء ، وفريقاً من الأدباء ، فى أحد سرادقات الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، فتذاكروا تاريخ هذا الاحتفال ومتى نبتت فكرته ، وأيان نشأت غُرته . فذهب كل واحد منهم مذهباً ، وارتأى رأياً ، وتَظَنَّى ظناً ، وكثر الأخذ والرد فيما بينهم ، وأنا أسمع وأزن . فلما رأيت أنهم جميعاً فى وادٍ ، وحقيقة الأمر فى وادٍ آخر ؛ أخذت أورد لهم نبذاً مما أعلم فى هذا الموضوع ، ومما وقفت عليه من شؤونه وملابساته أثناء مطالعاتى

فقالوا لى بلسان واحد : ولم لا تضع مؤلفاً فى هذا الشأن الذى تضاربت الأفكار فى أصله ، وتصارعت الآراء فى حقيقة نشأته وفصله ، وذكر أول من فكر فيه ، وفى أى بلد من بلاد الإسلام غُرست دوحته ، وسمقت أيكته مع التوسع فى إيضاح الأدوار التى مرت به حتى صار على ما هو عليه الآن ؟

فقلت : تالله لقد كلفتمونى شططا ، وحملتمونى كَلاًّ ! أما تُعفونى من هذا العبء الفادح ؟

فقالوا : ومن له سواك !

فقلت : على الله توكلت ، وإليه أنبت ، وبه استعنت .

وبعد ذلك كانت نقابة الصحفيين قد طلبت إلىَّ أن ألقى محاضرة فى ناديها . وقد اعتزمت الاحتفال فيه بذكرى المولد النبوى الشريف - فرأيت أن تكون المحاضرة فى هذا الموضوع ، فكتبت خلاصة موجزة فى ذلك وبعثت بها إلى النقابة ، فأعلنت النقابة عنها فى الصحف .

غير أنّ حادثاً لم يكن فى الحسبان وقع فى تلك الليلة حال دون إلقائها . فاستعدتها من النقابة وفى خلال ذلك خاطبنى كثير من الناس الذين يعتد برأيهم ، وأثنوا على الفكرة ، وحثوا على بعثها مبسوطة ، وإخراجها مفصلةً ؛ لأنّ كثيراً من الخاصة ، بله العامة ، لا يعلمون من هذا الأمر شيئاً يمكن الاطمئنان إليه ، أو الاعتداد به ، وهم لذلك يتشوفون إلى عرفان الكثير المحقق منه .

ولا أريد أن أشرح ما لاقيت - فى تحقيق هذه الفكرة وإبرازها على أفضل ما رأيت من الوجوه الصالحة - من العنت والإرهاق ، لأنّ أبواب هذا الموضوع موصدة فى وجه مستفتحيها ، ومغاليقه محكمة أمام طارقها . وذلك لأنّ جمهور المؤرخين وكتاب الأخبار لم يُعطوا هذا الأمر شيئاً مما يستحقه من العناية والاهتمام ، ولم يحفلوا بتدوين ما يحسنُ تدوينه من ظروفه وأحواله ، ولم يبسطوا ما يفيد بسطه من أسبابه ونتائجه . ولذلك لم أكد أعثر إلا على القليل من الإشارات يُلَوِّحُ بها بعضهم الفينة بعد الفينة .

ولكن من حسن الحظ أو من سوئه ، أن الموضوع لذَّ لى موقعه ، وحسن لدىَّ

مشرعه، وصار من المطالب النفسية التي يرتاح لها العقل، وينشط لها الفكر. فلم أقف أمام هذه المغاليق مبهوتاً، بل جردت سيف العزم، وأرهفت حدّ الهمة، ومضيت في سياحتي في بطون الكتب، أستدل من إشارة على عبارة، وأتتبع صحائف التواريخ والأسفار، لا صفائح الشواهد والأحجار، وأستنجز الأوراق ولا أعدو الآثار؛ حتى استوى لي من ذلك ما يقع في سفر يملأ العين ويرتاح إليه الفؤاد.

ولست في حاجة إلى أن أنوه بما لاقيت من عناء في تقويم أود ما كتب بعض المؤرخين، وتمييز ما حشدوه في مؤلفاتهم من سمين وغثّ، وقشيب ورثّ، مما لا يفطَن إليه إلا القليل من أهل الدراية والفهم النافذ، أما أولئكم الوادعون في مهاد قصورهم، الرافلون في بحابح النعيم من سوح دورهم، المتمتعون بمطالع شموسهم ومغارب بدورهم، فلا يُعدون في أذناب الناس ولا في ذوائبهم، وإن ظنوا أنهم بثرائهم وجوهُ الخلق وجباههم. فهم وإن وضعهم الثراء في المقدمة، فقد وضعتهم الأنانية، والفاقة من المزايا الإنسانية، في المؤخرة. لأنهم إنما يعيشون لأنفسهم، ولا ينشطون إلا لشهواتهم. ولذلك صح فيهم قول من قال:

أرَى زمنا نَوكاه أكرمُ أهله ... ولكنما يشقى به كلُّ عاقل

مشَى فوقه رجلاه والرأسُ تحته ... فكب الأعالي بارتفاع الأسافل

وليس يعلم ما يعانيه الكاتب المحقق في سبيل تحرير الصواب فيما يعرض له من بحوث، وما يضحي به في تقويم أخطاء المؤلفين من قدماء ومحدثين،

وما يبذل من دم القلب ، ونور البصر ، وضياع الزمن ، إلا من دفع فى أمثال هذه المآزق .

وهذا كتاب يجد فيه العالم بُغيتَه ، والباحث مُنيَته ، والأديب لذته ، ومحب الاطلاع طَلِبته . فهو للعارف مسلاة ، وللشادى معارف ومعلومات .

وقد رأيت أن أجعله مرتباً على الدول ومفصلا على أحداث الأُول . فتحدثت فيه عن حظ الاحتفال بالمولد النبوى الشريف فى عهد الخلفاء الراشدين فى عصر الإسلام الأول . ثم فى عصر الدولة الأُموية ، ثم فى عصر قيام الدولة العباسية بالعراق . وعللت الأسباب التى حالت بين هذه الدول وبين التفكير فى العناية بهذه الذكرى الكريمة .

ولما جاء دور الدولة الفاطمية ، وهى صاحبة اليد البيضاء فى إنشاء هذه الحفلات ، والتنبه إلى وجوبها ، واتخاذها من شعائر الدولة : أوضحت الكثير مما رسمَتْه فى إقامة معالم المولد النبوى الشريف ، ووصفت ما كانت تبذله فى هذا السبيل من طائل الأموال ، وبالغ الحفاوة ، وما كان ينعم به الناس على عهدها من صنوف الخيرات ، وما كانوا يتمتعون به من ألوان المبرات ، كما أبَنْت عن مظاهرِ الحاشدة ، ومواكبه الحافلة ، ومعالمه الرائعة ، ومشاهده البارعة ، وتدفق جماهير الأمة على شهود حفلاته ، وحضور أسمطته ، وتناول العطايا والمنح من مخصصاته ، وتقبل الهدايا والألطاف من مبراته ، حتى انقراض الدولة ، وزوال الأسرة .

ثم تحدثت فيما كان للمولد من حظ ، وما كان للاحتفال به من شأن ، فى عهد الدولة الأيوبية . تلك الدولة التى زعم كثير من المؤرخين أنها ألغت

جميع المواسم والأعياد التى كان للفاطميين السبق إلى ابتداعها . فأثبت أن مولد الرسول صلوات الله عليه لم يكن من المواسم الملغاة فى عهد هذه الدولة ، وأنه كان يقوم على خير الوجوه وأفضلها .

ثم أمضيت الكلام فى دولة المماليك البحرية وما كان لها من الشأن والعناية بحفلات المولد ، وكذلك دولة المماليك الجراكسة ، وما استُحدث فيه من رسوم ومظاهر .

ولما أظل مصر عهد الولاة العثمانيين ـ بعد رحيل السلطان سليم ـ وصفت قيمة عنايتهم بالمولد ، وضؤولة اهتمامهم به . إلى أن استبد بالأمر المماليك المصريين المعروفين بالبيكوات ، فكانت عنايتهم به واهتمامهم له ، على قدر سعة أفق كل زعيم منهم .

كما أوضحت ما كان لنابوليون والحملة الفرنسية من رسوم وعادات ، ومظاهر ونفقات ، فى إحياء المولد والاحتفال به على الوجه المناسب لظروفه وملابساته .

أما فى عصر الدولة المحمدية العلوية فحدث عن إيضاح المعالم ، وإبانة المراسم ، وانتظام الحفلات ، وإقامة الزينات ، ولا حرج ؛ فقد كان محمد على الكبير مؤسس هذه الأسرة الكريمة ذا عناية فائقة بإحياء هذه الذكرى ، واهتمام كبير بالاحتشاد لها . وعلى سننه الصالح جرى أولاده من بعده وأحفاده . كابراً إثر كابر . من ولاة وخديويين .

وفى عهد الملك العظيم فؤاد الأول الذى نقل مركز مصر من خديوية أو سلطنة متواضعة ، إلى ملكية بارعة وصفت مابذله جلالته رحمه الله من

توجهات صالحة لكى تكون أيام المولد الشريف فى عداد أيام البهجة الشاملة والسرور الغامر ، وتكون لياليه مواسم عامة تنعم فيها الأمة بما يفرج من كرباتها ، ويصلح من شأنها فى غدواتها وروحاتها .

أما فى عهد شبله الرئبال جلالة الملك الصالح المتوكل على الله « فاروق الأول » حفظه الله ، فقد تحدثت بما وسعه البيان عن عنايته السامية ، ورعايته الكافية ، فى أحياء أيام هذه الذكرى الكريمة ولياليها ، حتى صارت من غرر الأيام ، ودرر الليالى . وقد نسقت ذلك كله فى أماكنه من صحائف هذا الكتاب .

ومع استيفائى لهذا الموضوع استيفاء ليس وراءه مطمع لمستزيد ، قد خللت أبوابه ببحوث طريفة ، ساق بعضها تداعى المعانى وانثيال الأفكار ، واقتضى الكثير منها منافع الاستطراد . فصدرت الكتاب بكلمة مجملة فى أثر مولد الرسول صلوات الله عليه ، فى نهضة العرب ، وإنبات الحياة الكريمة فيها .

ولما أفضى بى الكلام إلى عصر الدولة الفاطمية ، رأيت أن أصدر القول فيها ببحث فى حقيقة أمر العبيديين وقيمة قول الطاعنين فى نسبهم العلوى ، وحررت صحة هذا النسب بالحجج الدامغة ، ورددت قول خصومهم بالبراهين الساطعة ، حتى ظهر الحق فى شأنهم ، وانهزم الباطل ، وانماز الطيب من الخبيث الذى غمرهم ، وطُهِّروا تطهيرا .

وعند حديثى عن العصر الملوكى ، توجت موضوعهم ببحث فى شأن المماليك البحرية وأصولهم ، والنظر فيما رموا به من اسم الرق ، وأزلت عنهم وصمته من الوجهة الإنسانية . كما ألمعت مع ذلك بما كان

لهم من رسوم ونظم ، وعادات وسنن . ولم أحرم المماليك الجراكسة من نظرة فى حقيقة أمرهم ، وما ابتدعوه فى حفلات المولد ، مما لم يسبقهم إليه غيرهم . كما ذكرت وفود بعض الملوك والأمراء على مصر ملتجئين إلى سلاطين وادى النيل فى ذلك العهد ، طالبين حمايتهم من خصومهم ، أو إنجادهم على أعدائهم .

وفى عهد السلطان الغورى عقدت بحثا فى الأسباب التى حملت السلطان سليم العثمانى على غزو الديار المصرية . وما تقدم على ذلك من خيانة بعض الأمراء تلك الخيانة التى أفضت إلى سقوط البلاد بين يدى ذلك الجبار العادى . وعقبت على ذلك بمقارنة بين قمبيز وسليم . إلى غير ذلك مما يجد فيه القارئ لذة وطرافة وفائدة فى ثقافة ، وتقويما فى معارفه ، واتساعا فى معلوماته . ويتبين فيه الباحث جدة فى التفكير ، وحدة فى ابتكار الرأى والنظر .

على أنى لم أُغفل الحديث عما كانت تقوم به بعض الدول الإسلامية فى غير الديار المصرية ، من العناية البالغة بالاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، بل وقفت من ذلك على نماذج صالحة أثبت منها : ما كانت تضطلع به الدولة العثمانية فى بلادها ، وما كانت تقوم به بعض دول المغرب الأقصى فى شمال أفريقية ، وعرضته فى باب مفرد ، ليحوز موضوعنا صفة الكمال إن شاء الله تعالى .

وقد خطر لى فوق هذا أن أُفرد ، فى أعقاب الكتاب ، قسما أخصصه بالحديث عن المواسم والأعياد عامة ، سواء ما كان منها قديما ، وما استحدث منها فى عهود الدول الإسلامية ، وما لا يزال باقيا منها

إلى اليوم . فإذا انبعثت الهمة إلى تحقيق هذا الخاطر ألحقته به ، وإلا أفردت له كتابا خاصا .

ولا بد لى من أن أشير هنا إلى أنى لم أستعمل عبارات بعض المؤرخين والكتاب الذين اعتمدت على أخبارهم ، لما رأيته فيها من الغموض حيناً وسوء التعبير أحيانا ، ومخالفة القواعد البيانية فى أكثر ما يوردون . وقد سبكت ذلك كله فى الأساليب المستقيمة ، وأثبت معانيها والمراد منها فى العبارات الواضحة السليمة . اللهم إلا بعض الروايات جئت بها على وجهها للاستشهاد أو للتعقيب عليها .

والله أسأل أن يمدنى بعونه وإسعاده ، وأن يمنحنى الكريم من توفيقه وسداده ؟

القاهرة فى { ١٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧
٢٥ من أبريل سنة ١٩٤٨ }

حسن السندوبى

كلمة

في ذكرى المولد النبوي الشريف

تمضى القرون والأعوام ، وتترى الشهور والأيام ، ويدور الفلك دوراته على بنى الإنسان ؛ بين سعادة وشقاء ، وغبطة وبلاء ، ويأس ورجاء ، وبؤس ورخاء ، وذكرى مولد المصطفى سيد المرسلين ، وإمام الهداة والمتقين ؛ لاتبرح تتردد على الألسنة ، وتخفق لها القلوب والأفئدة .

ولا بدع ؛ فقد كان العالم قبل مبعث محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، يموج فى غمرات من الجهالة ، ويسبح فى ظلمات من الضلالة ، وتتغشاه موجة من الشرك بالله ، وتظله سحابة من الكفر والفسق والفجور ، تكاد تعم سكان البسيطة ، وتطفى على أهل الأرض قاطبة ، فلا وازع من دين ، ولا رادع من خلق ، ولا دافع إلى الخير من ضمير ، وذلك على الرغم من شرائع الأنبياء الذين تقدموه ، وزواجر رسل الله الذين سبقوه .

وقد مضت فترة من الرسل نسى الناسُ معها أن لهم إلّها تفرد بالوحدانية ، وربا توحد فى الوجود بالربوبية ، وتقدس فى جلاله بالصمدانية . كما تناسوا أن له كتباً أنزلها على رسله ، وكلمات لقنها أنبياءه ، فيها هدى وبشرى للمؤمنين ، وموعظة وذكرى للعارفين الموقنين . وامتدت هذه الفترة وطال أمدها حتى عبد الخلقُ غيرَ الخالق ، واستنزلوا الرزق من غير الرازق ، وحتى محيت من نفوسهم آثار الحرية الفطرية ، وشوهت فى خصائصهم معالم الإنسانية ،

وفقدوا فيما بينهم عوامل التعاطف ، وبواعث التراحم ، ونوازع الإخاء والمساواة في الحقوق والواجبات : فدانوا لبنى الإنسان ، وألّهوا ماصنعت أيديهم من التماثيل والأوثان ، وعبدوا الصور المنحوتة ، والأصنام المنجورة المنقورة وتخيلوا في الكواكب قوى قاهرة ، وآلهة قادرة ، وأرواحا خفية أو ظاهرة لها سلطانٌ على الأكوان ، وتصرفٌ في حركات النفوس ونبضات القلوب وطبائع الأبدان . فأسلموا قيادهم لأوهامهم ، وغدوا في طباع أين منها طباع الحيوان .

غير أن رحمةَ الله تعالى تداركت هذه الإنسانية المنحرفة عن طريق الهدى ، والمستسلمة لعوامل الردى . فتجلت إرادتُه تعالى على الكائنات ، وظهرت مشيئتُه بأنوارها الباهرة بين الأرض والسموات . فكان من دلائل الرضا الإلهى ، وبوارق النعم على الوجود ، أن ولد للإنسانية المعذبة ، نبيّ الرحمة ، ومنقذ الأمة ، المؤيد من الله تعالى بالقول الصادق المبين : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينْ »

في مثل هذا اليوم ، ومنذ أربعة عشر قرناً ، انبعثت معجزة الوجود ، وتمت حكمة الله بمولد أشرف مولود . فاستنارت بمولده الأكوان ، وأُرِّخ ببعثه عصر العلم والعرفان ، وتفتحت أبواب الحق والعدل والإحسان .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دار الدنيا ليكون الوسيلة العظمى بين الخلق والخالق ، والوصلة الكبرى بين البرية والبارئ . فكان المبشرَ من اتبع هداه ، بعظيم رضوان الله . والمنذرَ من دان لهواه ، بأليم غضب الله . وكانت بعثته شاملة للناس عامة ، وكانت رسالته غامرة كل أمة . ولكي

يسقط كل حِجاج ، وينهار كل عناد ولجاج ، أيده الله تعالى بقوله الحق ، فى محكم كتابه الصدق : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً » فصدع بأمر مولاه ، وجاهد فى سبيله حتى بلغ رضاه .

فإذا احتفل العالم الإسلامى، فى مشارق الأرض ومغاربها ، بهذه الذكرى السعيدة ، واتخذ أيامها له من غُرر أيام مواسمه وأعياده ، فإنما يحتفل بذكرى ميلاد من أنقذ الله على يديه الإنسانية الضالة ، ورفع بيمن طالعه نير الاستعباد عنها ، وفك بواسطته أغلال الاستبداد بها ، وجعله سببا فى استرداد خصائصها الصحيحة ، ومزاياها السليمة ، وأنار للإنسان بشريعته الخالدة ، سُبل السلام إلى سيادته ، وأوضح له مناهج الخير إلى سعادته .

أخذ محمد بن عبد الله بيد الإنسانية فانتشلها من وهدة الهمجية التى تردت فيها أجيالا متطاولة ، ورقى بها فى معارج المدنية القائمة على طمأنينة النفس ، وراحة القلب ، واستقامة العقل ، وسمو الخلق . وعلم الإنسان أن له وجودا ، وأن لوجوده غاية هى أسمى مما يختلج فى النفوس ، ويضطرب فى الصدور ، ويتردد فى الرؤس ، ويتلألأ فى الأذهان . ولأجل أن يصل به إلى هذه الغاية السامية ، ويضع يده على هذا الكنز الثمين ؛ علَّمه أن ينظر إلى نفسه ، وأن يفاضل بين يومه وأمسه ، لأن من عرف نفسه حق المعرفة ، عرف الله تعالى فى أشرف نفحاته . ثم أرشده كيف يعمل حتى يتكمل بالفضائل ، ويتطهر من أدران الرذائل ، ويتزين بجميل الشمائل . ومن جوامع ذلك أن يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ، وأن يباعد بينه وبين الشر ما استطاع إلى ذلك من سبيل ، لينزل بخالصة نفسه فى منازل الأبرار ،

وليكون من المصطفين الأخيار . لأن من آثر أخاه فى الإنسانية بالمحابّ على نفسه لحق بمقامات الخالصين ، واقتعد مقاعد الصديقين . وناهيك بها من آداب سماوية ، وتعاليم ربانية .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى أمر الله ، ما شاء الله أن يُقيم ، ثم أذن له تعالى فى جهاد أهل العناد من المخالفين ، وفى مقارعة ذوى الغفلة والمنحرفين ، فاتجه بجهاده - باديء ذى بدء - إلى ما كان متغلغلا فى النفوس البشرية من نوازع الشرك بالله - وهو رأس كل شر فى الوجود ، وأس كل رذيلة فى الدنيا - فلما دخل الناس فى دعوته ، وأيقن المتخلفون بنصرته ، أنشأ يحارب الرذائل الموروثة عن الأسلاف ، ويقاوم النقائص السارية من الآباء إلى الأخلاف ، ويناهض المفاسد والشرور والآثام ، ويناضل الطبع البشرى لتطهيره من عوامل الإجرام ، حتى إذا بلغ من ذلك ما شاء الله أن يبلغ ، رسم للأمم - بأمر الله تعالى - خطط الحياة الصالحة ، واختط لهم مناهج النجاة من دواعى التأخر والانحطاط ؛ فكان دستوره القويم ، وناموسه الحكيم ، وقانونه المستقيم ، قول الله تعالى : « إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتَاءِ ذِي القُرْبَى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ » .

وكان من فضل الله على الناس أن اختار رسوله الأمين ، ومصطفاه الكريم ، من صميم العرب . وأن جعل لسانه عربيا مبينا ، وأنزل كتابه الجامع ، بهذا اللسان البارع . وذلك لأن العرب من بين سائر الأمم المعروفة فى عهد التنزيل ، قد وُهبوا من جليل المزايا وكريم الخصال ، وحميد السجايا

وبارع الخلال. مالم يكن مجموعا لأمة أومتوفرا في شعب من تلكم الأمم والشعوب التي عاصرتهم. فقد طبعهم الله على درجة عالية من قوة الإدراك والتعقل، وفطرهم على حدة الذهن، وإرهاف الحس، واستنارة البصيرة، وجبلهم على النظر فيما يعرض عليهم من الأمور والأقوال والفكر والآراء. كما حباهم البارى بصفاء القلوب من أكدار الحياة، واختصهم بالكثير من التمييز بين المنافع والمضار. وإن كانت الأدهار التي مرت بهم تحت سماء بيئتهم الكالحة قد حجبت هذه المزايا إلى حين، وأضفت عليها غشاء من الجهالة حال بينهم وبين ظهور معدنهم الذهبي البراق. ولهذا لما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الهدى لم يحتج في استجابتهم إلى المديد من الزمن، بل ماهو أن بسط لهم دعوته حتى استجاب له أذكاهم نفسا. وأنقاهم فطرة، وأصفاهم عقلا. ثم تبعه بعد ذلك من والاهم، بعد قليل من الاستبانة والاستيضاح.

ولا يَرُعْك ما كان من بعض سادات العشائر منهم، من التشدد والعناد في مناهضة ما كان يدعو إليه، والتصدى لتفنيده ومحاولة إقلاعه عما يبثه فيهم من المبادئ التي لاعهد لهم بمثلها، والعمل على خذلانه، فما حملهم ذلك إلا أن كثيراً من قادتهم وذوى الأحساب والرأى فيهم، كان يخشى انفلات زمام سلطانه المطلق على قومه من يده، كما حسب حساب انتقال السيادة عنه إلى من كان يراهم دونه، ويعدهم من أتباعه، وبذلك يصبح مسوداً بعد أن كان سيداً، وتابعاً بعد أن كان متبوعاً. فمن أجل ذلك أذن الله لنبيه الكريم في اتخاذ أسباب القوة، والاستعانة بوسائل المدافعة والذياد عند الضرورة

القصوى . على أن الأمر لم يلبث أن تكشفت نتائجه لمن كان أشرهم عناداً وأصلبهم عوداً ، وأبعدهم إيغالا فى حب التفرد بالسلطان ، والاختصاص بالنفوذ وسعة الجاه . فأدرك بعد أن راجع بصيرته ، أن محمداً لم يرد بدعوتهم إلى الله سلب سلطانهم ، أو التفرد بالنفوذ المطلق دونهم ؛ وإنما أراد بدعوته إيّاهم إخراجهم من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة ، ومن ذل العبودية لغير الله إلى عز السيادة والحرية بحول الله . فلما تبينوا ذلك دخلوا فى دين الله أفواجاً ، وتسابقوا إلى حظيرته أفراداً وأزواجاً .

لذلك لم يكد يمض على مبعثه صلى الله عليه وسلم نَيِّفٌ وعشر من السنين حتى كانت دعوته الحقة تتجاوب أصداؤها فى أمم الأرض ، ويتردد ذكرها على الألسنة فى الخافقين . فكان ذلك إرهاصاً لنجاح تلك الفتوحات العظيمة التى تمت على أيدى الخلفاء من بعده ، وتمهيداً لانتشار دين الله بين الشعوب والأمم المختلفة ، فأقبل الناس عليه من أقاصى البلاد وأدانيها ، وأكب أهل التفكير منهم على أصوله يستوضحون كنهه ، ويتبينون مراده ، ويستشفون مراميه وأغراضه، ويستثيرون مكامن أسراره . حتى إذا علم منهم من كتب الله له الهداية أنه سهل التناول ، سمح المبادئ ، مرضى الطريقة ، غير معقد الأصول ولا مبهم الأحكام ، اعتنقه طيّب النفس ، هادئ البال ، مطمئن الضمير . ولهذا لم تعقد العشرة الثامنة من القرن الأول إلا كان هذا الدين الحنيف قد عم ـ أو كاد ـ بقاع الأرض من سهول آسيا وصحارى أفريقية وجانب كبير من أوربا . أو كما قال نابوليون بإعجاب : « لقد فتح العرب نصف الدنيا فى نصف قرن » . وصار معروفاً عند كل ناطق بلغة من لغات

البشر ، وأصبح اسم الله يتلألأ فى خواطر الملايين من بنى الإنسان ، وتعمر به قلوبهم ، وتخفق له أفئدتهم . وامتدت حدود سلطانه من أواسط الصين شرقاً ، إلى شواطئ الأطلنتى غرباً . « ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ » .

من أجل هذا كله ، وهو قليل من كثير ، وَبَرَض من غزير ، أرى أنه يجب على كل مسلم ، ويفرض على كل عربى ، ويحسن بكل إنسان آتاه الله عقلا سليما ، وطبعاً مستقيما ، ورأياً حكيما ، ووهبه ذهناً صافياً ، أن يوجه عنايته الفائقة إلى الاحتفال بهذه الذكرى السعيدة ، ذكرى مولد سيد المرسلين ، وإمام الهداة والمتقين ، وخاتم الأنبياء والصِّدِّيقين ، محمد بن عبدالله المبعوث رحمة للعالمين ، « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ » .

عصر الاسلام الأول

١ — فى عصر النبوة :

كان عصر الإسلام الأول ، عصر النبوة ، ومستهل الرسالة ، ومطلع شمس البعثة ، ومبتدإ نشر الدعوة ، وتنبيه العقول إلى الاعتبار بالكائنات ، والنظر فى خلق الأرض والسموات ، وتحريك القلوب إلى معرفة الخالق ، وتوحيد المبدع الرازق . ثم تحرير الإنسانية من رق العبودية ، ووضع القواعد الصالحة للدولة المثالية ، وتشييد أركان الاجتماع على سنن الفطرة السليمة وأحكام دين الله القويم . ولمّ شعث العروبة بعد أن فرقتها الأهواء ، ومزق شملها الطغاة الأقوياء . والعمل على توحيد كلمتها وتوجيهها إلى ما أعده الله لها من المجد والاستعلاء ، وتسنم غوارب الفخر وحسن العقبى بالاندفاع إلى بسط سلطان كتاب الله الكريم ، والتمكين له فى قلوب المستجيبين ، وإظهار آياته على أعين المخالفين ، وبث كلماته فى نفوس المتلهفين ؛ ليكون لهم بذلك العلو فى الأرض ، والحياة الحرة الكريمة بين الأمم وما عند الله - فوق ذلك كله - خير وأبقى . والعاقبة للمتقين .

٢ — فى عصر الخلفاء الراشدين :

ففى هذه الأحوال ؛ لم يفكر أحد من الخلفاء الراشدين ، عليهم رضوان من الله ، فى أن لمولد الرسول صلوات الله عليه ، من الشأن ما يوجب تذكاره بصورة عامة ، أو الاحتفال به واقترانه بالواجبات الهائلة التى ألقاها الدين على عواتقهم ، ولم يروا فيه ما رآه غيرهم ، ممن جاء بعدهم ، من مظاهر

العزة وآيات التقوى والصلاح . وما كان يُعد عندهم سبباً من أسباب استمالة القلوب واجتذاب النفوس إلى الخير والفلاح . بل ما هو أن انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى ؛ حتى انصرفوا بما أوتوا من قوة الإيمان بالله تعالى ، إلى توطيد أركان الدين فى أنحاء الجزيرة العربية ، وتثبيت قواعد الإسلام فى سهولها ونجودها ، على تقوى من الله ورضوان ، وتوطيد دعائمه فى طوايا النفوس التى عراها من الاضطراب إثر الوفاة ماعراها ، ثم النهوض بعد ذلك ببث الدعوة المحمدية فى الأمم المجاورة لأرضهم ، والشعوب المتاخمة لديارهم ، ثم التوسع فى الجهاد لإعلاء كلمة الله فى مختلف الأجناس البشرية ، وطَرق أبواب الفتوح لإدخال الناس فى دين الله كافة . وذلك بعد أن قاموا بمناهضة نزوات الدعاة الكذبة ، والمتنبئين الفجرة ، وإخماد ثورات العُصاة والمتنزين ، وتطهير الأرض من البُغاة والخارجين . وكان لهم من ذلك ماشاء الله أن يكون .

من أجل ذلك لم يفكروا فى إحياء هذه الذكرى الكريمة ، ذكرى المولد النبوى الشريف ، ولم يَجر لهم الاحتفال بها على خاطر . فإن الفرائض مُقدمةٌ على النوافل .

٣ — فى عصر الدولة الأُموية :

وجاء من بعدهم الخلفاء من بنى أمية ، فشُغلوا بمنازعة خصومهم من العلويين ، ومقارعة منافسيهم من الزبيريين ، ثم تجردوا لمحاربة الخوارج والمتمردين ، ونَهَدُوا للعمل على تمكين قواعد ملكهم ، وتثبيت أركان دولتهم وتوحيد أزِمَّةِ الحكم والنفوذ والسلطان فى أيديهم . على أنهم مع هذا كله ،

لم يلههم ذلك عن بعث البعوث ، وإزجاء الجيوش ، وبث السرايا [١] يتلو بعضها بعضاً إلى أقاصى البلاد ، ومتنائى الممالك ، ومتباعد الأمم ، ومتطرف الشعوب ، لنشر راية الإسلام فى مختلف الدول ، وإدخال خلق الله فى دين الله القويم .

لذلك لم يركض خاطر العناية بالذكرى النبوية فى رأس أحد من رؤسهم ، ولم يفكروا فى أن للرسول الكريم يومَ ميلاد يصح تذكاره ، أو اعتباره عيداً من أعياد الأمة الإسلامية ومواسمها الحافلة . كما لم يفكر فى هذا زعيم ممن تفردوا بإنشاء الدول منهم فى أطراف البلاد التى تدين بالإسلام كبلاد الأندلس وأفريقية ،وما والاهما ، فى تلك الحقبة .

٤ — فى عصر الدولة العباسية :

ثم تلا الأمويين فى حكم البلاد الإسلامية ، خلفاء بنى العباس . فكان أكبر همهم ، بادئ ذى بدء ، انتزاع الملك من أواخر المروانيين ، ومطاردة الدعاة من الغالين ، ومناجزة الناجمين من أبناء عمومتهم العلويين والطالبيين ، والتنكيل بكل من يحدث نفسه بالخروج عليهم ، أو يغمض عينه على قذى من سلطانهم .

وهم كذلك لم يثنهم ما كانوا فيه من هذه الشدائد والمحن ، عن بث

(١) السرايا ، جمع سرية : وهى فرقة من الجيش كانت تؤلف من ٤٠ رجلا إلى ٤٠٠ وكان من شأنها أن تتقدم الجيش الزاحف ، للاستطلاع . وقد تلتقى بطلائع العدو فتشتبك معه فى عراك إلى أن يلحق بها الجيش . ويغلب أن يكون جنودها من الصفوة الممتازة بالشجاعة والنجدة والبسالة .

السرايا ، وإزجاء الصوائف والشواتى [١] إلى أطرف الممالك الدنية ، وتجمير الجند فى حدود الدول القصية ، وحشد الجيوش فى الثغور والمخاوف ، وإنشاء المسالح [٢] على أفواه الدروب ، وفى قوارع المسالك . وإعداد المستطاع من القوى للطوارئ المبيرة ، ورد عادية الجيوش المغيرة ، وكبح جماح الطامعين من الدول الأوربية ، والأمم الأسيوية ، والأجناس الإفريقية .

لهذه الأسباب كلها مجتمعة ، أو متفرقة ، لم تجر فكرة اتخاذ مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، عيدا إسلاميا ، أو موسما قوميا ، يحسن الاحتفال به ، على قلب أحد من هؤلاء جميعا ولو كان خطر لأحد من العباسيين خاطر الاحتفال بهذه الذكرى الكريمة ، لحال دون إنفاذها أن تكون من الأسباب التى يتذرع بها أنصار الدعوة العلوية ، وأعضاد الفكرة الطالبية ، ويكون فى ذلك تقوية لدعوتهم ، وإرهاف لحدهم ، فلا تفتأ فتنهم تتوالى فى كل صباح وفى كل مساء ، حتى لا يكون للدولة من شاغل إلا مدافعتهم ، ورد عاديتهم .

وعلى هذا لم أر أحدا ممن عُنى بتدوين أخبار هاتيك الدول ، وتسجيل أحداثها ، وتحرير شؤونها وتصرفاتها ، أشار من قرب أو من بعد ، إلى أن هذه الفكرة ، فكرة الاحتفال بالمولد النبوى ، ركضت لأحد من أئمتها فى ضمير ، أو خطرت لأحد من خلفائها وأمرائها على قلب . ولا عجب فى ذلك ، لما بيناه من العلل والأسباب .

---

(١) الصوائف ، جمع صائفة ، وهى الفيلق من الجيش يقوم للغزو فى فصل الصيف ، والشواتى ؛ جمع شاتية : الفيلق من الجيش يغزو فى فصل الشتاء ، حسب حالات البلاد واختلاف الأقاليم .

(٢) المسالح ؛ جمع مسلحة : وهى فرقة من الجند ترابط فى الدروب الموصلة بين الممالك ، ومن شأنها حفظ الثغور وصيانة المراقب ،

٥ — فى عهد ملوك بنى بويه:

ولكن العجب العاجب فى أن الملوك من بنى بويه الديالم[1] المتغلبين على المستضعفين من خلفاء بنى العباس ، والذين بسطوا سلطانهم على بغداد عاصمة الدنيا الإسلامية فى تلك القرون ، واستنابوا أنفسهم عن أئمتها بالقوة القاهرة فى إدارة ملكهم الواسع العريض ردحا من الزمن ـ هؤلاء القوم الذين كانوا يغالون فى التشيع لآل بيت الرسول ، والذين يعرفون ما بين العباسيين والعلويين من خصومة لا يطير غرابها ـ هؤلاء الديالم مع تشيعهم الظاهر ، لم يفكروا فى إحياء ذكرى مولد الرسول صلوات الله عليه ، واتخاذها عيداً يندب الاحتفال به ، ولا اعتبروها موسماً يصح التنبه إليه . مع أنهم اتجهوا بالكثير من عنايتهم إلى التوسع فى إحياء بعض الأعياد الفارسية ، وعلى الخصوص : أيام النيروز والمهرجان . فقد كانوا يعنون بها ويقيمون لها الاحتفالات الشائقة .

ومع أن معز الدولة الذى كان من عظماء ملوكهم ، وواسطة عقدهم ، كان أول من دعا إلى إشهار الاحتفال بعيد (الغدير) بالفرح والسرور ، وإلى إحياء (يوم عاشوراء) بالتحازن والتباكى والنواح ، وحمل الناس فيه على

---

(١) زعم بعض النسابين أن الديلم من أصل عربى . فقد روى أبو عبيد القاسم ابن سلام أن باسل بن ضبة خرج مغاضبا لأبيه فوقع بأرض الديلم فتزوج امرأة من العجم فولدت له (ديلما) فهو أبو الديلم .

قلت : وضبة هذا هو ابن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وكان لضبة ، فيما قيل ، ثلاثة أولاد ، هم : سعد ، وسعيد ، وباسل ، والأخير هو الذى يزعمون أنه أبو الديلم ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

إظهار أنواع الأسى ، والمبالغة فى إبداء الأتراح ، وهذان اليومان هما من أيام الشيعة المذكورة ، ومواسمها المشهورة . مع هذا كله ، لم يفكر فى إحياء الذكرى النبوية ، وهى أولى بالإحياء والتفخيم ، وأدخل فى باب التشيع لأبناء الرسول ، من كل ماعداها من الذكريات . . . !

ولما كانت صِلات المودة ، وأواصر التفاهم متوشجة فى ذلك العهد ، بين آل بويه فى بغداد ، وآل عبيد الله الفاطميين فى مصر ، على تباعد مابينهما من عوامل السياسة ، إلا أن روح التشيع كان يؤلف بين وجهات نظرهما الدينية . وكانت هذه الصلات وهاتيك الأواصر ، تظهر حيناً ، وتختفى أحياناً بسبب ما كان بين الدولتين العباسية والفاطمية ، من التنافس . فلم ير المعز لدين الله الفاطمى بأسا فى انتهاج سنن معز الدولة الديلمى ، فى شهر هذين اليومين (يوم الغدير) و (يوم عاشوراء) وإحيائهما فيما أحيا أو ابتدع من أيام المواسم والأعياد التى أعطاها من عنايته ماتستحقه من رعاية صادقة . وقد ترسم ذلك سائر فرق الشيعة فى أكثر البلاد والممالك الإسلامية .

٦ — فى ابتداع المولد النبوى :

وهنا يحمل بى أن أقول : إن هذه المواسم والأعياد والموالد ، وما شاكلها ، وجرى فى سبيلها ، إنما تعد من البدع التى لم يأذن بها الله ، ولا ورد فيها ما يشير إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بها ، أو أشار إليها ، أو باشرها ، فى قول أو فعل ـ حاشا عيدى الأضحى والفطر ـ وكذلك لم يعرفها أحد من الصحابة ، على طبقاتهم ، ولم يشهدها أحد من التابعين ، على درجاتهم ، ولم ينوه بها أحد من الأئمة المجتهدين الذين ضبطوا

أصول الشريعة ، وحرّروا فروعها ، وبيّنوا مدلولاتها .

على أنه ـ وقد أصبحت هذه البدعة حقيقة واقعة ، وأمراً جماعيا ـ يحسن أن ينظر إليها بما ينشأ عنها من نتائج . فإذا كان للأمة فيها مرفق من مرافق الخير ، وكانت من الشؤون التى يغلب فيها الصلاح على الفساد ، والمنافع على المضار ـ كانت من البدع المستحسنة التى لا بأس بمباشرتها فى حدود المصلحة العامّة ؛ وإلا فتعد من البدع التى يجب النظر فى شأنها ، والعمل على الإقلال منها وعدم تغذيتها بما يقويها حتى تزول من تلقاء نفسها ، مع الزمن .

وقد ثبت على الدهر أن هذه المواسم والأعياد ، بل والموالد أيضاً ، فيها الكثير من الفوائد ، وفيها الكثير من المنافع ، وليس فيها مايتعارض والصالح العام . فأكثرها صار أسواقاً تتبادل فيها المتاجر ، وتتعاوض فيها الصنائع ، وتنفق فيها السلع والبضائع ، ويتعارف فيها الناس ، وتُبذل فى أثنائها صنوف الخيرات ، وتَفيض أنواع المبرات . ويجد فيها المعروف نَفاقا ، والتخاصم وِفاقا . ويسهل فيها التعامل بين متباعدى الديار ، ومتنائى الأقطار .

هذا : ومن الأمور البديهية أن لكل زمن أقضيته ، ولكل دهر شِرعته ولكل عصر تطوّراته ، ولكل جيل شؤونه ومبتدعاته . وليس فى هذه الحياة خير لا يتمخض عن شر ، وليس فيها شر لا يتولد منه خير . والعمدة على صدق النية والاتجاه نحو الفضيلة ، والعبرة بقيمة الفوائد العامة الحاصلة من البدعة ، وتغلب المصلحة المرسلة على المفسدة العارضة . وإجماع الأمة على الأمر له خطره ، والرضاء العام له اعتباره وقدره .

عصر الدولة الفاطمية

١ — فى ظهور هذه الدولة وملابساته

رأيت أنه يحسن بى : قبل التحدث فيما كان للخلفاء الفاطميين من بنى عبيد الله بمصر من شأن ، فى ابتداع فكرة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، وما كانوا يقومون به من فائق العناية ، وفاخر الاحتشاد ، وما كانوا ينفقونه فى سبيله من الأموال الطائلة ، والخيرات الحافلة ـ أن أتحدث هنا أولا عن أسباب ظهور هذه الدولة وعلله وملابساته ، وما اقترن به من الحوادث والوقائع . ثم أعقد بحثا فى حقيقة أمرهم ، والنظر فيما دار حول نسبهم العلوى ، من أخذ ورد ، وتعديل ونقد ، وأن أعرض للأسباب التى دعت إلى إثارة الغبار عليهم ، ومحاولة تناولهم من هذه الناحية للحط من أقدارهم ، وأوضح موقف دولتهم وخلفائهم من الدولة العباسية وخلفائها . ليكون المطلع على بينة من حالهم ، واستنارة فى شأن نسبهم . ولئلا يُخدع بما تناقله بعض المؤرخين وأصحاب الأخبار عن الرواة المقممين ، مما لا يتفق والصحيح من أحوالهم ، ولا تؤيده المعدلة فى شأنهم . فأقول :

من المعلوم عند من له إلمام بالتاريخ الإسلامى ، أن الدولة العباسية إنما قامت ، فى أول أمرها ، ومفتتح عهدها ، على الدعوة إلى (الرضا من آل محمد) وهذا التعبير فيه لبس وغموض . فقد يفهم منه العامة أنه يشير إلى آل بيت الرسول من أبناء فاطمة ، وقد يقصد به منتحلوه المعنى الأعم حيث يدخل فيه أعمام الرسول وأولادهم . كما يدخل فيه أبناؤه وأنسالهم . فلما استجاب الناس

إلى هذه الدعوة بمعناها المفهوم بداهة ، واستتب الأمر لأبى العباس عبدالله السفاح ولأبى جعفر المنصور ، وانتظم السلطان للدولة العباسية ، واتسق لها النفوذ والحكم ، وجهت همتها إلى النظر فيمن يرى له الحق فى منازعتها الأولوية بدعوى الخلافة الإسلامية ، وإلى من يصح أن ينظر إلى ما صار إليها وأصبح فى يدها من ملك عريض ، ودولة مترامية الأطراف - على أنه أحق به وأجدر - فلم تر أمامها من ينافسها فى ذلك بحجة واضحة وسلطان مبين ، إلا شيوخ السلالة العلوية من أبناء فاطمة ، وهم (آل محمد) وعترته على التحقيق . ومع أن العباسيين إنما قاموا على أساس الدعوة إلى الفواطم من أبناء علىّ وباسمهم استجابت لهم الأمم . وانثالت عليهم زعماء الشيعة ، ورجال الدعوة ، وبدعوى الثأر لهم نكلوا بالأمويين وثلوا عروشهم ، وشادوا ملكهم الضخم على أنقاض دولتهم . مع هذا كله : فقد وجه أبو جعفر المنصور ومن تلاه من أولاده وأحفاده ، جل همتهم إلى إبادة أبناء على ، ومحو سلالته من فاطمة ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . فكانوا يطاردونهم حيثما ثقفوا ، ويعفون آثارهم أينما وجدوا .

بثوا عليهم العيون ، وقعدوا لهم بالمراصد ، وتتبعوا ظلالهم فى أنحاء البلاد ، وطلبوهم تحت كل حجر ، وخلف كل مدر ، فما ظهر منهم داع فى أى مصر من الأمصار إلا سيرت إليه الجيوش ، ولا نبغ فيهم قائم إلا استبيحت منه الحرمات ، وغرق هو ومن ناصره فى بحار من الدماء ، ونكل بأهله شر تنكيل . وما كان يمر يوم من أيام دولتهم دون أن يرى الناس فيه من العلويين قتيلا ، أو مصلوبا ، أو يسمعوا عن بعضهم بسجين ، أو طريد ، أو شريد . فالذى ينكشف

أمره فى أى قطر من أقطار الدولة ، أو أى بلد من بلادها ـ قربَ أو بعد ـ قُتل أو صُلب . والذى يترامى إليهم أمره خارج سلطانهم ، دسوا إليه من يخمد أنفاسه ، بأى وسيلة من وسائل الحتف ، بالسم أو بغيره .

ومع ذلك فقد شملتهم البركة ، وكتب لهم النماء والكثرة ، وصح فيهم قول علىّ أبيهم : بقية السيف أكثر عدداً ، وأنمى ولداً .

كان هذا شأن العباسيين مع أبناء عمومتهم ـ العلويين والطالبيين ـ أيام قوة الدولة لا يستهان بها ، وأيام صعود نجمهم فى أوج العزة والشوكة . فلما حالت العهود ، وأخذت الدولة فى التدلى من سماء العزة والجبروت ، وتغلب على خلفائها الملوك الديالم من بنى بويه ، وانفصلت عن سلطانها بعض الولايات كان الفاطميون من بنى عبيد الله ـ وقد نجوا من كيد العباسيين ـ أسسوا ملكهم بالمغرب ، وشيدوا دولتهم فيه بما تهيأ لهم من قوة ، وما أظهروا من بأس . ثم أخذت شوكتهم فى الاشتداد ، وسطوتهم فى الامتداد ، حتى استولوا على الكثير من أمصار الدولة العباسية ، وملكوا بضعة من أقطارها العظيمة فى أفريقية وفى آسيا . وناهيك بحيازتهم مصر والشام والحجاز واليمن ، وكانت أجل بلاد الدولة العباسية وأفضل أمصارها .

فلما رأى العباسيون هذا الخطر المحدق بهم ، وعلموا ألّا قبل لهم بمقارعة هذه الدولة الحديثة الناشئة ، وأنها توشك أن تزيلهم عن عروشهم ، وتقبض على زمام الأمر فى عُقر دارهم . فكر بعض خلفائهم فى حيلة تكف عن بلاده غرب حدتهم ، وتدخل الشك على الناس فى حقيقة أمرهم ، وتصرف الوجوه عن تأييدهم ، والقلوب عن الميل إليهم . وبعد إعمال الفكر وإدارة

الرأى ، هداه التفكير إلى ضلالة رأى فيها أن أقرب شيء يؤدى إلى هدفه المرجو ، ويوصل إلى مقصده المبتغَى : انتحال الطعن فى نسبهم ، ونشر الدعوة إلى نفيهم عن آبائهم وأمهاتهم ، وإلحاقهم ببعض الأنساب التى تنفر منها القلوب ، وتشمئز النفوس ، وتمجها الأسماع ... وهذه حيلة العاجز وملجأ الضعيف .

أما الطالبيون على العموم ، والعلويون على الخصوص ، فقد كانوا طوال عهود الاضطهاد ، وأزمان تلقى الكروب والويلات ـ لاسيا من أبناء عمومتهم العباسيين ـ يلجأون إلى الاستتار ، بقدر استطاعتهم ، ويعيشون فى زوايا الاختفاء ، ماتهيأت لهم الأسباب . وهم فى خلال ذلك لاينفكون عن بث دعوتهم سرا ، ولا ينون عن لم شعث أنصارهم وشيعتهم ، ولا يغفلون عن اتخاذ الوسائل للإثارة والقيام ، وإعلان دعوتهم متى أنسوا فى أنفسهم القوة والاعتصام . حتى إذا ماظن أحد زعمائهم بأن الظروف قد واتته ، وحسب أن القدرة على المكاشفة قد حالفته ، ظهر ودعا إلى (الرضا من آل محمد) وقد كان هذا شعار العباسيين فى مناشئ دعوتهم كما أسلفنا . فإذا استحكمت له العدة ، وانعقد له الأمر وبلغ حده ، ورأى حوله تجمع أسباب الغلب والتمكن ، كشف الغطاء عن خبيئة صدره ، وصرف الدعوة إلى نفسه .

وعلى قاعدة التستر والترقب ، والاختفاء والتوثب ، ونشر الدعوة فى السر والأخذ بزمام التوثق ، جرى أمر الفاطميين فى مبتدأ أمرهم ، ومستهل نشأتهم .

ففى سنة ٢٨٨ هـ ٩٠١ م وفى عهد الخليفة المعتضد العباسى ، ظهرت الدعوة الفاطمية بالمغرب ، على أيدى أبى عبد الله المحتسب الشيعى وأخيه

أبي العباس . ونشرا دعوتهما في أول الأمر ، على القاعدة المعروفة – إلى (الرضا من آل محمد) فلما استجابت لهما قبائل كُتامة القوية الباسلة وأيدتهما بما أُوتيت من قوة وبأس ، حتى إذا ما استحكم لهما الأمر ، ودخل الكثير من القبائل الأخرى في دعوتهما ، لم يلبثا أن كشفا القناع وأعلنا بالدعوة إلى عبيد الله المهدى رأس الفاطميين [١] . وسرعان مادخل الناس فيها أفواجاً .

وكان المعتضد العباسي من أحزم خلفاء بغداد ، وأقواهم نفسا ، وأشدهم أسرا ، وأسرعهم نهوضا في العظائم ، وأصبرهم صمودا في وجه المتوثبين على الدولة من العلويين وغيرهم . فأباد منهم من أباد ، وشرد من شرد ، حتى استقام له السلطان المطلق ، واستتب له الأمر المحكم ، واستردت الدولة العباسية في عهده الكثير من رسومها القديمة ، واستعادت الخلافة الإسلامية هيبتها الموروثة . وقد توفي سنة ٢٨٩ هـ ٩٠٢ م .

كان حينما بلغه أمر الدعوة إلى الفاطمي عبيد الله المهدى بالمغرب ؛ كتب إلى بنى الأغلب [٢] أصحاب القيروان وأمراء أفريقية ، وإلى آل مدرار

---

(١) الفاطميون الذين قاموا بالمغرب هم : عبيد الله المهدى ، وهو رأسهم وإليه ينتسبون فيقال لهم (العبيديون) تولى خلافتهم في سنة ٢٩٦ هـ ٩٠٨ م وتوفي سنة ٣٢٢ هـ ٩٣٣ م ثم تولى بعده ولده القائم بأمر الله نزار ، وتوفي سنة ٣٣٣هـ ٩٤٤م ثم قام من بعده ولده المنصور إسماعيل ، وتوفي سنة ٣٤١هـ ٩٥٢م ثم قام من بعده ولده المعز لدين الله معدّ ، وكان دخوله مصر في سنة ٣٦٢ هـ ٩٧٣ م ، وبها توفي سنة ٣٦٥ هـ ٩٧٥ م .

(٢) بنو الأغلب : أسرة عربية تولى القيروان وماوالاها ملوك منهم معترفا لهم بالإمارة من الخلفاء العباسيين . وكانوا بها مستقلين مع الإقرار بسلطة الخلافة العباسية . ومؤسس هذه الأسرة هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمي =

أصحاب سجلماسة ، [١] بمعارضة دعاة الفاطميين وقبضهم والتنكيل بهم ، وإخماد ثائرتهم ومع هذا لم يفكر فى المساس بنسبهم .

غير أن الدعاة كانوا قد مهدوا السبل ، وعبدوا الطرق ، وأعدوا النفوس لقبول المهدى عبيدالله ، فدخل المغرب متنكرا فى زى التجار - وكان ذلك فى سنة ٢٩٠ ﻫ ٩٠٣ م فى عهد خلافة المكتفى العباسى - وكان الطلب يلاحقه فى كل وجه . فلما بلغ إلى سجلماسة ، هو وولده القائم ، قبض عليهما اليسع بن مدرار أميرها ، وأودعهما السجن ... وما أن علم بذلك أبو عبد الله الشيعى صاحب الدعوة الفاطمية حتى شن الغارة على ابن مدرار وهزم جيشه ، ومزق شمله ، واستولى على سجلماسة ، واستخلصهما من السجن .

وكانت لهم بعد ذلك وقائع وحروب وغارات ، تغلبوا فيها على ملك بنى الأغلب ، وعلى من ناوأهم من أمراء أفريقية والمغرب وعلى عمال بنى العباس ،

= توفى سنة ١٩٤ ﻫ ٨٠٠ م فى عهد هرون الرشيد . وظلت تتنقل فى ولده إلى أن وليها آخرهم أبو مضر زيادة الله سنة ٢٣٦ ﻫ ٩٠٩ م وبه انقرضت دولة الأغالبة باستيلاء عبيد الله المهدى على ملكهم . وكانت هذه الأسرة من أجل الأسر التى جاهدت فى سبيل الله . ومن أشهر مآثرها غزوها صقلية واستيلاؤها عليها وعلى غيرها وضمها إلى إمارتها ، مما هو مفصل فى بطون التاريخ .

(١) كان لخوارج الصفرية والأباضية شأن يذكر بأفريقية والمغرب . ففى سنة ١٤٠ ﻫ ٧٥٧ م وقع اختيارهم على عيسى بن يزيد الأسود ، وكان من الموالى ، فاختط سجلماسة واتخذها دار ملك لهم ، ثم سخطوا عليه فأوثقوه وألقوا به على قنة جبل فهلك فى سنة ١٥٥ ﻫ ٧٧٢ م ثم تولى بعده ملوك من أولاده وأحفاده إلى أن كانت سنة ٢٧٠ ﻫ ٨٨٣ م حيث تولى اليسع بن المنتصر بن مدرار ، وهو الذى قتله أبو عبد الله الشيعى داعية المهدى سنة ٢٩٦ ﻫ ٩٠٩ م ثم جرت بعد ذلك خطوب وأحداث وفتن لا محل لذكرها هنا ، وقد ألم بها ابن خلدون فى تاريخه .

وفر منهم زيادة الله بن الأغلب صاحب القيروان ، واستولوا على البلاد ، ودانت لهم العباد ، وصفا الزمان ، واستتب الأمر .

ولما قبض عبيدالله المهدى على أزمة السلطان فى المغرب ، واشتدت شوكته فى أفريقية ، وخضعت لنفوذه قبائل البربر ، وناصرته عشائر العرب ، أحس من أبى عبدالله الشيعى وأخيه صاحبى دعوته ، إدلالا عليه ، وتنفجا بما قاما به من نشر الدعوة ، وتمهيد الدولة . ورأى منهما تمردا على أوامره ، وائتمارا على منابذته والخروج عن طاعته ، فلم يطق على ذلك صبرا ، بل بادرهما فى الحال بالتخلص منهما ، وأذاقهما الموت الوحىّ . ولم يرع فى جانبهما إلاًّ ولا ذمة .

وقد جرى فى فعلته هذه على ما جرى عليه أبوجعفر المنصور العباسى من قبل ، فى أمر أبى مسلم الخراسانى القائم بالدعوة العباسية . وكما فعل عبدالملك بن مروان من قبلهما فى عمرو بن سعيد بن العاص .

والملك عقيم ، لا يرعى فى تثبيت أركانه ، أصرةً من أواصر القربى . ولا يقيم وزنا فى تشييد دعائمه ، لوشيجةٍ من الوشائج والصلات مهما كانت قيمتها ، ولا يحتمل الإدلال من أى كائن مهما عظم بلاؤه وتوفرت على يديه أسباب السلطان والنفوذ ووسائل الحكم . لا فرق فى ذلك بين قريب النسب ، أو بعيد السبب .

أراح المهدى نفسه من الوساوس التى أقضت مضجعه ، وكادت تكدر عيشه ، من حركات أبى عبد الله وأخيه . وبذلك تم له الأمر ، وصفا الوقت ، وأقبل عليه الخلق يبايعونه بالإمامة ، ويدعون له على منابر البلاد بالخلافة .

واختط مدينة (المهدية) واتخذها دار ملكه ، وقاعدة سلطانه ، ومبعث سطوته ونفوذه .

غير أن ما صارت إليه هذه الدولة الفتية من عظيم الشوكة ، وخطر السلطان نغص على خلفاء بنى العباس حياتهم ، وكدر عليهم عيشهم . وأقض مضاجعهم وصارت شجًى فى حلوقهم ، وقذًا فى عيونهم . خصوصاً بعد أن انتزع منهم الفاطميون الكثير من ولاياتهم ، وشاركوهم فى ممالكهم . ولم يكفهم ذلك بل بثوا دعاتهم فيما بقى من بلادهم ، بين الظهور والخفاء ، فدخلوا عليهم عُقر دارهم ، وتغلغلوا فى عاصمتهم ، وصار لهم فى بغداد شيعة هائلة يعتد بها ويعمل حسابها .

لم تقف همة عبيد الله المهدى عند هذا الحد ، من تكوين الدولة الفاطمية على حساب أملاك الدولة العباسية ، بل فكر وأعد العُدة للاستيلاء على الديار المصرية ، وهى مفتاح الحرمين الشريفين ، وصلة ما بين القارتين ، فجهز جيشاً ضخماً وسيره فى أسطول لمهاجمة الإسكندرية . فاحتلها وانتشرت عساكره حتى الفيوم . وكان ذلك فى سنة ٣٠٢ هـ ٩١٤ م . ولما ترامت الأخبار إلى المقتدر العباسى فى بغداد لم يتوان فى إرسال الجيوش من عاصمة الخلافة ، فالتقت بجيش المغاربة وهزمته وفرقت شمله ، بمساعدة من كان بمصر من الجند ، وقتل القائد المغربى حُباشة فى المعركة ، وذهبت فلوله إلى برقة . وكان على ولاية مصر فى ذلك الحين ، أبو منصور تكين بن عبد الله الخزرى .

ثم توالت بعد ذلك غزوات الجيوش الفاطمية على ثغور الديار المصرية المرة بعد المرة . وكان نصيبها فى كل غزوة الفشل الذريع ، والهزيمة الماحقة

إما بدفع الجيوش المصرية ، وإما بفتك الأوبئة والأمراض والطواعين الجائحة .

وفى عهد الدولة الأخشيدية ، أيام زمام الأمر فى يدى كافور ، رأى ذلك الخصى النابه بثاقب فكره ، أن الأمر يحتاج - فى رد عادية الفاطميين - إلى سياسة خاصة . وكان على شىء كثير من الحُنْكة والدهاء ، وعلى مواهب من وفور الحكمة ونفوذ البصيرة . لاسيما أن الجيوش المصرية قد أفنتها كثرة الغارات وفرقتها توالى الحروب واستمرار المعارك فى رد جيوش القرامطة وغيرها من فرق التخريب والتدمير ، وعناصر الإفناء والاجتياح ، بله الأمراض الوافدة ، والأوبئة الفاتكة . فكر كافور فى كل هذا وقدر ، وأدار الرأى وتبصر ، وانصرف جل اهتمامه إلى أن يكفى البلاد جوائح هؤلاء المغيرين ويفل من شباة مطامعهم .

وبينا هو يضرب أخماسه لأسداسه ، حضرت أم المعز لدين الله إلى مصر قاصدة الحج إلى بيت الله الحرام فانتهز كافور هذه الفرصة المواتية ، وأكرم وفادتها وحاطها بالكثير فى صنوف الرعاية والعناية ، وأفاض عليها من ألوان البر والإكرام ما عقد لسانها عن أداء ما يجب من الحمد والشكر ولم يكتف بما شملها به من كبير العطف أثناء مقامها بمصر ، بل زاد على ذلك بأن أرسل معها إلى الأماكن المقدسة ثلة من الجيش المصرى ، ترعاها وتحفظ ركبها الفخم الذى كان مؤلفا من هودج خاص لها ، وقطار كبير من الجمال يحمل أمتعتها ، ويقل حاشيتها .

ولعل هذا كان أساسا لفكرة (المحمل) التى نشأت فى عهد شجرة الدر . وحصل الافتنان فى تسيير ركبها فى حراسة فرقة من الجيش ، وفى أبهة

بالغة ، واحتفال كبير . ثم جرى العرف بعد ذلك على إرسال المحمل بحفاوة عظيمة إلى اليوم .

ولم يلجأ كافور إلى ذلك إلا لأن طريق الحج فى تلك الآونة كان غير مأمون . فأدت السيدة أم المعز فريضتها آمنة مطمئنة ، ثم عادت إلى بلادها راضية مرضية ، تذكر لكافور حسن الرعاية ، وللمصريين جميل العناية ، وتشيد بما لاقت من كرم الضيافة . ثم تحدثت إلى ولدها المعز بكل ما شاهدت وما لقيت ، مطلقة لسانها بعظيم الشكر وجميل الثناء ، مما أثلج صدره وحل من نفسه محلا كريما . وحفظ لكافور والمصريين هذه اليد العالية فى الكرم ، ولم ير جحدها من نبيل الشيم .

ثم والى كافور بعد ذلك إرسال الهدايا إلى المعز وخواص حاشيته ، وسعى سعيه المشكور إلى أن عقد بينه وبين المعز معاهدة صداقة وحسن جوار ، كما يصنع ودهاة السياسة فى هذا العصر . فكف بذلك عدوان الجيوش المغربية ، وشل حركة الأساطيل الفاطمية ، وكسب لمصر صداقة القواد وإعجابهم ، فلم يحركوا ساكنا ، ولم ينقضوا عهدا .

وظلت هذه المعاهدة قائمة الشرائط ، مرعية الأركان ، ما بقى الأمر لكافور . فلما توفى سنة ٣٥٧هـ ٩٦٨م وانتقل الأمر من بعده إلى بقايا الإخشيديين ، ساءت الحال فى الديار المصرية ، وقام التنافس بينهم على الملك ، واستحر التنافر على النفوذ ، وعجز الوزراء عن إرضاء الجند ولم يتمكنوا من صرف أرزاقهم ، لاضطراب تحصيل الجباية ، وضياع الأموال فى الفتن ، فعمت الفوضى ، واختل النظام ، وذهب الأمن ، وذاع الخوف والقلق ، وشمل

الهول والفزع ، هنالك لم ير العقلاء وأهل الرأى من المصريين ، مندوحة عن الاستعانة بالمعز حليف مصر . فكتبوا إليه بوصف ما صارت إليه الحال من السوء ، ودعوه إلى المبادرة بالحضور لإنقاذ مصر مما أصابها من الفتن ، وانتشالها مما تردت فيه من أسباب الخراب والدمار .

كانت الأحوال فى مصر قد ترامت إلى أسماع المعز فى المغرب ، فتريث إلى أن وصلت إليه رسالة المصريين بالدعوة . هنالك لم ير بدا من المبادرة إلى الإنقاذ ، فجهز جيشا لجباً بقيادة جوهر الصقلى ، وأمده بالأموال الجسيمة ، والأعتدة العظيمة ، فوافَى بذلك كله الديار المصرية . وإلى هذا أشار ابن هانئ الأندلسى [1] فى قصيدته التى أنشدها بين يدى المعز بالمنصورية والتى أولها :

تَقول بنو العباس هَل فُتحت مصرُ ... فَقُل لبنى العباس قد قُضى الأمرُ
وقد جاوز الإسكندريةَ جوهرٌ ... تُطالعه البُشرَى ويَقدُمه النصر
وقد أوفدت مصر إليه وُفودها ... وزيد إلى المعقود من جسرها جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت ... وأيديكم منها ومن غيرها صِفر
فلا تُكثروا ذِكرَ الزمان الذى خلا ... فذلك عصر قد تَقضَّى وذا عصر

وبعد ، فلم يكن الفاطميون بدعاً من الملوك الذين تقدموهم على الزمن ،

(١) هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدى الأندلسى . كانوا يلقبونه (متنبي الغرب) وهو أشعر الشعراء المغاربة بلا منازع . ولد بإشبيلية سنة ٣٢٦ هـ ونبغ فى قول الشعر نبوغا لفت إليه ملوكها وأمراءها ، فكان حظيا عندهم ثم رحل إلى المغرب واتصل بالمعز لدين الله ومدحه وأشاد بذكر رجاله وقواده وحظى عنده . فلما هم المعز بالانتقال إلى مصر شيعه ابن هانئ وأنشده هذه القصيدة الفاخرة ، وهى من أجل شعره . ثم أخذ فى الاستعداد للحاق بالمعز والعيش فى كنفه بمصر فلما وصل إلى برقة توفى هناك سنة ٣٦٢ هـ ٩٧٣ م وأسف عليه المعز أسفا شديدا .

أو القادة والزعماء الذين جاءوا من بعدهم فأنشأوا الدول ، وشادوا الممالك ، فى انتهاز الفرص للاستيلاء على البلاد ، واهتبال النُّهز لبسط النفوذ والسلطان على الأمم ، ما ساعفتهم المقادير ، وواتاهم الحظ والتدبير . فهذه سُنّة من سنن الاجتماع البشرى ، بل هى خاصة من خواص الظواهر الطبيعية . جرى عليها طُغاة السلف ، وتأسى بهم فيها دُهاة الخلف . ولا تزال ظاهرة الأثر ، بينة المعالم فى دول الأرض وأمم العالم إلى اليوم . وستبقى فى الدنيا ما بقى فى الحياة إنسان يدب على وجه الثرى . لا يحول دون عملها فى النفوس معاهدات ، ولا يمنع من مقتضياتها محالفات . ولو أنك نظرت بعين المفكر الخبير ، لرأيت أن الشرائع السماوية على جلالها وقدسيتها ، لم تقو على حل عقدتها ، ولم تؤثر فى خضد شوكتها ، أو فل حدتها . فما ظنك بالقوانين الوضعية التى ابتدعها هذا الإنسان الناقص الملتاث ...؟

ولا يغرنك ما تقرأ فى الحين بعد الحين ، أو ما تسمع فى الفترة بعد الفترة ، من تلك العبارات الصماء ، وهاتيك الألفاظ الجوفاء ، التى يرددها طغاة السياسة الأوربية فى العصور الحديثة كلما اتجهت أطماعهم إلى اغتيال أمة ، أو اختداع شعب ، من كلمات (الحرية) وعبارات (الديمقراطية) وألفاظ (العدالة) ومخدرات (الاعتراف بحقوق الشعوب فى تقرير مصايرها) ولا تخدعنك تلك المنشآت التى يدعون إلى تأسيسها ، كلما حفزهم الخوف من انكشاف مراميهم ، مثل (عصبة الأمم) و (مجلس الأمن) و (هيئة الأمم المتحدة) وغير ذلك من مجالس الوزراء ، ومجامع الكبراء . فما كان هذا كله إلا من بدع الساسة ، وأساليب الدهاة الغالين ، اختلقوها وزيفوها على

أممهم وشعوبهم ، ليجاروهم فى مطامعهم . كما انخدع بها بعض الأمم والشعوب التى لم يتهيأ لها ما تهيأ لهم من أسباب القوة الحربية ـ من غربية وشرقية .

وقد دلت الأحداث الأخيرة بعد الحرب الماضية ، أن تلك العبارات التى لا تزال تتردد على الألسنة الأوربية ، والمجالس أو الهيآت التى أنشئت ودعى الناس إلى الالتجاء إليها لكشف الظلامات ، وإنصاف المستضعفين من الأمم والشعوب ـ على أنها لم توجد إلا لستر مطامع الغلاة فى الاستعمار ، وحجب ما يجول فى نفوس الجبابرة من اجتياح الأمم المستضعفة والشعوب المستكينة ، ولم تكن إلا أداة لتأييد الأقوياء فى استغلال الضعفاء .

كما أوضحت الوقائع والشواهد أن الدولة القوية ، بأسلحتها المختلفة ، لا تعرف عهدا ولا ميثاقا ، ولا تقيم وزنا لعقد أو حلف ، إلا إذا كان ذلك مع دولة تماثلها فى القوة ، وتناظرها فى العدة الحربية . أما إذا كان الحلف أو العهد مع دولة دونها فى شىء من ذلك ؛ فلا يكون إلا لاستغلالها وفرض السلطان عليها ، أبت ذلك أم رضيت . مستعملة فى الوصول إلى أغراضها ومطامعها أساليب الكذب والغش والخداع والنفاق . ومن وراء ذلك القوة الغاشمة . والدول الأوربية مع هذا تزعم أنها وأممها قد بلغوا فى معارج المدنية الأوج ، وسامتوا فى الحضارة أعنان السماء .

وإذا كانت هذه الخلال التى بدت وتبدوا منهم إنما هى من ثمرات المدنية ، ومن دلائل الحضارة الإنسانية ، فلعنة الله عليها من مدنية وحضارة ، ورحم الله أزمان الخشونة السافرة ، وعهود البربرية الظاهرة . فقد كان أولئكم المنعوتون بالبرابرة والبُداة ، أصدق فى أقوالهم ، وأقصد فى أفعالهم ، من

هؤلاء الأوربيين أهل المدنية والحضارة العصرية .

وقد كان الفاطميون ممن جرى على السنة الطبيعية ، وممن ترسموا آثار أسلافهم فيها ، ولم يكونوا بدعا منهم فى تصرفاتهم . غير أنهم لم يعقدوا العزم القاطع على إرسال جيوشهم إلى مصر ، ولم ينتدبوا للاستيلاء على وادى النيل ، إلا بعد أن وصلت إليهم الدعوة الصريحة من المصريين ، وإلا بعد أن كتب إليهم بها العقلاء من أهل الرأى وذوى المكانة فيهم . وبعد أن فقدت الأمة كل أمل فى استصلاح الحال ، واستتباب الأمن والاطمئنان على الأنفس والأموال والحرمات ، مما لا يمكن احتماله أو الصبر عليه . وذلك من جراء الفتن التى نشبت بين الأمراء الإخشيدية على الملك والسلطان .

قد يقال : ولم لم يستنجد المصريون فى هذه الحالة بالدولة العباسية ، وهى أقرب إليهم ، وأمس رحما ، من الدولة الفاطمية ! لا سيما وقد كانت لها على مصر السيادة الاسمية !؟

فأقول : إن المصريين كانوا فى تلك الحقبة أبصر بشؤونهم ، وأدرى بمكان المصلحة لهم ، وأعلم بما يضرهم وما ينفعهم . وقد جربوا الدولة العباسية فى كثير من الحوادث ، فلم يروا منها ما كانوا يتوقعون من الخير والصلاح ، بل كثيرا ما رأوا أن همّ ولاة هذه الدولة كان جل ما ينصرف إلى مصالحهم الخاصة ، ثم إلى ما يهمها من الجبايات والضرائب . وذلك فضلا عن أن الدولة العباسية كانت فى ذلك العهد واقعة تحت نير استبداد المتغلبين من الترك والديلم ، ثم السلاجقة بعد ذلك . فلم يكن لخلفاء بنى العباس معهم

حول أو طول ، ولم يكن لهم من مظاهر السلطان والنفوذ إلا اسم الخلافة . أما الأمر والنهى والتصرف المطلق، فقد كان فى أيدى أولئكم المتغلبين . يضاف إلى ذلك أن الدولة العباسية كانت تصطلى نار الفتن والاضطرابات التى كادت تكون عامة فى كل بقاع ممالكها . فمن معارك بين بنى بويه أنفسهم منافسة على التغلب على بغداد ، ومن حروب لا ينادى وليدها ، مع القرامطة ، ومن وقائع لا تقف رحاها مع غيرهم من الدعاة والناجمين ، والخوارج والثائرين فى أغلب الولايات .

وعلى هذا فقد كانت الدولة العباسية فى ذلك الزمن غارقة فى بحار من الدماء ، وليس فى مقدورها إطفاء نائرة الفتن وانتشال مصر من الجوع والخوف ، وهى تسبح فى لجج من الإضطرابات وتعانى مضض الخوف والجوع .

طاف كل هذا فى خواطر المصريين ، فاتجه الرأى الصالح إلى الدولة الفاطمية ، تلك الدولة الناشئة القوية ، ذات الشوكة والنفوذ ؛ ولأنها الدولة الفتية التى ظهرت فى عالم السياسة جامعة كل عناصر التمكين وأسباب البقاء . وعلى الخصوص لأنها قامت على دعوة الأصالة العلوية ، والنسب الفاطمى الكريم . والمصريون بطبيعة تاريخهم الإسلامى من أميل الأمم إلى التشيع ، كما أنهم أقرب المتشيعين إلى الاعتدال . فهم يحبون عليا وآل على وأبناء على ، ولا يبغضون أحدا من أصحاب رسول الله . ولا يفرقون بينهم فى الفضل . ففيهم السنة الحسنة ، وفيهم التشيع المحمود . لا يحملون فى كل هـذا عصبية جائرة ، ولا يضمرون نصبية فائرة .

وكذلك كان للمصريين العذر الواضح فى دعوة الفاطميين لإقامة نظم

الحكم فى البلاد ، لأن جيوشهم التى كانوا يعتمدون عليها فى طمأنينة الأمة ، وحفظ الأمن بين الرعايا فى الأوقات العصيبة ، كانت قد تفانى معظمها فى رد غارات القرامطة ، ودفع عادية العادين من ذوى الفكر المقوضة ، والمذاهب المدمِّرة ـ عن اجتياح ديارهم ، وتخريب أوطانهم ، كما اجتاحوا الكثير من ولايات الدولة العباسية وممالكها ، وخربوا ديارها ، وأبادوا عبادها . فما كان للدولة العباسية إذ ذاك من الجيوش ما يمكن الاستغناء عن بعضها لإنجاد الديار المصرية ، ولا كان لمصر من الجند والقادة ما تقوى به على رد السكينة فى ربوعها ، وانتظام الأمر ونشر ألوية الأمن فى البلاد .

لهذا كله مجتمعا أو متفرقا ، كانت دعوة المصريين للفاطميين ، والاستعانة بقوتهم ، والتدرع بجدهم وشوكتهم ، من الضروريات التى لا معدّى عن الالتجاء إليها .

فأنت ترى أن الجيش الفاطمى الذى قاده جوهر الصقلى ، لم يزحف إلى مصر فاتحا ، ولم يجىء إليها فى هذه المرة غازيا ، ولكنه حضر مدعوًّا من أهل الرأى فيها ، وذوى المكانة من بنيها . وما استجاب الدعوة إلا لإنقاذ الأمة من عوامل الفوضى ودواعى الاضطراب ، التى كانت تعانيها من جراء فتن الأخشيديين وتنازعهم على الحكم ، وتناحرهم على الملك .

ولو كان الفاطميون من صنف أولئكم الغزاة المخربين المستغلين ، لما بادروا عند وطء أقدامهم أرض مصر ، بتخطيط القاهرة المعزية ، وإنشاء القصور الفخمة فيها ، ولما فكروا فى وضع قواعد الجامع الأزهر وتشييد أركانه . وذلك كله بأموالهم التى حملوها معهم من خزائن ملكهم بالمغرب .

كما انتشلوا بها الأمة من بين أنياب القحط ، وبراثن الجوع والفاقة . فقد مد المعز لدين الله جوهرا القائد بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وأوصاه فى سيرته السياسية والعمرانية والاجتماعية ، بما كان يوصى به خلفاء الإسلام الأول قادة جيوشهم عند بعثهم وتسييرهم للنشر كلمة الله . ثم حضر المعز بنفسه ، بعد أن تمهدت له الأمور ، على رأس جيشه المنصور . وكان فيما حمله معه إلى مصر ، خزائن الأموال الحافلة بكريم النضار .

قال أصحاب الأخبار ، ومقيدوا الوقائع والآثار : إن المعز حضر إلى مصر بمئات من الجمال عليها سبائك الذهب ، كل سبيكة فى قدر رحى الطاحون ، حتى إن الجمل الواحد لا يستقل بأكثر من سبيكتين ، ولا يقوى على حمل غيرهما . وذلك بخلاف المسكوكات التى حوتها الخزائن العديدة . ولا تسل مع هذا عما جاء به معه من الذخائر العظيمة ، والتحف الثمينة ، والأعلاق النفيسة . كما جاء برفات آبائه فى صناديق لتدفن فى أرض الكنانة المحروسة .

ومما تحسن الإشارة إليه ، أن المعز لدين الله كان على جانب عظيم من العلم والثقافة ، فقد كان متفوقا فى معرفة كثير من العلوم والفنون والآداب ، التى كان لها شأن فى ذلك العهد كما كان متبحرا فى فقه الشريعة ، أصولا وفروعا . وكان يجيد ، إلى جانب لغته العربية ، كثيرا من اللغات الأخرى . لا سيما الرومية ، والبربرية ، والصقلبية ، والسودانية ، مع الوقوف على لهجاتها .

ولو كان المعز من الفاتحين المستغلين الجائرين ، لألحق الديار المصرية بقاعدة ملكه بأفريقية ، وجعلها ولاية تستغل ، وضيعة تستثمر ، لعاصمة دولته بالمغرب ـ شأن الغزاة والفاتحين ، والطغاة المستغلين ـ ولكنه تنكب

هذه الطريقة الجائرة ، وألحق ملكه الضخم فى أفريقية والمغرب ، بالديار المصرية . وجعل بلاده تابعة لمصر . وبهذا أضاف إليها ملكا كبيرا ، وسلطنة مترامية الأرجاء ، ما كانت تحلم بها فى يوم من الأيام . وصارت بذلك « القاهرة المعزية » قاعدة للدولة الفاطمية .

ومما حدث - قبيل قدوم المعز إلى الديار المصرية - أن الشريف الحسن ابن جعفر الحسنى [1] صاحب الحرمين الشريفين ، ثار بأرض الحجاز ، وقطع الخطبة للخليفة العباسى ، وخطب باسم المعز فى مكة ، وكتب بذلك إلى جوهر بمصر . فبعث جوهر بأمره إلى المعز بالمغرب ، وبشره بما تم له من هذا الفتح العظيم ... فَسُرَّ المعز بذلك ، وأرسل إليه بتقليده ولاية الحرم الشريف وأعمال الحجاز . واستمرت الخطبة ، منذ ذلك التاريخ ، للفاطميين أصحاب مصر ، بالحرمين الشريفين ، إلى أيام الحاكم بأمر الله . وفى خلال هذه الفترة ، تم استيلاؤُهم على الشام والحجاز واليمن ، وخطب لهم على منابرها .

وكان الحاكم بأمر الله ، لما ولى الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٣٨٦ هـ ٩٩٦ م بعد وفاة العزيز بالله قد صدرت عنه بعض التصرفات الدالة على الشذوذ ، إذ بينا تراه من أعقل الناس ، إذا بك تلمس منه سخفا لا يجىء من مثله وكان كما قيل ،

(١) هو أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن محمد الموسوى الحسنى العلوى ، أحد أشراف مكة وأمراء الحجاز على عهد الدولة العباسية ، ثار فى بلاده ودعا إلى البيعة للمعز الفاطمى ، فجاءته الخلع والهدايا ومرسوم الولاية على الحجاز . ولما مات المعز حاول خلع الطاعة الفاطمية ، وادعاء الخلافة لنفسه ، غير أن الأمر لم يتم له ، ولم تتهيأ له أسبابه ، فلم يلبث أن عاود الطاعة والبقاء تحت السيادة المصرية ، وجاءه تجديد التقليد فى سنة ٣٨٤ هـ فى عهد العزيز بالله وظل فى ولاية الحرمين الشريفين إلى أن توفى سنة ٤٣٠ هـ ١٠٣٩ م .

غريب الأطوار ، مضطرب الأحوال . وكان مع هذا على جانب عظيم من الخبث والمكر والدهاء ، لا يمكن ضبط أعماله ، ولا تَفَهُّم أفعاله ، ولا الوقوف منها على منابع الخير ، أو عوامل الشر . يصنع الشيء وضده ، ويصدر الأمر وعكسه .

فإلى عهد الحاكم لم يكن بين الدولة العباسية ، والدولة الفاطمية شيء من العهود أو المواثيق ، والاتفاقات السياسية المدونة . وإنما كانت الحال بين الدولتين ، حال المتاركة والتربص . أما رعايا كل من الدولتين فلم تكن دونهم حواجز تمنع كلا منهم دخول أى بلد من بلاد إحدى الدولتين ، أنى شاء ، ومتى شاء . وعلى هذا فقد كانت مصر وبغداد ، وما يليهما من البلاد ، حافلة بالكثير من رجال الأمتين ، على اختلاف طبقاتهم ، وتنوع وسائلهم ومنازعهم . وقد كان الخليفة القادر بالله العباسى يضمر الشر للفاطميين منذ ولى الخلافة العباسية ولذلك اتخذ المحضر المعروف بالطعن فى نسبهم وامتنع عنه الشريف الرضى وكان ذلك فى عهد العزيز بالله وكذلك لما ترامت إليه أخبار الحاكم الفاطمى وشذوذه فى أطواره ، مما استشعر منه الخطورة على دولته . فأخذ يفكر فى انتهاز الفرصة علّ المقادير قد آذنت بالإدالة من الدولة الفاطمية التى لا يؤمن جوارها . فهداه التفكير إلى أن يفاجئ العالم الإسلامى بتجديد الطعن فى نسبهم ، ونفيهم عن أواصر القربى بالبيت العلوى الكريم مستنداً إلى تصرفات هذا الحاكم الشاذة ، وانصراف الوجوه عنه .

٢ — فى حقيقة النسب الفاطمى :

لما فكر الخليفة القادر بالله العباسى فى إعلان الطعن فى النسب الفاطمى بعد أن استقر رأيه عليه ، توجس خيفة من أن يكون هذا السهم غير مأمون العاقبة ، وأن تكون هذه الفكرة غير مضمونة النتيجة ، لاسيما أن

أحداً من أسلافه الذين شهدوا انبلاج فجر الدولة الفاطمية ، وظهورها فى عهدهم - لم يخطر له خاطر الطعن فى نسبهم ، أو تزييف دعوتهم . مع أن هذه الطبقة من الخلفاء العباسيين قد كانت من الفاطميين الأول ، فى محن متوالية ، وخطوب متتالية . وفوق هذا فإنها سياسة خطرة ، لأن الشيعة شأناً لا يستهان به فى حاضرة ملكهم (بغداد) وفى غيرها من الولايات العباسية . وهم أعلم بأنسابهم ، وأحكم عناية بضبط الأصول وحفظ الفروع من أنسالهم . والعلويون معترفون بصحة النسب الفاطمى ، مقرون بآصرة القربى النبوية لهم . وفهم الجماهر بذلك ، كما فهم المصانع المخافت .

مرت هذه الخواطر فى بال القادر ، وأخذ يوازن بين الإقدام عليها ، والنكوص عنها . ووقع فى التردد والاضطراب ، بين المضى والإحجام ...!

وفى هذه الفترة كان السيد الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى ، والد السيد المرتضى والشريف الرضى ، يتولى من شؤون الدولة العباسية ببغداد ، نقابة الطالبيين بالعراق ، وإمرة الحج ، والنظر فى المظالم ، وغير ذلك من الأعمال الهامة . وكان ولداه المرتضى والرضى يتقلدان نيابته فى هذه الوظائف كلها .

فبينا الخليفة القادر العباسى فى تفكيره فى شأن العزيز الفاطمى صاحب مصر ، وفى تقديره فيما إذا جازف فى إعلان إنكار نسب الفاطميين ، أو إذا أضرب عن هذا السلاح والنظر فى محاربتهم بسلاح آخر ، إذا بأبيات من الشعر ترفع إليه ، من قول الشريف الرضى ، يجهر فيها بصحة النسب الفاطمى ، ويعترف فيها اعترافاً صريحاً لا لبس فيه ولا إبهام ، بسلامة هذا النسب من كل مغمز . والظاهر أن الشريف الرضى صنع هذه الأبيات عندما أحس بما

بتنويه القادر من مهاجمة هذا النسب الذي لم يجرؤ على الشك فيه أحد من أسلافه . وكانت الأبيات :

مَا مُقامى عَلَى الْهوانِ وعندى ... مِقْوَلٌ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَمِىٌّ
وإباءٌ مُحَلِّقٌ بى عن الضَّيم ... كما زاغ طائرٌ وَحْشِىٌّ
أىُّ عُذر له إلى المجد إن ذَلَّ ... غُلامٌ فى كفه المَشْرَفِىٌّ
أحْمِلُ الضيم فى بلاد الأعادِى ... وبمصرَ الخليفةُ الْعَلَوِىٌّ
مَن أبوه أبى وَمَولاهُ مَولاىَ ... إذا ضامَنِى البعيدُ الْقَصِىٌّ
لَفَّ عِرْقِى بِعِرْقِهِ سيدَا الناس ... جميعاً مُحَمَّدٌ وَعَلِىٌّ
إنَّ ذُلِّى بذلك الحى عِزٌ ... وَأُوَامِى بذلك الرَّبع رِىٌّ
مِثْلَ مَنْ يَرْكَبُ الظلامَ وقد أسْرَى ... وَمِنْ خَلْفِهِ هِلاَل مُضِىٌّ

فلما اطلع القادر على هذه الأبيات غضب لذلك وتملكه الغيظ ، وثار به ثائر الحقد . فأمر بعقد مجلس للنظر فى هذا الأمر الجلل ، ودعا إليه النقيب أبا أحمد وولديه وجماعةً من القُضاة والفقهاء والأعلام ، وعرض عليهم أبيات الشريف الرضى . وقال للحاجب :

قل للنقيب أبى أحمد ، قل لولدك محمد : أىُّ هَوانٍ قد أقام عليه عندنا ، وأىُّ ضيم لقى من جهتنا ، وأىُّ ذل أصابه فى مُلكنا ..! وما الذى يَعمل معه صاحبُ مصر لومضَى إليه ؟ أكان يصنع إليه أكثر من صنيعنا ! ألم نُولِّه النقابة ؟ ألم نُوله المظالم ؟ ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز ، وجعلناه أمير الحج ... ؟ فهل كان يحصل له من صاحب مصر أكثر من هذا ... ؟ مانظنه كان يكون ، لو حصل عنده ، إلا واحداً من أفناء الطالبيين بمصر ... ؟

فقال النقيب أبو أحمد : أمّا هذا الشعر فما لم أسمعه منه ، ولا رأيناه بخطه ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه نحله إياه ، وعزاه إليه ..؟

فقال القادر : إن كان كذلك فليكتب الآن محضر يتضمن القدح فى أنساب ولاة مصر ، ويكتب محمد خطه فيه .. !

فكُتب المحضر بذلك ، وشهد فيه جميع من حضر المجلس ، ومنهم النقيب أبو أحمد وولده المرتضى . ثم حملا المحضر إلى الشريف الرضى فامتنع عن التوقيع بخطه فيه ، وقال : لا أكتب ! واعتل ببعض الأسباب ...

ولما انتهى الأمر إلى القادر بامتناع الشريف الرضى وَجَمَ على سوء أضمره ... وبعد أيام صرف أبا أحمد وولديه عما كان بأيديهم من الأعمال . وكان ذلك فى سنة ٣٨٤ هـ ٩٩٤ م فى عهد العزيز بالله الفاطمى . وظلوا فى حالة العزل إلى سنة ٣٩٤ هـ ١٠٠٣ م حيث سعى بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة بن بُويه لدى الخليفة القادر حتى ردّ إليهم تلك الأعمال ، بالإصالة لأبى أحمد ، وبالنيابة لولديه مع إضافة قضاء القضاة إلى أبى أحمد وتلقيبه بالطاهر الأوحد ذى المناقب . غير أنه لم ينظر فى القضاء لامتناع الخليفة عن الإذن له به .

أما الحاكم فإنه حينما رفع إليه ما كان من عزل النقيب أبى أحمد وولديه بسبب الأبيات التى يشيد فيها بنسبهم ، لم يتردد فى إرسال الأموال الجزيلة إلى هؤلاء السادة الأشراف وغيرهم من الطالبيين . كما غمر بعض ولاة الأعمال فى الدولة العباسية بالكثير من هباته ومنحه وعطاياه . وكان ذلك كله تحت طى الخفاء . ولم يقف دهاؤه السياسى عند هذا الحد ، بل تبادل الهدايا والتحف والصِلات مع بهاء الدولة ـ وكان ملوك آل بويه جميعاً من غلاة الشيعة كما هو معروف ـ

ثم خابره فى بذل مساعيه لدى القادر حتى يرد إلى النقيب وولديه وظائفهم ويعيد إليهم أعمالهم فكان ما أراد على أتم حال، مع زيادة الإكرام والإجلال

ولما كانت سنة ٣٩٦ هـ ١٠٠٦ م فوجىء القادر بخبر أقض مضجعه، وأطار لبه، وأفقده رشده. فقد ترامى إليه أن الشريف محمد[1] أمير الحج العراقى، خطب للحاكم صاحب مصر، بالحرمين الشريفين. وزاد على ذلك أن حمل الناس على القيام عند ذكر اسم الحاكم... وأن الحاكم أعد كسوة للكعبة وغالى فى صنعها من القباطى المصرية البيض، وبعث بها صحبة الحج المصرى فى السنة التالية، فى ركب عظيم مع أموال جليلة وزعت فى أهل الحرمين الشريفين.

وفى سنة ٣٩٨ هـ ١٠٠٧ م ثار الشيعة فى بغداد وساروا فى مظاهرة صاخبة وهم يهتفون باسم الحاكم صاحب مصر، ويقولون (يا حاكم يامنصور) وقد وقع تصادم بينهم وبين أهل السنة. وكانت فتنة كاد يُقتل فيها الشيخ أبو حامد الإسفرايينى[2] عندما تدخل بينهما. وقد أثار ذلك حفيظة القادر فأمر الفرسان من حرسه الخاص بإعادة الحال إلى السكينة، فشتتوا شمل الشيعة، وأعانوا أهل السنة.

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل تمداه إلى أن أحد ولاة الدولة

---

(١) هو أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوى، كان نقيبا للطالبيين بالكوفة، وكان يتولى إمارة الحج. وهو من أفاضل أهل البيت وأكابرهم. توفى سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٢ م

(٢) هو الأستاذ أبو حامد احمد بن محمد الإسفرايينى، كان من أعيان العلماء، وأعلام الفقهاء، وكان شافعى المذهب. وكانت له مكانة جليلة فى بغداد، ومنزلة ملحوظة لدى الخلفاء العباسيين، على أنه كان شديداً فى دينه، قويا فى اعتقاده ويقينه، ولذلك كان موضع رضاهم تارة، وسخطهم أخرى. توفى فى بغداد سنة ٤٠٦ هـ ١٠١٥ م

ـ وهو قرواش بن المقلد صاحب الموصل وما والاها ـ أعلن الدعوة فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة ، للحاكم . وكان ذلك فى سنة ٤٠١ هـ ١٠١١ م كما صنع أبوه من قبل . وكل هذا وقع بتدبير الحاكم وأمواله . وأمر قرواش خطباء هذه البلاد بالدعاء للحاكم على منابرها ، بعد أن وضع لهم صورة الخطبة وكلفهم إلقاءها على الناس فى الجامع العامة . فاستجاب له أهل ولاياته ، مؤيدين له فى وثباته ، وقد بذل القادر له أموالا ضخمة لكى يعدل عن ذلك . وبعد مخابرات وخطوب ، ووعد ووعيد ، وترضيات كثيرة ، راجع الطاعة .

أمام هذه المكايد التى كان ينصب الحاكم حبائلها ، وحيال هذه الأخطار المحدقة بدولة الخلافة الإسلامية فى بغداد ، من جراء مكر الحاكم ، ولما كان المحضر الذى أمر القادر بتحريره فى القدح فى نسب الفاطميين ، لم يثمر ثمرته المرجوة ، بل جاء بغير المراد منه . لم ير القادر بدأ من التفكير فى عمل محضر ثان ، لا ينفى فيه عن الفاطميين نسبهم الشريف ، حسب ، بل يلحقهم بنسب أحد المجوس ، أو أحد اليهود ، كما يتضمن الطعن فى عقائدهم ، ويرميهم بالكبائر التى تُنفِّر القلوب منهم ، كالكفر والفسق والزندقة والإلحاد . عساه يبلغ من التنكيل بالحاكم ما يشفى الغلة ، وينقع الفؤاد .

ففى سنة ٤٠٢ هـ ١٠١١ م عقد القادر مجلسا كُتب فيه محضر يؤكد فيه نفى الفاطميين عن النسب العلوى ، وينسبهم إلى أحد كفرة المجوس ، كما يرميهم بالمروق من الإسلام ، والخروج على الشريعة المحمدية . إلى غير ذلك مما حشاه به من الأباطيل . ثم ألزم أهل المجلس بإقرار ذلك والشهادة بصحة

ما أملاه عليهم . فوقعوا مرغمين ، على السماع . وفيهم بعض الأشراف ، وبعض الفقهاء .

ومضى الحال على ذلك فترة لحق فيها هذا المحضر الزائف بأخيه السابق ، ولم يُحدث أثره المطلوب .

وفى سنة ٤٤٤ هـ ١٠٥٢ م إذ كان القائم بن القادر على الخلافة العباسية ببغداد ، والمستنصر العبيدى على الخلافة الفاطمية بمصر ، أصدر القائم منشوراً بنى على محضر آخر وقعه فريق من الأشراف والعلماء ، بالطعن فى نسب الفاطميين . وعملت منه نسخ أذيعت فى الأقطار الإسلامية .

وقد أشار ابن خلدون فى تاريخه الكبير ج ٣ ص ٤٤٢ إلى هذا المحضر الثالث ، كما أشار إليه المقريزى فى خططه ج ١ ص ٣٥٦ .

وقد خُدع بعض المؤرخين بهذه المحاضر ، وراعتهم أسماء من وقعوها ، فراحوا يذيعون تلك المطاعن ويحفلون بها . وفاتهم أن السياسة لا قلب لها ولاضمير ، ومن شأنها إحالة الحقائق ، وترويج الأباطيل . ومن طبيعتها التلاعب بعقول الناس ، والإلحاح فى الدعايات الضالة ، حتى يَعلق الزائف بالخواطر ، وينفى الصحيح ، وتضطرب النفوس بالشكوك . وخلف من بعد أولئكم المؤرخين خلف أخذوا ينقلون عنهم بلا بحث ولا نقد ، ولا نظر فى العلل والأسباب ، ولم يفكروا فى أنه ليس من السهل على مستقيم العقل ، سليم الطبع من الآفات ، نفى امرئ عن نسبه بمجرد السماع من خصمه ، أو ممن له غرض سيئ فى هذا النفى . ولا يكون ذلك إلا بعلم لاترقى إليه الظنون ، ولا تخالجه الشبهات ، ولاتحيط به الريب . كذلك ليس من الهنات الهينات سلب أحد من المسلمين

دينه ، أو رميه بصفة من صفات الكفر ، أو الإلحاد ، أو الزندقة ، أو المروق ؛ لمظهر خفى التعليل ، أو لمجرد اتهام عدو كاشح بغيض ، فضلا عن تجريد أسرة بأكملها - كالأسرة الفاطمية - عن الإسلام . فالغايات السياسية ، كما هو مشاهد ، تبرر الوسائط وإن بعدت عن طُرق العدل ، وعدلت عن سُبل الحق .

وليس من شك فى أن أولئكم الأعلام الذين ذيلوا ذلك المحاضر بتوقيعاتهم ، قد لُقِّنوا ما برر لهم وضع أسمائهم ، مع بسط الرغبة ، وسل سيف الرهبة . وفيهم من وقَّع تحت تأثير الخديعة التى هم كثيرا ما يكونون على استعداد لقبولها ، لما عليه هذه الطبقة من تغليب حسن الظن ، والغفلة عن أحابيل الشهوات والمطامع النفسية ، وقصر النظر عن إدراك نوايا السوء فى ستر الحقائق وتزيين الأباطيل .

وما زال المولعون بإيراد الأقاصيص ، يتناقلون أمر الفاطميين ، مرددين المطاعن فى نسبهم ، مع التبرع بالمغالاة فى رميهم بما يأباه الدين ، وتمنع منه الشريعة . إلى أن قام سيد المؤرخين فى القرن الثامن الهجرى ، العلامة المحقق عبدالرحمن بن خلدون ، وحمل على هذه المسألة بما آتاه الله من علم واسع ، وعقل راجح ، ونظر ثاقب ، ومنطق سليم . فمحَّصَ الحقائق ، وكشف الغطاء عن الأسباب والدوافع ، وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، ولطم أولئكم النَّقَلَة الأغرار على وجوههم ، وبرأ الفاطميين المظلومين مما رُموا به ، وأثبت نسبهم الشريف بما لا يحتمل الشك أو يتناوله الظن . مع أنه كان قد مضى على انقراض دولتهم حوالى القرنين والنصف . . قال فى مقدمته المشهورة :

« ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات

فى العُبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة ، من نفيهم عن أهل البيت ، صلوات الله عليهم ، والطعن فى نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق. يعتمدون فى ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس ، تزلفا إليهم ، بالقدح فيمن ناصبهم ، وتفننا فى الشمات بعدوهم . ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات ، وأدلة الأحوال ، التى اقتضت خلاف ذلك ، من تكذيب دعواهم والرد عليهم .

« فإنهم متفقون فى حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة ، على أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكُتامة (المرضى من آل محمد) واشتهر خبره ، وعُلم تحويمه على عبيد الله المهدى وابنه أبى القاسم ، خشيا على نفسيهما فهربا من الشرق محل الخلافة ، واجتازا بمصر . وأنهما خرجا من الإسكندرية فى زى التجار . ونمى خبرهما إلى عيسى النوشرى[1] عامل مصر والإسكندرية ، فسرح فى طلبهما الخيالة حتى إذا أُدركا ، خفى حالهما على تابعهما ، بما لبّسوا به من الشارة والزّى . فأفلتا إلى المغرب . وأن المعتضد أوعز إلى الأغالبة أمراء القيروان ، وبنى مدرار أمراء سجلماسة [2] بأخذ الآفاق عليهما ، وإذكاء العيون فى طلبهما

(١) هو الأمير عيسى بن محمد النوشرى . كان من أمراء الدولة العباسية وولاتها الأكفاء وقادتها الشجعان المظفرين . تقلب فى مناصب الدولة بالولايات وقيادة الجيوش ، فكان حسن السياسة جيد الإدارة . ولاه الخليفة المكتفى العباسى معونة مصر فى سنة ٢٩٢ هـ ثم ولاه أعمالها كلها من جنوبها إلى أقصى شمالها . كما ضم إليه النظر فى ولاية الحجاز توفى سنة ٢٩٧ هـ ٩١٠ م

(٢) سجلماسة : كانت بلدة فى إقليم من المغرب الأقصى إلى الجنوب الشرقى من جبال درن (الأطلس) أنشأها عيسى بن يزيد الأسود رأس الاباضية ، وجد الأمراء بنى مدرار سنة ١٤٠ هـ والآن يطلق هذا الاسم على الإقليم كله ، وتسمى سجلماسة الآن =

فعثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار ، على خفى مكانهما ببلده ، واعتقلهما مرضاة للخليفة .

« وهذا قبل أن يظهر الشيعة على الأغالبة بالقيروان . ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وأفريقية ، ثم باليمن . ثم بالإسكندرية . ثم بمصر والشام والحجاز . وقاسموا بنى العباس فى ممالك الإسلام ، شق الأُبْلُمةِ وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ، ويزيلون من أمرهم .

« ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها ، الأمير البساسيرى ، من موالى الديلم المتغلبين على خلفاء بنى العباس ، فى مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم[1] وخطب لهم على منابرها حولا كاملا وما زال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم ، وملوك بنى أمية وراء البحر ينادون بالويل والحَرب منهم

« وكيف يقع هذا كله لدعىّ فى النسب يكذب فى انتحال الأمر ...!؟ واعتبر حال القرمطى إذ كان دَعِيًّا فى انتسابه ، كيف تلاشت دعوته ، وتفرقت أتباعه ، وظُهر سريعاً على خبثهم ومكرهم ، فساءت عاقبتهم ، وذاقوا وبال

= (تافللت) والظاهر أن اسم (سجلماسة) مأخوذ من لغة البربر . وأرض هـذا الإقليم فى غاية الخصوبة وبهـا نهر جار . عليه من البساتين والنخيل مايعد بالأميال . وبين تافللت ومراكش والجزائر والسودان تجارة واسعة ، لاتكاد القوافل تنقطع منها ذاهبة آيبة فى بواديها . وعلى أربعة فراسخ منها رستاق يقال له (درعة) من فرض نهرها الجارى . ويصدر عنها من أنواع الأعناب مالا يوجد مثله فى شدة الحلاوة .

(١) وقعت هذه المغاضبة بين البساسيرى وأبى القاسم (ابن المسلمة) وهو على ابن الحسن بن أحمد ، وكان فى أول أمره من الشهود المعدلين . وكان يوصف بالثقة مع سداد المذهب وحسن الاعتقاد ووفور العقل وأصالة الرأى . اتخذه القائم بأمر الله العباسى كاتبا ثم استوزره ولقبه (رئيس الرؤساء ، شرف الوزراء ، جمال الورى) وقد آلت الحال بينه وبين البساسيرى إلى أن قتل وصلب فى ذى الحجة سنة ٤٥٠هـ ١٠٥٩م

أمرهم . .! ولو كان أمر العبيديين كذلك لعُرف ولو بعد مُهلة ... !

ومهما تكن عند امرئ من خَليقة   وإن خالها تَخفى على الناس تُعلم

« فقد اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة ، وملكوا مقام إبراهيم عليه السلام ، ومصلاه ، وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومدفنه ، وموقف الحجيج ، ومهبط الملائكة . ثم انقرض أمرهم . وشيعتهم في ذلك كله ، على أتم ما كانوا من الطاعة لهم ، والحب فيهم ، واعتقادهم بنسب الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقد خرجوا مراراً بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها ، داعين إلى بدعتهم ، هاتفين بأسماء صبيانَ من أعقابهم ، يزعمون استحقاقهم للخلافة ، ويذهبون إلى تعيينهم بالوصية ممن سلف قبلهم من الأئمة . ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الأخطار في الانتصار لهم . فصاحب البدعة لا يلتبس في أمره ، ولا يشتبه في بدعته ، ولا يكذب نفسه فيما ينتحله .

« والعجب من القاضي أبي بكر الباقلاني [1] شيخ النظار من المتكلمين يجنح إلى هذه المقالة المرجوحة ، ويرى هذا الرأي الضعيف ! فإن كان ذلك لما كانوا عليه من الإلحاد في الدين والتعمق في الرافضة ، فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم . وليس مُنْتَسَبُهُمْ بالذي يُغني عنهم من الله شيئاً في كفرهم . فقد قال تعالى لنوح عليه السلام — في شأن ابنه — : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، الباقلاني . كان من كبار علماء الأشاعرة ، ومن خاصة المتكلمين على هذا المذهب ، وله مواقف مشهورة في الدفاع عنه والذب عن حياضه . حتى صار بفضله ومثابرته ، عظيم الانتشار ، كثير المستجيبين والأتباع . توفي سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٣ م

ـ لفاطمة يعظها ـ يا فاطمة أعملي فلن أُغْني عنك من الله شيئا ، ومتى عَرف آمرؤٌ قضية ، أو استيقن أمراً ، وجب عليه أن يصدع به : « وَٱللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ »

« والقوم كانوا فى مجالٍ لِظنون الدول بهم ، وتحت رِقْبةٍ من الطغاة ، لتوفر شيعتهم ، وانتشارهم فى القاصية بدعوتهم ، وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى . فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ، ولم يكادوا يُعرفون . حتى لقد سمى محمد بن إسماعيل الإمام ، جد عُبيد الله المهدى (بالمكتوم) سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من إخفائه ، حذرا فى المتغلبين عليهم . فتوسل شيعة بنى العباس بذلك عند ظهورهم ، إلى الطعن فى نسبهم . وازدلفوا بهذا الرأى الفائل للمستضعفين من خلفائهم ، وأعجب به أولياؤهم وأُمراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الأَعداء ، يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم مَعَرَّةَ العجز عن المقاومة والمدافعة ، لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز ، من البربر الكتاميين شيعة العُبيديين وأهل دعوتهم . حتى لقد أسجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هـذا النسب ، وشهد بذلك عندهم من أعلام الناس جماعة ، منهم : الشريف الرضى [1] وأخوه المرتضى ، وابن البطحاوى . ومن العلماء : أبو حامد الأسفراينى ، والقُدورى [2] والصيمرى [3] ،

(١) لم يوقع الشريف الرضى إلا على المحضر الثانى بعامل الضغط وبقوة التهديد فهو غير ملزم شرعا بما جاء فى هذا المحضر من افتراء .

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن محمد القدورى . انتهت إليه رآسة الحنفية بالعراق وله فى هذا المذهب آثار قيمة . توفى ببغداد سنة ٤٢٨ ﻫ ١٠٣٧ م

(٣) هو أبو عبدالله الحسين بن على الصيمرى كان أحد رجال الحنفية بالعراق =

وابن الأكفانى [١] والأبيوردى [٢]، وأبو عبد الله النعمان فقيه الشيعة، وغيرهم من أعلام الأمة ببغداد فى يوم مشهود. وذلك فى سنة ثنتين وأربعمائة، فى أيام القادر. وكانت شهادتهم فى ذلك على السماع. لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد، وعامتها شيعة بنى العباس الطاعنين فى هذا النسب. فنقله الأخباريون كما سمعوه، وأوردوه حسبما وعوه. والحق من ورائه.

« وفى كتاب المعتضد - فى شأن عُبيدالله - إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة أصدق شاهد، وأوضح دليل على صحة نسبهم. فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت فى كل أحد.

« والدولة والسلطان سوق العالم، تجلب إليه بضائع العلوم والصنائع، وتلتمس فيه ضوال الحكم، وتُحدَى إليه ركاب الروايات والأخبار، ومانفق فيها نفق عند الكافة. فإن تنزهت الدولة عن التعسف والميل والأفن

= وتولى قضاء ربع الكرخ. ويعدّ من ثقات المحدثين. توفى ببغداد سنة ٤٣٦ هـ ١٠٤٥ م عن خمس وثمانين سنة.

(١) هو أبو محمد عبدالله بن محمد الأسدى. عرف بابن الأكفانى. كان من أكابر أهل العلم ومن أجواد الفضلاء. قيل إنه كان مبسوط اليد على الطلاب، وأنه أنفق من ماله الخاص مائة ألف دينار على العلماء المعسرين والطلاب. أثابه الله. تقلب فى مناصب القضاء إلى أن صار قاضى بغداد. قيل إن مولده كان سنة ٣١٦ وتوفى سنة ٤٠٥ هـ ١٠١٤ م ودفن فى داره بنهر البزازين فى بغداد.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد الأبيوردى أحد فقهاء الشافعية، ومن أصحاب أبى حامد الأسفرايني. ولى القضاء بالجانب الشرقى من بغداد ومدينة المنصور. وكان يعقد حلقة للفتوى بجامع المنصور. ويلقى دروسا على الطلاب والعامة بقطيعة الربيع وكان حسن الاعتقاد، جميل الطريقة، ثابت القدم فى العلم، فصيح اللسان، بليغ الشعر. وقد كان مع هذا رقيق الحال يظهر المروءة ويصوم الدهر ويفطر غالبا على الخبز والملح. توفى ببغداد سنة ٤٢٥ هـ ١٠٢٤ م ودفن فى مقبرة باب حرب.

والسفسطة ، وسلكت النهج الأمم ، ولم تجر عن قصد السبيل ، نفق فى سوقها الإبريز الخالص ، واللجين المصفى . وإن ذهبت مع الأغراض والحقود وماجت بسماسرة البغى والباطل ، نفق البهرج والزائف . والناقد البصير قسطاس نظره ، وميزان بحثه وملتمسه » .

أقول : ولا شك فى أن ابن خلدون قد أصاب شاكلة الحق فيما جاء به من استدلال على صحة النسب الفاطمى . وفيما أورد من المعلومات ما يؤيد ما ذهبنا إليه فى ذلك . فلله دره من هذه الناحية .

غير أننا نأخذ عليه انسياقه فى تيار الإشاعات الضالة التى كانت لا تزال لها بقية فى أفواه المرجفين ، وفى أقلام بعض كتاب زمنه المقلدين البعيدين عن مناهج التحقيق . فذكر ألفاظ الكفر والإلحاد والزندقة ، مقترنة بالفاطميين المظلومين . وهو يعلم أن رمى المسلمين بما يشعر بالمروق من الدين ، من أخطر التهم التى تأباها الشريعة ، ويحرمها الدين . وقد قال تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » وهو كذلك عند أهل البصائر مما يتحرج منه ذوو المروءة من الأتقياء . وإذا صحت بعض الأخبار فى نسبة بعض الشبه إلى أفراد من متأخرة الفاطميين ، فلا يخرج ذلك عن ارتكاب بعض الآثام التى ليس للردة فيها مدخل ، والله وحده هو المطلع على خفيات النفوس ، ومضمرات القلوب ، وهو المحاسب على عظائمها والغافر إن شاء لها ولصغائرها . وما كان لأحد أن يفتات على مشيئة الله تعالى ، وقد قال فى كتابه الكريم : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ولم يثبت بصورة قاطعة

أن الحاكم [١] ـ وهو مثار هذه التهم ـ أو أن غيره من خلفاء الفاطميين ، كان يدعو مع الله إلهاً آخر . وما تردد فى أوراق المؤرخين مما نسب إليه لا يجوز التسليم به أو الاعتماد عليه دون نظر، فقد عملت فيه الأغراض الجامحة عملها الشائن . وتناوله بعض الأخباريين على طريق التندر والتملح والتفكه . ولو فرض وكان شيء من ذلك وقع من الحاكم ، فلا يصح أن يخرجه من غمار المسلمين الذين قد يقع منهم بعض ما تنهى عنه الشريعة . وعلى هذا فليس من الإنصاف ، ولا من العدل ، ولا من الدين فى شيء ، رميه بما يشعر بردّته وخروجه من حظيرة الإسلام . وما عزى إليه من دعوى الألوهية لم يقم عليه دليل صحيح ، ولم تنقل عنه ألفاظ تشير إلى إضماره شيئاً من هذا . وكل ما فى الأمر أن بعض البغاة ادعى عليه الحلول . وليس له هو فى هذا الادّعاء أمرٌ ولا نهى .

ولم يكن الحاكم وحده الذى مُنِيَ بقوم لا يخافون الله ، فادعوا عليه مالم يأمر به الله . ونسبوا إليه الحلول ، بل رموه بدعوى الألوهية . فقديما

---

(١) من طريف ما يروى أنه كان فى دمشق رجل يصنع القطائف ، وكان يدين بالرفض ، ويغالى فى سب السلف . فبلغ أمره إبراهيم بن سعد متولى حسبة دمشق من قبل الحاكم ، فاعتزم تأديبه ، وكان القطائفى حينما يرى هذا المحتسب مقبلا يقول له : بحق مولانا امض عنى ... ثم غافله المحتسب يوما وجاءه من خلفه وقال له : بحق مولانا لا بد أن تنزل . وأمر بإنزاله وتأديبه فلما ضرب بالدرة صاح قائلا : هذه فى قفا عثمان ! فقال المحتسب : أنت لا تعرف أسماء الصحابة ، والله لأصفعنك بعدد أهل بدر . . . وصفعه ثلاثمائة وبضعة عشر . . ثم تركه فى شدة وبلغ الحاكم فى مصر خبر هذه الوقعة فبعث إلى المحتسب كتابا يشكره على ما صنع ، وقال : هذا جزاء من ينتقص السلف الصالح . . . وكان إبراهيم بن سعد هذا المحتسب مالكى المذهب معتزلى النحلة توفى سنة ٤٠٤ هـ ١٠١٣ م

ادعى السبائية [١] على الإمام علىّ كرم الله وجهه ، صفة الألوهية ، حتى حاربهم على هذه الدعوى المنكرة ، ونكل بهم أشد تنكيل . وكذلك ادعاها الروندية [٢] على أبى جعفر المنصور فمزقهم شرّ ممزق . فما قال أحد إن الإمام على أو أبا جعفر المنصور يجب أن يؤخذا بدعاوى غيرهما ، وأن يوصما بما هما بريئان منه . ولا سمعنا أنهما بهذا الادعاء قد خرجا من حظيرة الإسلام . وشأن الحاكم فى ذلك شأنهما . غير أن ما ادعى عليهما كان فى حياتهما ، وما ادعى على الحاكم كان بعد انتقاله إلى الدار الآخرة . وبعيد عن الإنصاف أن ما رمى به الحاكم من هذه الدعاوى الباطلة ، يجب أن تلقى تبعتها على عاتق الأسرة الفاطمية ، فترمى فى دينها بالعظائم ، وتُدفع عن نسبها الواضح ، بتلك المفتريات . هذا ما لا يقول به عاقل ، ولا يؤيده شرع ، ولا يسنده دين .

وعندى أن رميهم بالمروق من الدين ، أو وصمهم بما يناقض الإسلام ،

---

(١) هؤلاء السبائية كانوا فرقة غرر بها عبد الله بن سبأ اليهودى المعروف بابن السوداء ، وأوقعها فى حبائله وصاروا من الغلاة فى التشيع . ويقال إنهم انقسموا إلى ١٨ فرقة .

تظاهر عبدالله هذا بالإسلام ليستطيع أن يكيد للمسلمين ويفسد عليهم عقائدهم ، ويشيع فيهم من الآراء والفكر الخطرة ما يجعل بأسهم بينهم شديدا . فادعى لهم حلول الصفة الإلهية فى علىّ وجاراه عليها بعض الأغفال وفاسدى العقول ، فحاربهم الإمام على ونكل بهم وأحرقهم بالنار فانتهز ابن السوداء هذه الفعلة وقال لمن انهزم منهم : إن الإحراق بالنار لا يكون إلا لإله . وإذاً فعلىّ إله . إلى آخر هذه الأضاليل . وكان لهذا الشيطان أثر سيئ ودسائس ماكرة فى فتنة عثمان وكانت سبباً فى قتله ، وفيما جرّته بعد ذلك من الفتن والويلات على المسلمين : هلك سنة

(٢) الروندية : هم قوم خراسانيون كانوا من أتباع أبى مسلم الخراسانى . وكانوا يقولون بتناسخ الأرواح ، وأن أبا جعفر المنصور هو ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم . أبادهم المنصور بمعاونة معن بن زائدة يوم الهاشمية سنة ١٤١ هـ

أشد وقعا ، وأعظم تنكيلا ، وأكبر جرما ، من نفيهم عن نسبهم العلوى . فإن الأنساب ورفعتها وضَعَتها ، لا تمت بسبب إلى رضاء الله وسخطه ، وليس لها من الاعتبار عند الله ما لها عند الناس . وقد مضى حكم الله تعالى فى قوله الكريم : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ » .

ولا شك فى أن ما روى عن الحاكم من تصرفات عليها طابع الشذوذ إنما جاء من قبل الدعاية السياسية التى تعمد إليها الدولة المتغلبة فى تشويه سمعة الدولة المغلوبة على أمرها ، وتسويد صحائف تاريخها . فمن طبيعة الدولة القائمة بذل كل جهد فى محو كل أثر حسن يشير إلى مجد الدولة الهاوية ، ما كان ذلك فى الاستطاعة ، ومن أساليبها نسبة كل صفة تنفر القلوب من رجال تلك الدولة . وعلى هذا جرى الأيوبيون حينما تغلبوا على الفاطميين فى مصر .

ومما يضاف إلى الأدلة التى جئنا بها فى صحة النسب الفاطمى ، والتى تمزق المحاضر العباسية ، أن السيد الشريف محمد بن على بن طباطبا المتوفى سنة ٧٠٢ﻫ ١٣٠٢م يعترف لهم بسلامة النسب العلوى ، وقد مضى على انقراض دولتهم نحو من قرن ونصف ، ويقرر ذلك فى كتابه (الفخرى) فيقول :

« أول خلفائهم المهدى بالله . وهو أبو محمد عبيد الله ، بن أحمد بن إسماعيل الثالث ، بن أحمد بن إسماعيل الثانى ، بن محمد بن إسماعيل الأعرج ابن جعفر الصادق ، عليهم السلام » ثم يقول : « وقد روى نسبهم على صورة أخرى ، وفيه اختلاف كثير . والصحيح أنهم علويون إسماعيليون ، صحيحو الاتصال . وهذه التى أوردتها هنا هى المعول عليها ، وبها خطوط مشايخ

النسابين ، ثم روى أبيات الشريف الرضى التى مر ذكرها .

وهذا شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ١٣٤٨ م وكان من أكابر المؤرخين وأوسعهم علما ، فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون ، وله وضع كتابه الكبير « مسالك الأبصار » له قصيدة فى ترتيب أسماء الخلفاء ، سماها (حسن الوفا لمشاهير الخلفا) يقرر فيها صحة النسب الفاطمى ، حيث يقول :

والخلفاء من بنى فاطمة	إلى عبيد الله در فاخر
أبناء إسماعيل نجل جعفر	الصادق القول أبوه الباقر
بالغرب مهدى تلاه قائم	والثالث المنصور وهو الآخر
ثم المعز قائد الجيش الذى	سار إلى مصر ، ونعم السائر
ثم ابنه العزيز عــز مشبها	والحاكم المعروف ، ثم الظاهر
وبعده المستنصر الثانى الذى	تلاه مستعل ، وجاء الآمر
وحافظ ، وظافر ، وفائز ،	وعاضد ، ثم المليك الناصر [1]
قالوا : لقد ساء لهم معتقداً	والله عنــد علمه السرائر
لكنما الحاكم ممن لجَّ فى	طغيانه ، فكافر ، أو فاجر

فأنت ترى مما تقدم ، أن الشريف الرضى ـ وقد كان من خاصة رجال الدولة الذين تسند إليهم عظائم الأمور فيها ـ لم ير إلا إعلان الحق فى نسب الفاطميين ، ولم يرعه مالاقاه والكثيرون من أهل بيته الكريم ، من التقتيل

---

(١) المراد بالناصر هنا : السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى على يديه زالت الدولة الفاطمية .

والتشريد والتنكيل من خلفاء بنى العباس . ولايخدعك ماقيل من توقيعه على المحضر الثانى الذى أمر به القادر ، هو وأبوه وأخوه وغيرهم من الطالبيين ، فهم لم يوقعوه — إن صح ذلك — إلا تحت الضغط الشديد والإكراه بالتهديد والوعيد . والمكره ـ كما هو معلوم شرعاً ـ لايؤخذ بما أكره عليه .

كما قرر نسبهم ـ بعد انقراض دولتهم ـ الشريف محمد بن على بن طباطبا ، وابن فضل الله العمرى ، الصحيح النسب إلى عمر بن الخطاب . وما كان لأمثال هؤلاء أن يقبلوا فى نسبهم الشريف دخيلا ، ولا أن يعصوا الله فينفوا عنه أصيلا . وأهل البيت أدرى بأولادهم ، وأعلم بأحفادهم ، وأضبط لفروع أنسالهم ، من سواهم . دع ما قام به قرواش بن المقلد وأبوه من قبل ، من الدعوة إلى الحاكم فى بلاده ، وهى من الولايات العباسية . وما قام به أبو الحارث البساسيرى [1] من الدعوة للمستنصر فى عُقر دار الخلافة بغداد ، والخطبة للفاطميين على منابر العراق حولا كاملا .

فإن البساسيرى حينما تغلب على بغداد فى سنة ٤٤٧ هـ ١٠٥٥ م ألزم الخليفة القائم العباسى أن يكتب على نفسه إشهادا بالتنازل عن الخلافة ،

(١) هو الأمير المظفر أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيرى . كان على شحنة بغداد أيام القائم بن القادر العباسى . جرت بينه وبين الوزير ابن المسلمة منافرة بسبب حوادث الشيعة والسنية أدت إلى إعلان البساسيرى بالمذهب الفاطمى والدعاء لصاحب مصر المستنصر على منابر بغداد وولاياتها ونفى الخليفة العباسى عن بغداد بعد إلزامه بالتنازل عن دعوى الخلافة ، كما ألزمه بالاعتراف للفاطميين بها . وبعد عام من ذلك حضر طغرلبك السلجوقى إلى بغداد بجيوشه وقتل البساسيرى ورد القائم إلى بغداد . وكان ذلك فى سنة ٤٥١ هـ ١٠٦٠ م .

وأنه ليس له حق فيها ولا لأحد من بنى العباس ، مع وجود بنى فاطمة الزهراء . وأخذ توقيع العدول بذلك عليه . ثم أخرج القائم من بغداد . وبعث بالإشهاد إلى الخليفة المستنصر بمصر ، ليعلنه على رؤس الأشهاد .

وفضلا عن ذلك فقد اعترف كثير من المؤرخين بصحة النسب الفاطمى ، ومنهم ابن الرقيق صاحب تاريخ القيروان [١] وغيره ممن لا ضرورة فى ذكره بعد الذى أوردناه ، وبعد ما أتينا به من الحجج والأسانيد .

والخلاصة أن النسب الفاطمى علوى صحيح لا غبار عليه ، ولا يجوز لمسلم ، أو ذى مروءة الطعن فيه ، أو تلمس العلل للتشكيك فى صدقه . وكل امرئ أمين على نسبه .

---

(١) هو إبراهيم بن القاسم الكاتب الأفريقى . المعروف بابن الرقيق . كان من أفاضل المؤرخين وأكابر الكتاب والشعراء فى إمارة نصير الدولة باديس بن زيرى . وقدم مصر بهدية منه إلى الحاكم سنة ٣٨٨ هـ ٩٩٨ م توفى سنة ٣٩٨ هـ تقديرا .

ابتداع الفاطميين

للمولد النبـــوى

لقد دلنى البحث والتنقيب ، والتحرى والاستقصاء ، على أن الفاطميين هم أول من ابتدع فكرة الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، وجعلوه من الأعياد العامة فى كل أمة من الأمم الإسلامية ، كما ابتدعوا غيره من الاحتفالات الدورية التى عدت من مواسمها . وكذلك صرفوا الكثير من اهتمامهم إلى إحياء ما كان معروفا من المواسم والأعياد قبل الإسلام .

فإن هذه الدولة ، بعد أن أُستقر لها الأمر فى الديار المصرية ، وبعد أن أزالت ما كان على مصر من سيادة للدولة العباسية ، تلك السيادة التى لم يكن لها من مظهر إلا خطبة الجمعة باسم الخليفة العباسى ، وضرب السكة باسمه أحيانا . وكان بدء هذا الاستقرار فى سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٩ م فبعد أن أنشأ جوهر قائد جيوش المعز لدين الله ، القاهرة المعزية ، وشيد بها القصر الشرقى الكبير ، وأنزل القبائل التى كان يتألف منها جيشه فى أماكنها التى اختطها لكل قبيلة حول القصر ، حضر المعز فى جيوشه الجرارة ، ومواكبه الغفيرة ، وأمواله الوفيرة ، وتوابيت آبائه الحاوية لرفاتهم . ونزل قصره فى سنة ٣٦٢ هـ ٩٧٣ م .

وبعد أن قبض بيده على مقاليد الحكم وأزمّة السلطان فى مصر . بعد هذا كله . شرع فى تمهيد شؤون الدولة ، وتثبيت أركانها . ولما استقر له

من ذلك ما أراد ، أخذ يفكر فى الوسائل الكفيلة باستمالة القلوب ، وامتلاك النفوس ، واستثارة العواطف ، حتى تألف الأمة المصرية تصرفات هذه الحكومة الجديدة وترضى عن سياستها فى إدارة البلاد . ولما كانت الميول العامة لطبقات الأمة المصرية متجهة إلى حب آل بيت الرسول ، مع الاعتدال فى التشيع لهم ، وكان الفاطميون من فروع هذه الدوحة المباركة . رأى المعز لدين الله أن أقرب الأسباب للوصول إلى أغراضه من هذا الميل العام الألتجاء إلى الأمور التى تمتُّ بصلة إلى المظهر الدينى ، فهداه تفكيره إلى أن يقرر إقامة مواسم حافلة ، وأعياد شاملة ، فى مواعيد مقررة ، وأيام مقدرة . وكان من أولها وأجلها وأفضلها . الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف . فنهضت الدولة بأعباء هذا الاحتفال ، وافتنت فيه ، وحشدت له واتجهت فى أهدافها الصالحة إلى أن يعم الناس فى أيام هذه الذكرى الكريمة ولياليها ، صنوفُ الخيرات ، وأن تشملهم ضوافى المبرات . لاسيما وقد كانت البلاد فى تلك الحقبة ، واقعة فى محنة مجاعة ، وفى أزمة قحط . فوزعت الأموال على الناس كافة ، وعمهم الإحسان باختلاف طبقاتهم ، ومنح أهل الستر منهم سنىّ الصلات ، وأُوثروا بالعطايا والهبات ، ووزعت فيهم الهدايا والنفحات . كما تبارى أعيان الدولة ، ووجوه الأمة ، فى إقامة الزينات ، وصنائع الولائم والمآدب ، وإسداء الصدقات والعوارف ، وتلاوة القرآن الكريم فى المساجد الجامعة ، والزوايا والرُّبط وأماكن العبادة ، وذكر الله ، والصلاة والسلام على خيرة خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم . وكان من جمال المظهر ، وتمام الحشد لإحداث الأثر ، تسيير المواكب الفخمة ، فى

نظام من الكواكب البهجة . فمن كوكبة من الجند الفرسان بأعلامهم وطبولهم وأبواقهم ، إلى كوكبة من الجند الرجالة ببنودهم ورهجانهم ، إلى حشود الأهالى بنظام حسب طبقاتهم ، ومقتضى حرفهم وصناعاتهم . يتقدم ذلك كله قضاة الدولة ودعاتها ، وأهل الرأى فيها . إلى أن تبلغ الغاية المقصودة ، فى جلال وجمال .

وعلى هذه السنة الحميدة التى سنها المعز لدين الله ، جرى أولاده من بعده وأحفاده . وتنبهت الأمم الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، إلى هذا المظهر الدينى الجميل ، والتفتت إلى هذه الفكرة الحكيمة ، والبدعة الحسنة فاقتدى ملوك الدول الإسلامية فى بقاع الأرض بصنيع خلفاء مصر ، وسنوا القيام بالاحتفال بهذه الذكرى الكريمة ، وبذلوا فى سبيل العناية بها كل مرتخص وغال ، وعملت كل أمة مافى طوقها لإظهارها بأجل المظاهر اللائقة باسم صاحبها عليه الصلاة والسلام .

وكان أكثر الأمم عناية بهذه الذكرى ، والاحتفال بها ، والاحتشاد لها - بعد مصر - الشام والجزيرة ، والموصل ، واليمن ، وأفريقية ، والمغرب ، والأندلس . وجروا فى ذلك على الأوضاع التى ابتدعتها الدولة الفاطمية بمصر مع كثير من التصرف والافتنان فى الكميات والكيفيات .

وفى سنة ٤٨٨ هـ ١٠٩٥ م كان على دست الخلافة الفاطمية ، المستعلى بالله وكان على وزارته ، الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى . وكان مستبداً بأمور الدولة دون الخليفة ، قابضاً على أزمة الشؤون فيها . وكان مع هذا يتسنن ، ولايدين بمذهب التشيع . فأمر بإبطال الاحتفال بالموالد الأربعة

وهى : المولد النبوى ، ومولد الإمام على ، ومولد السيدة فاطمة الزهراء ، ومولد الإمام الفاطمى الحاضر . فأبطلت الدولة هذه الموالد ، وأغفلت الاحتفال بها إلى حين .

غير أن الناس كانوا فى مصر وما جاورها من الأقطار ، يقيمون من بين هذه الموالد ، معالم الاحتفال بذكرى المولد النبوى ، جرياً على العادة التى ألفوها ، من تلقاء أنفسهم ، دون دافع أو حافز . وكانوا يحتشدون له احتشاداً شعبيا ذا روعة وجلال . وذلك لأن الاحتفال بهذه الذكرى الكريمة كان قد أصبح عند عامة الناس من السنن الواجبة التى لا يصح إغفالها ، ومن التقاليد المحببة التى لا ينبغى إهمالها ، ومن العادات الطيبة التى لا يجوز التقصير فيها . وكان رجال الدولة يتغافلون عنهم ، ويغضون النظر عن تصرفاتهم ، ولا يحاولون إزعاج أحد يقوم بذلك : لأنهم لم يقبلوا أمر الإبطال إلا مكرهين .

ولما آلت الخلافة الفاطمية إلى الآمر بأحكام الله فى سنة ٤٩٥ﻫ ١١٠٢م وكان محببا إلى الناس ، قريباً من قلوبهم ، وقد توسم فيه رجال الدولة وأعيانها دلائل الخير وعلامات الصلاح ، وأحسوا منه الرغبة فى الاتجاه نحو ما فيه إرضاء الأمة وإسعادها وإبلاغها آمالها . لذلك فكر الأستاذون [1]

---

(١) كان فى القصر الفاطمى طائفة من أكابر الرجال يقال لهم : الأستاذون المحنكون . وهذه الصفة جاءتهم إما من أنهم كانوا يلبسون العمائم ويجعلون أحد طرفيها ماراً من تحت الذقن والفك . وهكذا كان لبس العمائم عندهم . وإما أنها جاءتهم من الحنكة والدربة والفطنة لما يراد منهم فى خدمة الخليفة وإنفاذ أوامره . وكانوا يتولون فى القصر أعمالا جليلة . منها أن كبيرهم كان يتولى شد التاج على رأس الخليفة ، وكان له فى ذلك مهارة خاصة . وكان منهم صاحب الرسالة يحملها عن الخليفة إلى الوزير أو أحد كبار رجال الدولة . ومنهم متولى بيت المال . ومنهم حامل الدواة للخليفة =

وشيوخ دار الخلافة ووجوه الملة، وكبراء الدولة، من القضاة والقادة والدعاة، فى القيام بأمر تجديد الرسوم التى جرى عليها نظام دار الخلافة، واستئناف الحفاوة بتلك الحفلات والموالد الملغاة، وإعادتها إلى سابق عهدها. فأخذوا يتحدثون إلى الخليفة الآمر فى شأنها، وصاروا يرددون على مسامعه ما كان لها من شأن فى مظاهر الخلافة وجلال الإمامة، وما كان ينجم عنها من فوائد جمة، وسياسة حكيمة، وتدبير موفق. وكل ذلك يعود على الدولة بالسمعة الحسنة، والدعاية النافعة، وامتلاك قلوب الشعب، بمجاراة ميول الأمة. كما يعود ذلك على الناس بالخير الجزيل، والبر الشامل. وظلوا يحسنون له معارضة الوزير فى إبطالها، ويحرضونه على إلغاء ذلك الأمر الجائر. ويبينون له ما فى ذلك من إحياء لشعائر الدولة، لا سيما وإن رسوم الخلافة التى استنها أسلافه الصالحون، يجب أن تسير فى طريقها الواضح، وأن تتجه نحو جهتها الصالحة. وما زالوا به حتى استجاب لهم، وأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه، وإقامتها على الرسوم التى درج عليها من تقدمه من أهل بيته. ودقت بذلك البشائر فى أنحاء المملكة، واستقبلت الأمة هذا الأمر بمظاهر السرور والابتهاج.

على أن ذلك لم يوضع فى نصاب النفاذ إلا بعد اغتيال الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش، وإسناد منصب الوزارة إلى المأمون البطائحى.

فنى يوم ١٣ من ربيع الأول سنة ٥١٧ هـ ١١٢٣ م صدر المرسوم الآمرى

= ومعه الأقلام الخاصة. ومنهم متولى شؤون القصر. ومنهم متولى أمور الأقارب ومن تربطهم بالخليفة روابط النسب والصهر.

بإطلاق الجوارى الخاصة بالصدقات ، والتى جرى عليها الرسم فيما مضى . فكانت : ستة آلاف درهم ، وأربعين صينية فُطرة ، وأربعمائة رطل حلاوة ، وألف رطل خبز . وذلك غير السكر ، واللوز ، والعسل ، والشيرج . وأن يفرق من ذلك على المتولين ، وسدنة المشاهد ، وغيرهم من الفقراء . وكان يتولى توزيع هذا كله : سناء الملك ابن ميسر [١]

وذكر تقى الدين المقريزى عن ابن الطوير ، [٢] أن الرسم كان فى الموالد الستة التى هى : مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد أمير المؤمنين على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، ومولد السيدة فاطمة ، ومولد ولديها الحسن والحسين عليهم السلام ، ومولد الخليفة الحاضر ـ وكان من عادة الخليفة أثناء هذه الموالد والاحتفال بها ، يجلس فى المنظرة القريبة من الأرض ، لإطلاق الأموال ، وملاحظة توزيعها فى مستحقيها . وكانت هذه المنظرة قبالة دار فخر الدين جهاركس [٣] والفندق المستجد .

---

(١) هو القاضى سناء الملك عبد الله بن محمد بن ميسر ـ كان من أعيان الدولة وذوى الرأى فيها ـ تولى القضاء بمصر سنة ٥٢٦ ثم سنة ٥٢٨ ثم غضب عليه الخليفة الحافظ عبد المجيد فنفاه ، ثم قتل سنة ٥٣١ هـ ١٢٧ ؛ م .

(٢) هو أبو محمد عبد السلام المرتضى بن محمد الطوير الفهرى القيسرانى الكاتب المصري ـ كان من أكابر الكتاب وأفاضل المؤرخين ، له كتاب « نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين الفاطمية والصلاحية »

(٣) كان الأمير فخر الدين جهاركس من ولاة الدولة الأيوبية وقادتها ورجالها المعدودين . وكان رأس الصلاحية . ولاه العزيز عثمان بن صلاح الدين استادارا (ناظر الخاصة) ثم تقلب فى الولايات الجليلة فأحسن القيام بشؤونها . وفى سنة ٥٩٢ هـ أنشأ داره العظيمة وقيساريته الشهيرة بخط بين القصرين بالقاهرة . توفى سنة ٦٠٧ هـ ١٢١٢ م .

قال : فإذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول ، تقدم [الخليفة] بأن يعمل فى دار الفطرة : عشرون قنطارا من السكر اليابس ، حلواء يابسة ، من طرائفها ، وتعبَّي فى الثمانة صينية من النحاس ، وتفرق تلك الصوانى فى أرباب الرسوم من ذوى المراتب . وكل صينية فى قوارة (١) ويبدأ ذلك من أول النهار إلى ظهره . فأول أرباب الرسوم : قاضى القضاة ، ثم داعى الدعاة - ويدخل فى ذلك القراء بالحضرة ، والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ، وقومة المشاهد - فإذا صلى [الخليفة] الظهر ركب قاضى القضاة والشهود بأجمعهم إلى الجامع الأزهر ، ومعهم أرباب تفرقة الصوانى . فيجلسون مقدار قراءة الختمة الكريمة . ثم يُستدعى قاضى القضاة ومن معه - إن كانت الدعوة إليه - وإلا حضر الداعى ومعه نقباء الرسائل . فيركبون ويسيرون إلى أن يصلوا إلى آخر المضيق من السيوفيين (٢) قبل الابتداء بالسلوك بين القصرين . فيقفون هناك - وقد سُلكت الطريق على السالكين من الركن المُخَلَّق ، ومن سويقة أمير الجيوش عند الحوض هناك ، وكنست فيما بين ذلك ورشت بالماء رشا خفيفا . وفرش تحت المنظرة [التى يجلس فيها الخليفة] بالرمل الأصفر - ثم يستدعى صاحب الباب من دار الوزارة -

(١) القوارة : صحفة خزفية متسعة قريبة القاع . وهى معروفة عند عامة المصريين إلى الآن .

(٢) كانت المدرسة السيوفية التى نسب إليها هذا المكان ، أول ما أنشئت ، قصرا فخما بناه الوزير المأمون البطائحى ، ثم استولى عليه الوزير عباس ، فعرف بقصر عباس . ثم جعلته الدولة الأيوبية مدرسة للأحناف ، ثم عرفت بعد ذلك بالمدرسة السيوفية . وتعرف الآن بمسجد الشيخ مطهر . وهى على رأس الشارع الذى كان يسمى بشارع الجواهرجية المؤدى إلى خط بين القصرين إلى باب الفتوح .

ووالى القاهرة [فى أثناء ذلك] ماضٍ وعائد لحفظ [النظام] ذلك اليوم ، ومنع الزحام — على نظر الخليفة — فيكون بروز صاحب الباب من الركن المَخَلَّق [(١)] هو وقت استدعاء القاضى ومن معه من مكان وقوفهم . فيقربون من المنظرة ، ويترجلون قبل الوصول إليها بخطوات . فيجتمعون تحت المنظرة ، دون الساعة الزمانية ، بسمت وتشوف ، لانتظار الخليفة . فتفتح إحدى الطاقات [من المنظرة] فيظهر منها وجهه وما عليه من المنديل ، وعلى رأسه عدة من الأستاذين المحنكين وغيرهم من الخواص منهم ، ويفتح بعض الأستاذين طاقة ويخرج منها رأسه ، ويده اليمنى فى كمه ويشير به قائلا : أمير المؤمنين يرد عليكم السلام . فيسلم بقاضى القضاة أولا بنعوته ، وبصاحب الباب بعده كذلك ، والجماعة الباقية جملة جملة ، من غير تعيين أحد . ثم يستفتح قراء الحضرة بالقراءة ، ويكونون قياما فى الصدر ووجوههم إلى الحاضرين وظهورهم إلى حائط المنظرة . فيقوم خطيب الجامع الأنور ، المعروف بجامع الحاكم ، فيخطب كما يخطب فوق المنبر إلى أن يصل إلى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فيقول : وإن هذا يوم مولده إلى ما من الله به على ملة الإسلام من رسالته . ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة . ثم يُؤَخَّرُ . ويقدم خطيب الجامع الأزهر ، فيخطب كذلك ، ثم خطيب الجامع الأقمر ، فيخطب كذلك .

---

(١) كان موضع الركن المخلق تجاه حوض جامع الأقمر . وقيل له الركن المخلق لما زعموا من أنه فى سنة ٦٦٠ هـ كشف فى موضعه حجر مكتوب عليه (هذا مسجد موسى عليه السلام) نخلق بالزعفران ، فسمى من ذلك التاريخ الركن المخلق . ومكانه الآن يقع بالزاوية البحرية الغربية للمنزل رقم ١١ بشارع التمبكشية تجاه دورة مياه الجامع الأقمر ، وبأسفل هذا المنزل مسجد قديم هو الذى كان يعرف بمعبد موسى ؛

والقراء فى خلال خطابة الخطباء يقرؤن . فإذا انتهت خطابة الخطباء [وقراءة القراء] أخرج الأستاذ رأسه ويده فى كمه من طاقته ، ورد على الجماعة السلام . ثم تُغلق الطاقتان ، فينفض الناس .

وعلى هذه الرسوم ، وهاتيك القواعد ، مضى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف طوال عهد قيام الدولة الفاطمية ، إلى أن دالت بقيام الدولة الأيوبية .

٤ — فى التنويه ببعض مآثر الدولة الفاطمية :

أما حظ مصر وممالكها من مآثر دولة الفاطميين فقد كان حظا عظيما ، وكان نصيبها من عنايتهم وافرا ؛ إذا قيس ذلك بما كان لغيرهم ممن تقدمهم أو تأخر عنهم . وكان من أوائل فضلهم على مصر أن استردت استقلالها الذى كانت حصلت عليه بفضل أحمد بن طولون ، ثم فقدته فترة قصيرة حينما احتلت الجيوش العباسية مصر فى أواخر عهد الطولونيين بقيادة محمد بن سليمان الكاتب . فاستقلت بواسطة الفاطميين استقلالا غير مشوب بشائبة ظاهرة أو خفية . وكان انفصالها عن تبعية الدولة العباسية انفصالا لا رجعة بعده . وليس هذا حسب ؟ بل وسعوا من سلطانها ، وأضافوا إليها غيرها من الممالك فى أفريقية والمغرب ، كما افتتحوا باسمها كثيرا من الممالك التى كانت تابعة لبغداد فى آسيا وغيرها . ولم يتركوا للعباسيين من النفوذ إلا مالا يكاد يبعد عن بغداد بكثير ، من البلاد المجاورة .

وبفضلهم ، وشدة يقظتهم ، واستحكام أمرهم ، تدفقت الأموال على الديار المصرية من الشرق والغرب ، ومن الشمال والجنوب ، وعم الرخاء سكان الوادى ورعايا الخلافة المصرية جميعا . ونَعم الناس بموفور خيراتها ،

وقويت شوكة الخلافة فيها حتى هادنتها الدول ، وسالمتها الممالك . وعظمت سطوة جيوشها ؛ فوقفت فى وجوه المغيرين من القرامطة وغيرهم من أهل التنزّى ، وردت جحافلها مطامع الروم ، كما صدت حملات الصليبيين الأولى.

وقد بلغ من شدة بأسهم ، وقوة بطشهم ، أن أمبراطور القسطنطينية أرسل مراكبه إلى ساحل القدس تحمل رسله إلى العزيز بالله بن المعز ، ومعهم تقادم عظيمة ، وهدايا جليلة ، وقد جاؤا إلى مصر لعقد مهادنة بين الدولة الفاطمية ، ودولة الروم بالقسطنطينية . فعقدت الهدنة وكان من شروطها إلزام الإمبراطور بإطلاق جميع من فى مملكته من أسرى المسلمين ، وأن يخطب فى جامع القسطنطينية باسم خليفة مصر ، فى كل جمعة . وأن يحمل إليه من نفائس أرض الروم وأمتعتها ومصنوعاتها الجيدة ، ما يفترض عليه . فكان للعزيز ما أراد . وجعلت مدة الهدنة سبع سنين .

والحق الذى لامراء فيه أن الدولة الفاطمية كانت من خيرة الدول التى قامت بالديار المصرية . ومما يجب إثباته لها من فضل أن الحاكم – على ما نسب إليه – كان أول من أنشأ بمصر دارا للكتب وكان يطلق عليها اسم : (دار الحكمة) ، أو (دار العلم) . وحشدها بالآلاف المؤلفة من الكتب والأسفار فى مختلف العلوم والفنون والآداب . وأنت إذا أنعمت النظر فى سيرة هذه الدولة ، وكنت بريئاً من الهوى ، لا يسعك إلا أن تعترف بأن حسناتها تربى على ما قد ارتكب بعض رجالها من سيئات ... ومن ذا الذى ما ساء قط ... ؟ وحسبك هذا ...

وأما ما كان من شأنهم فى التشيع ، مهما غولى فى وصفه ، فلن يزحزحهم

عن الإسلام قيد أنملة ولا يغبر فى وجه سلامة اعتقادهم بوحدانية الله تعالى، وبرسالة نبيه الكريم، وقيامهم بما فرضه عليهم الدين. وذلك فضلا عن أن أكثرهم كان على جانب عظيم من المعرفة بسياسة الملك، والبراعة فى أساليب الحكم، والقدرة على حفظ ناموس الدولة وحماية الملة، والبعد عن إرهاق الأمة بما لا طاقة لها به، أو استغلال الشعب بما يعجز عنه.

وبعد: فللدول، كما للأفراد، أعمار محدودة، وأزمنة معدودة. فمتى تقدم بها الزمن، ودب فى كيانها دبيب الشيخوخة، وتوكأت على رميح الهرم، وآذنت بالزوال: تهيأت لها أسباب التلاشى والاضمحلال، وانتابتها عوامل التفكك والانحلال. «وَاللهُ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ».

وقد أجمل الفقيه عمارة اليمنى [1] الشاعر المشهور مآثر هذه الدولة فى قصيدته البارعة التى رثاها بها بعد زوالها على يد صلاح الدين الأيوبى، وكانت سببا فى قتله. وأولها:

---

(١) هو أبو محمد نجم الدين عمارة بن على الحكمى المذحجى اليمنى. ولد بتهامة وبها تعلم ثم رحل إلى زبيد، ثم قدم مصر برسالة من أمير مكة إلى الفائز الفاطمى فتلقاه الوزير طلائع بن رزيك وأكرمه، وبالغ الفاطميون ورجال الدولة فى الحفاوة به، فانطلق لسانه بالدعاء لهم والثناء عليهم، ومدحهم بقصائد أجاد فيها وأحسن. وأقام بمصر فى كنفهم إلى أن دالت دولتهم. فرثاهم وافتن فى الثناء عليهم وذكرهم بكل خير. ثم حمله الولاء لهم على التآمر مع جماعة من أشياعهم، على الثورة ضد الأيوبيين، فقبض عليه وصلب فيمن صلب من جماعته. وكان من أفاضل الكتاب وأماثل الشعراء، وثقات المؤرخين. وله فى ذلك كتب قيمة. توفى سنة ٥٦٩ هـ ١١٧٤ م.

رَميتَ يادهرُ كفٌ المجـــد بالشلل ... وجيدَه بعد حُسن الحَلْيِ بالعَطَل

سعيتَ فى منهج الرأى العثور فإن ... قدرت من عثرات الدهر فاستقل

جدعتَ مارنك الأقنى فأنفك لا ... ينفك ما بين قرع السن والخجل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل ... سُقيت مُهلا ، أما تمشى على مَهَل

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة ... على فجيعتنا فى أكرم الدول

إلى آخره ، وهى طويلة ومشهورة . إكتفينا بهذا القدر منها .

عصر الدولة الأيوبية

١ — فى مجمل أحوال هذه الدولة :

إذا صرف الإنسان نظر التفكير فيما صنعه السلطان صلاح الدين الأيوبى فى الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر ، وفيمن بقى من أعقابهم وسلالتهم ، أو من يمت إليهم بسبب — من الإبادة والتنكيل ، والاعتقال والتشريد ، للاستيلاء على ملك مصر وانتزاعه من أيديهم ، والاستئثار به دونهم — واتجه الإنسان بتفكيره إلى ما كان لهذه الدولة الأيوبية من آثار فى الإسلام تذكر فتشكر ، ومن مواقف ماجدة فى الذب عن حياض الدولة المصرية ، والذياد عن كيان الأمة الإسلامية ، رأى لها من الفضل فى ذلك ما قد ينسى معه ما تقدمه من نقص فيما أشرت إليه . و «إن الحسنات يُذهبن السيئات» .

وقد كتب المستشرق (بكر) خلاصة موجزة فيما كان عليه الأيوبيون من خلال صالحة ، وصفات حسنة ، كما أشار إلى ما أدوه للشرق الإسلامى ، بل وللغرب المسيحى من مآثر لا تزال لامعة فى جبين الدهر . قال :

كان الأيوبيونَ — فى جملتهم — ظاهرةً هامة فى ممالك الإسلام . فقد جمعوا ما كان مبعثرا من مملكة الفاطميين ، وأضافوا إليها دويلات الأتابكة بالشام . ثم كونوا من ذلك كله قوة واحدة مركّزة تمكنوا بها من الوقوف فى وجه الصليبيين . وقد أنجبت تلك الأسرة عددا يذكر من الشخصيات القوية ، والأبطال الأفذاذ ... فصلاح الدين أشهر من أن يُعرَّف ؛



السلطان صلاح الدين الأيوبى

وأجل من أن يشار إليه . وكان العادل والكامل من أعاظم الملوك وأكابرهم . وليس من العدل أن يقال : إن الأيوبيين كانوا دون الصليبيين فى الفضائل والمزايا الحربية . بل من الإنصاف أن يقال : إنهم كانوا يتفوقون عليهم فى هذه الصفات : حتى لقد استحق كثير منهم لقب (شيفاليه) فارس .

وقد أبقى لنا الدهر كثيرا من المؤلفات القيمة ، وصلت إلينا حافلة بالمعلومات المفيدة عن مناصب ذلك العهد ، وعن النشاط العظيم الذى بدا منهم عند مانهضوا بأعباء الإدارة فى أنحاء المملكة . فقد علمنا منها أنهم كانوا معنيون بشؤون الزراعة ، ووسائل الرى : كما كان لهم اهتمام كبير بالتجارة والتمهيد لرواجها بتأمين السبل . وفى عهدهم عُقد كثير من المعاهدات بينهم وبين بعض الدول الأوربية . ولا تزال وثائق بعضها موجودة فى خزائن بعض الممالك إلى الآن .

أما القوة الحربية فى المملكة المصرية ، فقد كانت تقوم على جيوش مؤلفة من المماليك المسترقين . وكان النظام الإقطاعى يعتمد على إقطاع الأرض مع خراجها . وذلك على خلاف ما كان عليه فى أوربا . ولما كان أكثر العبء الحربى ملقًى على عواتق أولئكم المماليك ، فقد أخذ نفوذهم فى الازدياد ، وسطوتهم فى الاتساع ، حتى لقد بلغ بهم الأمر إلى أن تناولوا بعض الأمراء من مواليهم .

ومما تميز به العهد الأيوبى أنه كان عهد لون جديد من ألوان الثقافة . فقد أخذوا فى مصر يمثلون دور رد الفعل الذى بدأه السلاجقة . وعلى أيديهم انبعثت آثار الشرق الغابرة ، التى تبدت فى إحداث فن جديد فى العمارة .

وفى أوضاع جديدة فى عادات القصور ، وفى تغيير الألقاب ، كما دخل على نظام الإقطاع تطور جديد فى وضعه التركى .

على أن هذا التطور فى الثقافة لم يلبث أن صار ذا أهمية كبرى ، إذ تأثر به إلى حد بعيد المدى ، غربى أوربا . وذلك بما حمله إليه العائدون من الحروب الصليبية وفى الاستطاعة الوقوف على كثير من العادات والقواعد والتقاليد فى أوربا ، المستعارة من هذه الثقافة الشرقية . وكذلك النظم الخاصة بتعاليم الفروسية ، فإنها تَمُتُّ بأمتن الوشائج إلى أصول نظم الفتوة فى الدولة الأيوبية

وقد جرى المماليك على التقاليد الأيوبية ، فلم يغيروا فى أول الأمر شيئا مما ورثوه من ثقافة أسلافهم فى ملك مصر حتى إنهم حافظوا على ألقابهم فأضفوها على أنفسهم متحلين بها .

هذا تعريب ما كتبه ذلك الباحث المستشرق (بكر) وهو على الجملة لا بأس به ، أما على التفصيل ففيه مواضع جديرة بالنقد والنظر .

٢ — فى صنيع الأيوبيين بالرسوم الفاطمية

كان بدء استيلاء الأيوبيين على الديار المصرية ، وإنشائهم الدولة الأيوبية فيها ، فى عهد الخليفة الفاطمى العاضد ، الذى كان لسوء حظه وفأل لقبه ، آخر الخلفاء من بنى فاطمة . فإنه لما تمكن صلاح الدين يوسف بن أيوب من القبض على زمام الأمر والنهى عند ما عينه العاضد وزيرا له ، أظهر الاستبداد بالأمر ، وعمل على محو اسم الخليفة الفاطمى من خطبة الجمعة ، وإثبات اسم الخليفة العباسى مكانه . وكان إذ ذاك الملقب بالمستضئ بأمر الله .

وذلك فى سنة ٥٦٧ هـ ١١٧١ م .

وذكر بعض المؤرخين أن السلطان صلاح الدين لما تم له الاستبداد بأمر الديار المصرية ، وخلع الخليفة العاضد الفاطمى ، وقبض على أعقاب الأسرة الفاطمية ، وحبس منهم من حبس ، واعتقل منهم من اعتقل ، وقتل منهم من قتل ، وشرد منهم من شرد ، وفرق بين رجالهم ونسائهم ـ ألغى رسوم الدولة الفاطمية ، ومن بين هاتيك الرسوم ، أعيادها ومواسمها وأيام احتفالاتها .

وقد بحثت فيما كتبه الكتاب ، وتتبعت ما دونه أصحاب الأخبار عن أحداث هذه الدولة ، وما رواه رواتها وقُصاصها من شؤونها ، فلم أعثر على خبر يشير إلى أنه قد كان لهذه الدولة شىء من العناية بأمر إحياء ذكرى المولد النبوى الشريف ، أو ينوه بأن أحداً من ملوكها نهض به ، أو فكر فيه . وهذا من غرائب تصرفات الدول ، وتقلبات أوضاعها . إذ مما يمكن فهمه والتسليم به أن الدولة الأيوبية قد يكون من حقها الذى تجيزه السياسة القائمة على الانقلاب وتغيير الخطط الإدارية ، أن تبطل الرسوم والتقاليد والعادات التى اقتضاها المذهب الشيعى ، إذا كان فيها غلو أو خروج على الشريعة . لأن الأيوبيين كانوا يذهبون إلى التسنن . ولكن ما لا يمكن فهمه ، ويبعد تصوره أن يدخل فى مضمون ذلك إلغاء الاحتفال بذكرى المولد النبوى ، وذلك لأن إحياء هذه الذكرى والعناية بالاحتفال بها ، وتعظيم شأنها ، وإنفاق الأموال فى الأعمال الخيرية أثناء أيامها ولياليها ، وتوزيع المبرات على أهل الفاقة من الشعب فى خلالها ، ليس خاصا بأهل مذهب ، أو أصحاب نحلة ،

أو ذوى رأى ، دون غيرهم من أهل المذاهب والآراء والنحل الأخرى. بل هو عام شامل لجميع المسلمين على السواء . يشترك فى الاضطلاع بواجباته ، والنهوض بنوافله ، السنىُّ منهم والشيعىُّ ، وغيرهما من أهل الإسلام .

ولعل عدم تنويه المؤرخين بشىء من هذا الشأن ، إنما مرده إلى أن أكثر الملوك من بنى أيوب كانوا فى شغل شاغل عن العناية بأمر المولد ، لانصرافهم إلى ماهو أهم منه وأجدى على الإسلام والمسلمين ، وهو الاستعداد المستمر لرد غارات الصليبيين ، ودفع عاديتهم عن اكتساح البلاد الإسلامية (١) واتخاذ الأهبة التامة لخوض المعارك معهم ، وإشعال نيران المعامع لكبح جماحهم ، وعدم تمكينهم من استعباد المسلمين وتخريب ديارهم . ولاشك فى أن هاتيك الحروب المستعرة ، وماكانت تقتضيه فى إعداد القوى المختلفة وتجمعها ، كانت تستدعى جهوداً شاقة ، وتكاليف باهظة ، وعناية فائقة ، وهمة عالية . ولهذا فقد صرفتهم كل تلك الاعتبارات عن إعطاء هذه الذكرى

---

(١) جاء فى دائرة المعارف الإسلامية (المصرية) . ج ٢ : ١٧٤ أنه فى سنة ١٢٠٤ م عندمادخل اللاتين الذين جاؤوا لإثارة الحرب الصليبية ضد المسلمين وتخليص بيت المقدس من أيديهم - على زعمهم - إلى القسطنطينية ، هجموا على كنيسة أياصوفيا وأعملوا فيها السلب والنهب ، ودنسوا الملابس والأوانى المقدسة ، واتخذوا منها أحجلة وأحواضا لسقيا الخيل ...

قلت : هذا ما كان يصنعه الصليبيون فى بلاد أبناء دينهم ، وفى أماكنهم المقدسة ، وشعائرهم المحترمة فما الظن بما كانوا يفعلون فى بلاد الإسلام ، وفى مقدساتهم من مساجد وأضرحة ومزارات ، لولم تقف فى وجوههم جيوش مصر بقيادة الأيوبيين وبهمة المماليك البحرية ؟ ... لاشك أن الإبادة والخراب والدمار ومحو آثار الإسلام من الشرق عامة ، ومن مصر خاصة ، كان ذلك كله أقل مايحدث عنهم . ولكن الله تعالى قد أعان على رد كيدهم فى نحورهم . والله لايهدى كيد الخائنين .

الكريمة حقها من الرعاية والحفاوة والبذل ، وإجراء الرسوم على وجهها . كما أحسب أن هذه الحروب وتطوراتها ، وما كان ينشأ فيها من مفاجآت : قد شغلت تفكير الكتاب الذين تجردوا لتدوين مآثر الدولة الأيوبية ، ووجهت مؤرخيها إلى بذل كل عنايتهم ، أوجلها ، فى وصف هاتيك الوقائع ، وذكر أسباب ونتائج مانشب فيها من معامع ، وتحرير ملابساتها ، ومواقف أبطالها ، وتفانى كماتها ، ومغامرات فتيانها . ولم يحفلوا بما عدا ذلك من الشؤون التى تعد دونها فى المرتبة ، والتى ليس لها من الخطر ما كان لها . وآثروا العناية بالأهم وقدموه على المهم ، وبالفرض وآثروه على النفل . ولا شبهة فى أن الدفاع عن الإسلام والذياد عن دياره ، فى مقدمة الفروض المفضلة على غيرها من الشؤون الأخرى . ولا يفكر فى أمثال هذه الاحتفالات ، وإحياء أشباه هذه الذكريات إلا الدول الآمنة ، والأمم الوادعة ، والشعوب المطمئنة ، والممالك الحافظة لكيانها ، والرافلة فى حلل أمانها .

على أن فكرة الاحتفال بذكرى المولد النبوى للشريف ، كانت قد صارت من الأمور التى ألفتها الأمة ودخلت فى تقاليدها العامة ، وجرت منها مجرى العقائد الواجبة الرعاية والأداء ، وأصبحت عندها من الشعائر التى يعز عليها إغفالها أو ترك القيام بها فى أوقاتها التى أضحت مقدسة . ولذلك فقد كان الشعب يصرف عنايته إلى الاحتفال بهذه الذكرى الكريمة فى إبانها ، وينهض به من تلقاء نفسه ، غير منتظر وازعا يزعه ، أو دافعا يدفعه ، من جهة رسمية أو غير رسمية .

٣ — فى مفخرات الملك المظفر بالمولد النبوى

وعندى أن الدولة الأيوبية لم تشدد فى إلغاء الاحتفال بالمولد النبوى الشريف - إن كان قد دخل فى ضمن ما ألغى من المواسم والأعياد الفاطمية ، أو كان هذا الإلغاء مطلقا غير مقيد .

والدليل على ذلك أن الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل (١) كان يحتفل بإحياء ذكرى المولد النبوى احتفالا ، كان مضرب الأمثال فى العظمة والجلال ، وكان يبدى فيه من العناية والبذل ماهو فوق الآمال ، مع جهود تشكر ، وخيرات تذكر ، وأموال لا تكاد تحصر .

وقد كان هذا الملك من عظماء الدولة الأيوبية ، ومن أقوى أركانها ، وكبار أعيانها . وكان من المشهود لهم بالكفاية التامة ، والمعروفين بالنهوض بجلائل الأعمال العامة . وكانت له المشاهد المذكورة مع صلاح الدين ، والمواقف المشهورة فى مكافحة الصليبيين . ولو لم يكن له من المحامد إلا موقفه الباهر فى وقعة حِطّين ، لكفاه . وناهيك برجل يراه صلاح الدين كفؤا كريما له ، فيصهر إليه ويزوجه من أخته (ربيعة خاتون) بنت أيوب .. ؟

---

(١) إربل : بلدة كبيرة بها قلعة حصينة ، فى فضاء واسع من الأرض وفيها أسواق عامرة ، ومنازل كثيرة وبقلعتها جامع للصلاة ، وكانت من أعمال الموصل ، وكان الموصل من ولايات الدولة المصرية . قال ياقوت : وفى ربض هذه القلعة فى عصرنا هذا مدينة كبيرة عريضة طويلة ، قام بعمارتها وبناء سورها وأسواقها وقيساريتها : الأمير مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين كوجك على . وبمقامه بها قامت لها سوق ، وصار له هيبة ، وقاوم الملوك ونابذهم بشهامة ، وكثرت تجربته حتى هابوه فانحفظت بذلك أطرافه ، وقصدها الغرباء وقطنها كثير منهم حتى صارت مصرا من الأمصار .

فقد ذكر سبط ابن الجوزى[٢] فى كتابه (مرآة الزمان) عمن شاهد سماط الملك المظفر فى بعض هذه الاحتفالات المولدية ، أنه عد فى ذلك السماط خمسة آلاف رأس غنم مشوى، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة فرس، ومائة ألف زبدية؛ وثلاثين ألف صحن حلو — قال : وكان يحضر عنده فى المولد أعيان العلماء والصوفية فيخلع عليهم ، ويطلق لهم [الهبات والمبرات] ويعمل للصوفية سماعا من الظهر إلى الفجر ، ويرقص معهم بنفسه . وكان يصرف على المولد فى كل سنة ثلثمائة ألف دينار .[١]

وذكر ابن خلكان طرفا من وصف احتفال هذا الملك ، فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به ، كما يقول . فقال : إن أهل البلاد كانوا سمعوا بحسن اعتقاده فيه (أى فى المولد) فكان فى كل سنة يصل إليه من البلاد القريبة من إربل ، مثل : بغداد ، والموصل ، والجزيرة ، وسنجار ونصيبين ، وبلاد العجم ، وتلك النواحى ، خلق كثير من الفقهاء ، والصوفية ، والوعاظ ، والقراء ، والشعراء ، ولا يزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول

---

(١) هو شمس الدين يوسف (قز أوغلى) ومعنى ذلك بلغة التركمان (ابن البنت) ولذلك قيل له (سبط ابن الجوزى) لأنه ابن بنت أبى الفرج ابن الجوزى ، وهو من أصل تركمانى . وكان ذا عناية بالتاريخ . وله كتاب (مرآة الزمان) قيل إنه يقع فى نحو أربعين مجلداً . طبع منه قطعة بالفتوغرافيا فى شيكاغو بأميركا سنة ١٩٠٧ بها حوادث من سنة ٤٩٥ إلى ٦٥٤ ﻫ توفى سنة ٦٥٤ ﻫ ١٢٥٦ م .

(٢) الدينار عملة قديمة كانت تسك من الذهب غالبا . وأول من سكه فى الإسلام عبد الملك بن مروان فى سنة ٧٧ ﻫ ٦٦٦ م . وفى تقدير قيمته اختلاف كبير بين الباحثين والراجح أنه كان يساوى ما قيمته ١٥٫٢٥ فرنكا أو ٥٨٨٫٢٢ مليما بالعملة المصرية.

ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب ، كل قبة أربع أو خمس طبقات ، ويعمل مقدار عشرين قبة أو أكثر : منها قبة له ، والباقى للأمراء وأعيان دولته ، لكل واحد قبة .

فإذا كان أول صفر زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المتجملة ويعد فى كل قبة جوق من الأغانى ، وجوق من أرباب الخيال [١] ومن أصحاب الملاهى . ولم يتركوا طبقة من تلك الطبقات حتى يرتبوا فيها جوقا . وتبطل معايش الناس فى تلك المدة ، وما يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم .

وكانت القباب منصوبة من باب القلعة إلى باب الخانقاه المجاور الميدان وكان مظفر الدين ينزل كل يوم ، بعد صلاة العصر ، ويقف على قبة قبة ، إلى آخرها ، ويسمع غناءهم ، ويتفرج على خيالاتهم ، وما يفعلون فى القباب [من صنوف الألعاب] ثم يبيت فى الخانقاه ، ويعمل السماع فيها [٢] ثم يركب عقيب صلاة الصبح يتصيد ، ثم يرجع إلى القلعة قبل الظهر .

وهكذا يعمل كل يوم إلى ليلة المولد .

وكان يعمل [المولد] سنة فى ثامن الشهر ، وسنة فى ثانى عشره . لسبب الاختلاف الذى فيه . فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم ، شيئا كثيرا ، زائدا عن الوصف ، وزفها بجميع ما عنده من الطبول والأغانى والملاهى ، حتى يأتى بها إلى الميدان . ثم يشرعون فى نحرها ،

---

(١) الخيال : هو ذلك الملعب الذى يعرف عند عامة المصريين بخيال الظل . ولا تزال بقاياه موجودة إلى الآن فى بعض البلاد المصرية يشهده العامة والأطفال

(٢) يريد بالسماع حلقات الذكر التى يقيمها الصوفية ويتناشدون فيها الأشعار بأنغام وحركات خاصة ، ويتظاهر فيها بعض المتصوفة بالتواجد .

وينصبون القدور ، ويطبخون الألوان المختلفة .

فإذا كانت ليلة المولد عمل السماعات ، بعد أن يصلى المغرب فى القلعة ، ثم ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شىء كثير ، وفى جملتها شمعتان أو أربع من الشموع الموكبية التى تحمل كل واحدة منها على بغل ، ومن ورائها رجل يسندها ، وهى مربوطة على ظهر البغل ، حتى ينتهى إلى الخانقاه .

وفى صبيحة يوم المولد تنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه ، على أيدى الصوفية : على يد كل شخص منهم بقجة . وهم متتابعون كل واحد وراء الآخر . فينزل من ذلك شىء كثير . ثم ينزل [الملك المظفر] إلى الخانقاه ، ويجتمع الأعيان والرؤساء ، وطائفة كبيرة من بياض الناس . وينصب كرسى للوعظ وقد نصب لمظفر الدين برج من الخشب له شبابيك إلى الموضع الذى فيه الناس ، والكرسى وشبابيك أخر للبرج إلى الميدان .

وهو ميدان كبير فى غاية الاتساع . ويجتمع فيه الجند ويعرضون ذلك النهار .

والملك المظفر تارة ينظر إلى عرض الجند ، وتارة إلى الناس والوعاظ . ولا يزال كذلك حتى يفرغ الجند من عرضهم . فعند ذلك يقدم السماط فى الميدان للصعاليك . ويكون سماطا عاما ، فيه من الطعام والخبز شىء كثير ، لا يحد ولا يوصف . ويمد سماط ثان فى الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسى

وفى مدة العرض ووعظ الوعاظ يطلب [الملك المظفر] واحدا من الأعيان والرؤساء الوافدين لشهود هذا الموسم — ممن قدمنا ذكرهم — من الفقهاء

والوعاظ والقراء ، والشعراء. ويخلع على كل واحد منهم . ثم يعود إلى مكانه فإذا تكامل ذلك كله ، حضروا السماط ، وحملوا منه لمن يقع التعيين على الحمل إلى داره . ولا يزالون على ذلك إلى العصر ، أو بعده . ثم يبيت المظفر تلك الليلة هناك . ويعمل السماعات إلى بكرة .

هكذا دأبه فى كل سنة .

فإذا فرغوا من هذا الموسم تجهز كل إنسان للعود إلى بلدته . فيُدفع لكل شخص شىء من النفقة .

وقال ابن كثير فى (البداية والنهاية) : كان [الملك المظفر] يعمل المولد الشريف فى ربيع الأول ، ويحتفل به احتفالا هائلا . وكان شهما شجاعا ، بطلا عاقلا ، عالما عادلا . وقد صنف له الشيخ أبو الخطاب ابن دِحية [١] مجلداً فى المولد النبوى سماه (التنوير فى مولد البشير النذير) فأجازه على ذلك بألف دينار . قال : وقد طالت مدته فى الملك إلى أن مات وهو محاصر للفرنج بمدينة عكا سنة ٦٣٠ ﻫ

ونقل السخاوى فى (التبر المسبوك) أنه كان للملك المظفر صاحب إربل [بالمولد النبوى] أتم عناية . واهتمام جاوز الغاية ، بحيث أثنى عليه بذلك

(١) هو أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن الجميل بن فرح البلنسى الأندلسى. كان يعرف بابن دحية الكلبى، ويلقب بذى النسبين . وكان من أعيان العلماء ، ومشاهير الفضلاء . جاب البلاد الإسلامية شرقا وغربا فى طلب العلم والتوسع فى المعرفة ، وله عدة مصنفات . وكان مولده فى بلنسية فى بلاد الأندلس سنة ٥٤٤ ﻫ وتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ ﻫ ١٢٣٦م ودفن بسفح المقطم .

الإمام العلامة أبو شامة فى كتابه (الباعث على إنكار البدع والحوادث) قال : إن هذا يحسن ويُندب إليه، ويُشكر فاعله ويُثنى عليه .

٤ — فى مناقب الملك المظفر

وبعد فلا يسعنى هنا إلا أن ألخص حياة ذلك الملك الكريم ، فأقول :

هو أبو سعيد مظفر الدين كوكبورى (ومعناه بلغة التركمان : الذئب الأزرق) ابن زين الدين كوك (أى الصغير) التركمانى . تولى بعد أبيه سنة ٥٦٣ هـ ١١٦٨م ثم عزل فقصد إلى سيف الدين غازى صاحب الموصل فأقطعه مدينة حران ثم تطوع بخدمة السلطان صلاح الدين وشهد معه فيما شهد ، وقعة حِطِّين الشهيرة التى هُزم فيها الصليبيون . فأقطعه مدينة الرّها وزوجه من أخته (ربيعة خاتون) بعد وفاة زوجها الأول سعدالدين مسعود سنة ٥٨١ هـ ١١٨٥م ثم ولاه إربل وأعمالها سنة ٥٨٦ هـ ١١٩٠م وكان أحد الملوك الأمجاد ، والفرسان الأنجاد ، والكرام الأجواد . وكانت له آثار حسان منها الجامع المظفرى الذى عمره بسفح جبل قاسيون من دمشق الشام ، ومنها أنه كانت له دار ضيافة للوافدين من مختلف الجهات ، يصرف عليها فى كل سنة مائة ألف دينار ، كما كان يصرف على الحرمين الشريفين ، وعلى المياه بدرب الحجاز فى كل سنة ، ثلاثين ألف دينار . وكان يفتدى أسارى المسلمين ويفتكهم من أيدى الأفرنج فى كل سنة بمائتى ألف دينار . هذا كله سوى صدقات السر . ومع هذا فقد كان فى نفسه متزهدا متقللا ، يلبس قميصا من الكرباس الغليظ لا يساوى خمسة دراهم . فلما عاتبته زوجته ربيعة خاتون فى ذلك قال : إن لبسى

ثوبا بقليل من الدراهم . وأتصدق بالباقى ، خير من أن ألبس ثوبا مثمنا وأدع الفقير والمسكين ...! وأنشأ أربع خانقاوات الزمنَى والعميان ، وجمع فيها هذين الصنفيين من ذوى العاهات ، وأجرى عليهم مايحتاجون إليه كل يوم . كما بنى دارا للنساء الأرامل ، ودارا للأيتام الصغار ، ودارا للقطاء ، ورتب لهم المراضع ، وأجرى على هذا كله واسع النفقات . وكان للبيمارستان من عنايته النصيب الأوفر ، فقد عين فيه الأطباء والممرضين ، وأمده بمختلف الأدوية وجميع مايلزم لمباشرة الطب والجراحة . وكان يزور هذه المنشآت بنفسه يومان فى كل أسبوع ، ويتفقد كل واحد من نزلائها ويصرف لهم نفقات زيادة على المقرر .

وعلى الجملة فقد كان رجلا لا نظير له بين أقرانه فى حب الخير على اختلاف مواقعه . رحمه الله رحمة واسعة ، فلقد فضح الملوك من بعده ، إذ قصروا عن شأوه . وكانت ولادته فى سنة ٥٤٩ هـ ١١٥٤ م وتوفى شهيدا على أسوار عكا فى محاصرة الصليبيين سنة ٦٣٠ هـ ١٢٣٣ م .

وبعد فلو كان الأيوبيون جادين فى إلغاء الرسوم الفاطمية ، والتقاليد الشيعية ، بصورة قاطعة ، لما خالفهم هذا الملك المظفر فى إحياء هاتيك الرسوم ، وبلغ من احتفاله بالمولد النبوى هذه المبالغ التى لم يسبقه إليها سابق ، ولن يلحقه فيها لاحق . والحق أن الأيوبيين لم يهملوا إحياء ذكرى المصطفى عليه الصلاة والسلام ، الإهمال كله ، لا سيما أن الكثير من الأمم الإسلامية كانت تُعنى به العناية الفائقة . وقد صار فى المملكة المصرية على الخصوص ، من التقاليد والعادات المقدسة التى كان الشعب المصرى ينهض بأعبائها فى أوقاتها دون الإلتفات إلى أوامر الحكومة ونواهيها .

عصر دولة المماليك البحرية

١ — بحث شؤون هؤلاء المماليك

رأينا من يهرف بما لا يعرف يقول إن ملوك مصر المنعوتين فى التاريخ (بالمماليك) ليسوا إلا جماعات متفرقة، من أمم شتى ، جرى عليهم ، أو على أكثرهم الرق . وساعدتهم المقادير حتى تمكنوا ، بظروف موانية ، من اغتصاب عرش مصر ، والتصرف فى شؤون الدولة المصرية بما شاؤا وشاءت لهم أهواؤهم . وهم مع ذلك لا يحسبون من المصريين فى قبيل أو دبير - يريدون أنهم من أجناس أجنبية لا تمت بصلة من صلات النسب ، ولا بوشيجة من وشائج القربى ، من الجنس المصرى . وعلى هذا فلا يصح - فى تقدير هؤلاء الأغفال - أن ينتظموا فى سلك الملوك المصرية . ويغالون فى غفلتهم فيرون أن كل ماقاموا به من جلائل الأعمال ، وما أدوه لوادى النيل من صنوف الخير ، والاحتفاظ بالكيان الدولى له ، يجب أن ينظر إليه بمؤخر العين ، إذلا يستحق عندهم القبول على إطلاقه . ولذلك كثيرا ما ترى هؤلاء المحسوبين على أهل الفهم والمعرفة ، وهم يتجاذبون أطراف الأحاديث عن هؤلاء المماليك وأساليب تصرفاتهم فى الحكم ، يختلقون الأسباب الواهية ، لتشويه تاريخهم ، ويبتدعون العلل المتهافتة ، لتخطئة أعمالهم فى إدارة الدولة ، وقيادة الأمة . وقد يتغالون فى تجنيهم هذا فينكرون قيامهم بالدفاع عن كيان السلطنة المصرية ، وذيادهم عن بيضة الإسلام فى حومته من قلب الشرق .

ولا شك فى أن هذه الروح الخبيثة ، وهذه النفوس السادرة فى مهامه الخديعة ، إنما نشأت عن الأثر السيء الذى تركته فيها سياسية التعليم الأجنبية التى نهجها المستغلون من المستعمرين ، لقتل العصبية المصرية ، ومحو روح القومية . كما أن ذلك من فيض التفكير السقيم الذى تبرأ منه المقومات الصحيحة للكيان الإنسانى فى مواطن آبائه وأجداده . أثاره الجهل بأحوال التاريخ ، والغفلة عن تفهم التطورات الزمنية ، وما تحدثه من التعارض والتضارب ، فى الآراء والمذاهب – وهم مع هذا لا يشعرون بأنها نزعة خطرة قام على بثها فى هذه الأذهان المعتلة ، قوم لهم أغراض مدمّرة ، ومطامع مقوِّضة ، ليصلوا منها إلى تمزيق شمل الوحدة الإسلامية ، وإظهارها فى مظهر الأمم المتفرقة الأصول ، المتجمعة على الفضول . وفى حال القوميات المتباينة التى لا يعد بقاؤها من الأمور الطبيعية . وبذلك يضربون تاريخ مصر الإسلامية فى صميمه . كما رأينا ذلك رأى العين ، ولمسناه بالأكف وعرفناه بالاختبار فى طوال السنين الماضية من حياتنا .

ولهذا رأيت أن أبين مدى الخطأ فى هذه النزعة ، وأوضح وجه الصواب فى حقيقة أمر هؤلاء المماليك المظلومين . كما أعرض لأحوالهم وشؤونهم ، بالإجمال ، من النواحى التى تظهرهم على ما فطرهم الله عليه ، وما وفقهم إليه .

وقبل المضى فى ذلك أرى أن أوجه هذا السؤال :

متى ، وفى أى عصر ، قام فى مصر ملوك من أبنائها الصميمين . بعد عهد الفراعين ؟

والجواب على ذلك لا يحتاج إلى بيان ، ولا يفتقر إلى إيضاح . فهو

ظاهر ظهور الشمس فى أفق الوادى . لأن كل من له إلمام بالتاريخ المصرى يعلم علما ليس بالظن أن الديار المصرية ، بعد عهد الفراعين ، كانت عرضة للغزاة والمغيرين . فقد طالما اجتاحتها الدول الطامعة ، وأغارت عليها جيوشهم من الشمال والجنوب ، وانصبت إليها كتائبهم من الشرق والغرب . وما من مغير عليها إلا حاول فيها إنشاء دولة ، أو تأسيس أسرة تستقل بالحكم والنفوذ فى ربوعها . ومنهم من ألحقها بدولته الأجنبية ، وجعلها تابعة لمملكته الخارجية واتخذها ولاية تُستغل لصالح بلاده . وهو مع هذا لا يمت إليها بصلة من صلات النسب ولم يجر فى عروقه شيء من دم جنسها أو ماء نيلها .

هذا مالا خفاء فيه على من عنى بتصفح تاريخ وادى النيل .

والحق الذى لامراء فيه ، والذى يجب أن يكون ماثلا فى ذهن كل مصرى ، أن الملوك الذين قاموا على ضفاف هذا الوادى ـ بعد الفتح الإسلامى إلى الآن ، إنما يشتملون على الصفة المصرية التى لا يمكن بحال ، نزعها عنهم ، أو تجريدها منهم لنزوات تقوم فى بعض الرؤوس .

وذلك لأنهم ـ قبل كل شيء ـ مسلمون . والدين الإسلامى لا يعرف التباعد بين أممه ، أو التباين بين أجناسه ، ولا يقر الحدود أو الحواجز بين دوله وشعوبه . فهو بطبيعته : أمة واحدة تستغرق جميع الأمم المنضوية تحت لوائه ، وهو بروحه وكيانه ومبادئه ، جنس واحد تنطوى فيه سائر الأجناس ، مهما تباينت فى أصولها ، أو تباعدت فى مواطنها ومناشئها ، أو تخالفت فى فروعها وفصولها .

ومن الأمور المقررة لدى العارفين أن يكون كل ملك من الملوك الذين

يلون سياسة الأمم الإسلامية ، ويقومون بتدبير شؤونها فى أى بقعة من بقاع الأرض - متصفا بصفتين . إحداهما : أصيلة ضرورية ، وهى التدين بالدين الإسلامى ، والقيام على إنفاذ أوامره ونواهيه ، ورعاية فروضه وواجباته . والثانية اجتهادية ، وهى التمكن من إقامة ميزان العدل بين الناس كافة ، ورفع الجور والظلم عن الرعايا ، واحترام العهود والمواثيق مع أهل الذمة منهم ، ماقاموا برعايتها واحترامها . فمتى كان الملك ، أو السلطان ، أو الخليفة ، أو الأمير ، أو الحاكم ، حائزاً للصفة الأولى ، مضطلعاً بأعباء الصفة الثانية ؛ كان جديراً بتولى أمور المسلمين ، ومن فى حكمهم من المعاهدين ، حقيقاً بالسلطان فيهم ، والحكم بينهم . وبهذا يكون أشد إعراقا فى القومية من القوم الذين نصب فيهم ليسوسهم ويرعاهم . دع عنك مذاهب الشيع وفرق الغالية التى لها فى هذا الشأن آراء متباينة ، وأفكار شاذة .

على أن فكرة القومية ، بمعناها المعروف الآن ، ونزعة الوطنية ، بصورتها الماثلة فى الأذهان ، وعلى ما توحى به من مغازيها ، ومطارح مراميها - لم تكن معروفة بما تشير إليه فى عصرنا الحاضر ، ولم يكن لها وجود صحيح أو حدود مرسومة ، قبل القرنين الأخيرين ، فصورة القومية التى نتمثلها فى هذه الأيام ، وهيولى الوطنية التى نناضل من أجلها ، ونضحى بكل مرتخص وغال فى سبيل تحقيقها - هذه الصورة وهذه الهيولى ، وإن كانتا طبيعية فى بنى الإنسان ، إلا أنهما مما أججت أوارها فى النفوس ، بدع السياسة ، وطغيان الساسة ، وألهبت مشاعلها سنن تنازع البقاء فى هذا العصر الحديث .

فملوك مصر الذين تبوأوا عرشها ، واقتعدوا غارب الحكم فيها ؛ من أولئكم المماليك - بأية وسيلة من الوسائل الممهدة لذلك ، وورثوا فيها ما كان للدول قبلهم ، ونظموا حكوماتها بما أوحت به مواهبهم وغزوا الأمم والممالك باسم مصر ، وعبّدوا لها سبل البسطة والسلطان على غيرها ، ونشروا رايتها عالية خفاقة فى الأمم والشعوب ، وعقدوا المعاهدات بوحى مصلحتها مع الدول الأخرى - هم منها ، وبها ، ولها ، وإليها . وهم بذلك أحق بصفة المصرية وأهلها - من أولئكم الذين لايحملون إلا هذه النسبة مهما تغلغلت بهم الأصول فى تربتها ، أو جبلوا من قاع نيلها ، وطعموا ثمرات طينها ، واستروحوا الحياة بين أرضها وسمائها - ولم يقدموا لها خيرا ، ولا دفعوا عنها ضيرا .

أجل ، هم أحق بالمصرية من سواهم ، على شريطة الإسلام ، وتحرى العدالة فى الأحكام على قدر الطاقة البشرية - مهما تباعدت أجناسهم أو تقاربت من الجنسية المصرية .

أما من غزاها للإذلال ، أو استولى عليها للاستغلال ، أو اختتلها لتكون دريئة لحفظ سلطانه ، فهو الأجنبي عنها حقا ، ولو كان من أهل الصلاح والعدل - وهو ما لم يعثر عليه فى غمار المغيرين - لاشك فى ذلك ولاريب .

فالدولة الطولونية ، والأخشيدية ، والفاطمية ، والأيوبية . ودولة المماليك البحرية ، والمماليك البرجية الجراكسة - كل ما قام بمصر من هذه الدول - على اختلاف أسمائها ، وتنوع ألقابها - فهى مصرية بلاشك ولاجدال . لايجوز الطعن فى مصريتها . ولا يجمل دفع ملوكها وسلاطينها وأمرائها عن

المصرية بحال. لا سيما وقد كان وادي النيل فى عهودهم ، والمملكة المصرية فى سلطانهم ، محوطتين بكل ما يحفظ منهما الكيان ، ويوطد فيهما الأركان . وكانت مصر تحت ظلالهم تتمتع باستقلال مطلق فى كل قيد ، مبرأ من أية شائبة أو شبهة . كما هو عليه بعض الدول الكبرى فى هذا العصر .

ومما ينوه به التاريخ لهم من فضل على مصر خاصة ، وعلى العالم الإسلامى عامة . بل وعلى المدنية الإنسانية والحضارة البشرية ، بوجه أعم ـ أنهم كانوا السبب المباشر فى حفظ التراث الإسلامى ، ومنابع الحضارة العربية ، بالدفاع عنهما ، والذياد عن حياضهما . وذلك حين اكتسح الشرق الإسلامى : جنكيزخان بجيوشه ، وهولاكو بمقانبه ، وغازان بكتائبه ـ تلك الجيوش المغولية والتترية التى كانت لا تعرف من غايات الحرب إلا الإبادة والتدمير ، والتى ما وقفت فى طريقها دولة إلا أزالتها ، ولا أمة إلا أبادتها . كما كان لهؤلاء المماليك أعظم الفضل فى صيانة مصر من غارات تيمورلنك ، وحراستها من السيول الدافقة من متعصبة الصليبيين الذين توالت حملاتهم الجائحة على ديار الإسلام ، المرة بعد المرة ، والكرة إثر الكرة . فلولا المماليك فى مصر لتغير وجه العالم إلى ما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى ، ولا سودّت صفحات التاريخ المصرى ، كما هى مغبرة منذ أكثر من ستين سنة . ولما كان للعالم الإسلامى كيان أو وجود على وجه الأرض .

هذا ما يجب أن يذكر لهؤلاء المماليك الأبطال المظلومين ، من الفضل على مصر ، وما ينبغى أن ينقش لهم بمداد المجد والفخار على جبين الدهر .

٣ — نظرة فى الرق وقيمته

أما اعتزاز هؤلاء المماليك بوقوع الرق عليهم أو على بعضهم ، فلا قيمة له فى نظر العقل السليم ، ولا ينال منهم فى معارج الإنسانية المهذبة ، ولا يغبر فى وجوه أعمالهم المخلدة ، ولا يحول بينهم وبين الفطرة الحرة التى فطر الله الناس عليها . وإذا كان قد وقع على بعضهم الرق ، فقد كان ذلك خارجا عن إرادة من وقع عليه منهم ، فضلا عن مخالفته لمقتضى النشأة الطبيعية . فالأصل فى الإنسان أن يولد من أبويه حرًّا ، وأن ينشأ فى بحبوحة الحرية . وإنما يقع الرق على من يقع عليه من الناس بعوامل النزوات النفسية : فيتسلط القوى على الضعيف ويقسره على الإذعان لإرادته ، والاستكانة لمشيئته . فيخضع الضعيف لسطوة القوى حبا فى الحياة التى هى أعز شىء فى الوجود ، واعتماداً على الأمل فيما تأتى به المقادير فى غد ، والغد بيد الله . وهناك أسباب كثيرة لحدوث الرق لا فائدة فى استعراضها هنا وإنما كان هذا من سنن تنازع البقاء وطبيعة الغلب .

فهذا الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم ، والحر بن الحر بن الحر ابن الحر ، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم - عليهم السلام - ألم يقع عليه الرق ويباع بثمن بخس دراهم معدودات ؟ ... ! هل حال الرق بينه وبين إنسانيته ؟ وهل منعه من أن يتولى أكبر المناصب فى الدولة المصرية ، وأن تُرد إلى أمره ونهيه جلائل الأعمال فى المملكة ، فى أحرج أوقات القحط والضيق وسِنِىّ الشدة ! وأن يكون العزيز المطلق التصرف فى شؤون الأمة ؟ ألم يكن يوسف فى مصر فى مقام (الدكتاتور) ؟ وهل رأى أهل

الرأى وأصحاب الحل والعقد من المصريين ، غضاضة فيما أسند إليه فرعون مصر ، من التصرف فى رقاب الرعايا ، والتحكم فى أرزاقهم من غير شرط ولا قيد ، وهو مع ذلك على الرق . !! لقد كان المصريون أكبر عقلا ، وأحكم رأيا ، وأنفذ بصيرة ، وأعظم إيثارا ، من أن يخطر لهم خاطر رق يوسف على بال ، أو أن يكون الرق حائلا بينه وبين أن يبلغ فيهم ، بجده وكده وإخلاصه ، من السطوة والنفوذ ، منتهى الآمال . والحال أن رقه لم يكن خفيا على دهماء المصريين وعامتهم ، فضلا عن الملوك والأمراء وكبار الأمة وخاصتها .

وقد كان الرق معروفا فى الأمم القديمة ، كما هو معروف فى الأمم الحديثة . وكان من أسبابه ودواعيه ما كان ينشب بين الشعوب من الغارات والحروب طلبا للرزق ، وارتيادا لمواقع الخصب ، وحبا فى القهر والغلب ، وذهابا إلى البسطة والنفوذ ، وانتهابا لما فى أيدى المستضعفين من وسائل العيش ، أو كسبا لوصف الشجاعة والبطولة ، والعلو فى الأرض . وكان فى غالب هذا النزاع يقع الكثير من الأسرى فى أيدى الغالبين . فيختار الغالب منهم من يصلح للانضمام إلى صفوفه ، ويميز من يصلح منهم لحرث الأرض ورعى الماشية . ومنهم من كان يخصص بالقيام على الشؤون الخاصة بالغالب وخدمته الفردية ، أما من كان يُرى أنه غير صالح لشىء من ذلك ، أو كان زائداً عن الحاجة ، فقد كان الغالبون يضيقون به ذرعا فيبادلون به غيرهم ممن يرغب فيه بأى نوع من أنواع البدل . وربما ضن بعض الآسرين بإطعام مأسوريهم وإيوائهم ، فقتلوهم واستراحوا من تكاليفهم .

وهذا التصرف الأخير قد روى عمن اتصفوا بحملة مشاعل المدنية

فى القرن التاسع عشر ، ولم يرو مثله عن طغاة البربرية فى القرون الأولى .

فقد تناقل المؤرخون أن نابوليون بطل أوربا فى العهد الحديث ، ضاق ذرعا بمن استسلم إليه من المصريين حينما خرج إلى الشام ، فأمر بقتلهم جميعا ، وكانوا حوالى أربعة آلاف ، بلا ذنب جنوه ، إلا أنه رآهم عبئا ثقيلا على مؤنته .

هكذا كان الحال عند قدماء الطغاة ، وهكذا الحال عند متمدنة القرون الحديثة .

وإن تعجب فعجب ما نقل عن أرسطو فى شأن الرق ، وأنه كان فى نظره أمر طبيعى لا ينبغى التعجب منه . وأن الطبيعة فى قسمتها البشر إلى طبقتين : سادة ؛ وأرقاء ـ ليست ظالمة ، ولا مستبدة . قال : « وإنه يوجد فى آسيا ، فى الأقاليم الحارة منها ، أقوام ذوو ذكاء وسرعة خاطر ، لكنهم مجردون من العزيمة ، لذلك هم مخلوقون ليكونوا أرقاء ... وقال : إن مناخ يونان المعتدل هو المناخ الوحيد الذى يمكنه أن ينشىء سلائل جامعة بين العزم والذكاء . فاليونان أحرار بحسب الفطرة قبل عمل التربية » .

وأنت ترى فى هذا الرأى أن أرسطو شيخ الحكماء قد دفعه التعصب لتلميذه الإسكندر ، فخلع رداء الحكيم وتنكب قوس السياسى ، ومضى يبرر ما قام به الإسكندر من غزوات فيها الكثير من استعباد الأمم ، والتنكيل بشعوب آسيا . وإن كان قد صاغ هذه المبررات فى قالب يوهم التجرد من الغاية ، أو يناسب تفكير الفيلسوف العليم .

وليس هذا من روح الإسلام الذى عبر عنه عمر بن الخطاب بقوله :

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

فلما جاءت الأديان السماوية ، وكان الإنسان قد درج فى هذا الشأن على أمر يعز عليه التخلى عنه دفعة واحدة ، تدرجت فى الحث على الرفق بالرقيق والعناية به ، قدر المستطاع . ولكن الدين الإسلامى كانت وصاياه بالرقيق وعنايته بالرفق به بالغةً حد الكمال الإنسانى . فمن جهة أسرى الحروب قرر مبدأ الفداء ، وسن نظام التبادل بين الأسرى من الفريقين المتحاربين . كما أطلق للأسير الحرية فى أن يختار اللحاق بذويه ، أو البقاء لدى آسره من المسلمين . فكان المسلمون يتقبلون من رغب فيهم من أسراهم على الرحب والسعة . وفى غير هؤلاء من الأرقاء أوجب العتق والمكاتبة والولاء ، وأثاب عليها . وفتح سبيل التقدم على مصراعيه أمام ذوى الهمم من الرقيق فصاروا يتقدمون غيرهم من الأمراء فى تولى المناصب الملحوظة فى الدولة ، ولهم أن يؤاخوا الأحرار مؤاخاة الأنساب . فكان منهم من يقود الجيوش ويتسلط على الولايات ، ويسوس الرعايا ، وينشر الدعوة الإسلامية بما أوتى من مواهب ، كما كان منهم من يتصدر مجالس الحكم ، ومحافل العلم ، فيحكم بين المتخاصمين من الأحرار وغيرهم ، ويقيم ميزان العدل بينهم ، ويقتعد غارب الإرشاد والتعليم والافتاء فيهم . فكان يقصد من جميع الطبقات للاقتباس مما من الله به عليه من فضل ، والإفادة بما مازه الله به من صالح الرأى ، فى حل مشكلات الاجتماع ؛ من معاملات ، وعقود ، وعبادات ... « وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » .

على أن الكثرة الغالبة من المماليك المصرية لم يقع عليها الرق ، ولم تفقد صفة

الحرية المتعارفة . فكم من قبائل وشعوب وخركاوات وأسر بأكملها، جاءت إلى مصر من أوطانها الأصلية ، متطوعة فى صد غارات الصليبيين عن بلاد الإسلام ، ووقف الزحوف المغيرة من غيرهم . وكم منهم من لجأ إليها فارا من الاكتساحات المغولية ، هاربا من التدميرات التترية ، التى خربت بلادهم القديمة والمستحدثة ، والتى كانت لاتبقى منهم ولا تذر . ومنهم من حصل فى أيدى المصريين بطريق الأسر ، أو الاستسلام ، فى تلك الوقائع . ثم اتخذ هؤلاء جميعا مصر دارا لهم ، ومن وادى النيل وطنا دائما ، عاشوا فيه وماتوا له .

وقد كان هؤلاء المماليك من أجناس شتى فى مناشئهم ، ومن أصول مختلفة فى أجدادهم . فكان منهم التركمانى ، والتركى ، والكردى ، والمغولى ، والتترى ، والأويراتى ، والأشروسنى ، والسامانى ، والبلخى ، والخراسانى ، والبخارى ، والأويغورى ، والشركسى ، وغيرهم من شعوب الشرق الأسيوى كما كان فيهم الروسى ، والبولاندى ، والبلغارى ، والرومانى ، والسلافى ، والصقلبي . والرومى ، والهونى ، واللانى ، والبندقى ، واليونانى ، وغيرهم من شعوب شرق أوربا وجنوبها . والقليل من هؤلاء جميعا من وقع فى رق غيره ، ثم حاز شرف الولاء . وأى رق هذا الذى كان يؤدى ـ أحيانا كثيرة ـ إلى اقتعاد غارب السلطنة ، ويكون سبيلا إلى القبض على صولجان الملك ... !

وبعد ، فلا شك فى أن البودقة المصرية قد صهرتهم مع الزمن ، وسبكتهم على الأيام ، وأحالتهم من مختلف عناصرهم المتفرقة وجواهرهم المتنوعة ، إلى عنصرها الموحد ، وجوهرها القوى الغلاب . فأصبحوا ـ رغم تباين أصولهم ، وتباعد معادنهم ـ مصريين ، بل أجدر بالمصرية من كثير من

قذفت بهم الأرحام المصرية ، ولهم ما لكل مصرى من حقوق ، وعليهم ما عليه من واجبات . وصاروا جميعا لا يعرفون إلا مصر ، ولا يدينون إلا لمصر ، ولا يعملون إلا لمجد مصر . ثم ابتلعتهم أرض النيل .« فأَصْبَحُوا لا تُرَى إلَّا مَسَاكِنُهُمْ ».

٢ — فى بعض شأن المماليك البحرية

كان المماليك البحرية ممن وفدوا على الدولة الأيوبية ، وألفوا جيوشها ، وحاربوا فى صفوفها ، وأبلوا معها البلاء الحسن : فى مدافعة خصومها ، ورد عادية المغيرين على بلاد الإسلام من الصليبيين وغيرهم . وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب قد استكثر من إيفادهم إلى بلاده ليحلوا مكان من أفنتهم الوقائع ، وأبادتهم الحروب . وهو أول من فكر فى شأن أبنائهم وذراريهم ، وعنى بتربيتهم . فأنشأ لهم قلعة الروضة ؛ واتخذ لهم بها ثُكنا [١] ورتب لهم المعلمين والمدربين ، يعلمونهم ما يجب عليهم نحو دينهم ، بعد إحسان القراءة والكتابة والحساب ، ومعرفة اللغة العربية مع اللغة التركية . ويهذبون

---

(١) يظهر لى أن الملك الصالح نجم الدين أيوب إنما جرى فى إنشاء هذه الثكن التى اتخذها فى قلعة الروضة على النيل لتخريج المماليك البحرية وتثقيفهم — على النحو الذى جرى عليه الفاطميون من قبل ، فقد كانوا أنشأوا حجرا لإيواء غلمانهم وتعليمهم وتدريبهم ، وهؤلاء الغلمان هم الذين كان يطلق عليهم لقب (الصبيان الحجرية) وكانوا فى منزلة هؤلاء المماليك وفى ثقافتهم وإعدادهم لعظائم الأمور . وكذلك جرى السلطان قلاون فيما بعد على هذا النحو ، فأنشأ البروج واتخذ الطباق بقلعة الجبل للغرض نفسه ، وكان يطلق على خريجيها لقب (المماليك البرجية) أو (مماليك الطباق) كما أطلق على مماليك الصالح أيوب لقب (البحرية) لأنهم نشأوا بجوار البحر ، أى نهر النيل . وهذه فكرة لا تغيب عن أذهان المصلحين من ذوى النفوذ والسلطان .

أخلاقهم بتلقينهم نتفا من العلوم والفنون والآداب . وفى خلال ذلك يدربونهم على ضروب الرياضة والفتوة ، وما يلزم لرجل الحرب من استعمال آلات النزال ، وخوض المعامع ، ومباشرة المعارك ، وعوامل الفروسية ، وشؤون الغارات كرّا وفرّا ، والوثب على الخيول والمطاردة بها كما يخصون فرقا منهم لعلوم الهندسة ، وإقامة الحصون ، وإنشاء المعاقل ، واصطناع القلاع . إلى غير ذلك مما كان معروفا فى ذلك العهد من خصائص الحروب وآلاتها .

ولهذا كان لهم الشأن الأعظم فى رد عادية الجيوش الصليبية ، وإحراز فخر الانتصار عليها فى كثير من الوقائع حتى ردوهم على أعقابهم ، وأزالوهم عن مراكزهم ، وأنقذوا مصر والبلاد الإسلامية من غاراتهم المتوالية ، وأجلوهم عن الأماكن التى كان بعضهم قد تأثل فيها واتخذها ولاية أو مملكة من الأرض العربية ، فى الشرق الأدنى . وذلك بعد حروب كثيرة ومعارك هائلة ، ووقائع حاسمة .

وكان أول من تولى السلطنة المصرية منهم ـ بعد انقراض الدولة الأيوبية ـ المعز أيبك التركانى الصالحى . نسبة إلى مولاه الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥١ م .

٣ — المماليك البحرية والمولد :

وقد أطلت البحث والتنقيب ، وتصفحت الكثير من الأسفار المؤلفة عن هذه الدولة ، على أعثر على أثر لها انفردت به فى شأن القيام بإحياء ذكرى المولد النبوى الشريف ، بما يليق به من حفاوة وجلال ، فلم أجد

لأحد من ملوكها، أو أمرائها، شيئاً من هذا . ولم أقرأ لأحد من كتاب تلك الدولة ومؤرخيها وأصحاب أخبارها، إشارة إلى ما يبرر السكوت عن هذه الناحية ، وإغفال ذكرها ، فيما تناولوه من شرح آثارها ، وتقييد مآثرها.

وعندى أن السبب فى ترك الإشارة إلى هذا الشأن ، قد يرجع فى أكثر الأحوال إلى انشغال الدولة ورجالها : ملوكا وأمراء ، وقادة وعلماء، وكتابا وأدباء، بشؤون الحروب الصليبية ، والغارات المغولية ، وماكانت تقتضيه هذه الجوائح الكبرى من إفراغ الجهد ، واستنفاذ الوسع ، وبذل أكبر الهمم فى الاضطلاع بأعبائها ، والنهوض بأوزارها .

وإذا علمت أن من ملوكها كان : المظفر قطز ، والظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون وأولاده ، وما منهم إلا وله فى هذه الحروب ، المواقف المذكورة، والمشاهد المأثورة، والمآثر المشكورة رأيت أن هذا التعليل الذى أشرت إليه، قد يكون أقرب إلى الحقيقة من أى أمر آخر . وقد يضاف إلى ذلك أن هذه الدولة - وقد خلفت الدولة الأيوبية - قد جرت فى شأن المولد على مارسمته هذه الدولة ، من ترك السير على آثار الفاطميين فى بذل العناية الكبرى بهذه الذكرى الكريمة.

على أنهم فى الحق، لم يهملوا الاحتفال بذكرى المولد النبوى ، الإهمال كله ، ولم يقصروا فى الالتفات إليه التقصير المطلق . وإنما كانوا يقيمون الاحتفال حسب مقتضيات الأحوال السياسية ، ومساعفات الظروف الدولية ، ودواعى الأحداث الحربية - وكان احتفالهم بذلك فى حوش قلعة الجبل الكبير

أما الأهالى فقد كانوا على ما هم عليه من إقامة الزينات ، والعناية

بالاحتفالات بالمولد فى أوقاته المقررة . وكانوا يبذلون فى سبيل إحيائه ، والافتنان فى الاحتشاد له ، كل ما فى وسعهم . فكانوا يزينون أحياءهم ويقيمون الولائم فى دورهم ، ويسيرون المواكب فى حاراتهم ودروبهم ، ويوزعون الصدقات على أهل الفاقة من عاماتهم . لأنه ـ كما أشرت إلى ذلك غير مرة ـ قد كان الاحتفال بهذه الذكرى ، أصبح فى اعتقادهم من الواجبات التى تدعوا الديانة إلى أدائها، على ما رسمه أسلافهم .

٤ — فى الأسرة القلاوونية

لما تولى سلطنة مصر السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى رأس الأسرة القلاوونية فى سنة ٦٧٨ هـ ١٢٧٧ م رأى أن الحروب الصليبية قد أفنت الكثير من جيوش الدولة ، ولما كانت الوقائع الصليبية لاتزال محتدمة الأوار ، رأى أن يضم إلى جيوشه عناصر قوية ترد إليها شبابها وجدتها فكتب إلى أمم الشرق ، وخانات آسيا ، يستمدهم بما يقوى به على رد المغيرين على بلاد الإسلام ، ويدعوهم إلى الجهاد وصد المعتدين على عباد الله . فاستجيبت دعوته ، ولم يلبث أن تدفق على مصر الكثير من القبائل والعشائر من سكان جبال القوقاز ، وقطان سهول آسيا : من ترك وكرد وجركس ، وغيرهم من هاتيك الأجناس . فجرى معهم على نهج أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأنشأ لهم ثكنا خاصة بقلعة صلاح الدين ، وجعل لهم بروجا ، واتخذ لأبنائهم طباقا يقيمون بها ، وخصص لهم الأساتذة والمعلمين والمدربين ، يهذبون كبارهم ، ويثقفون شبابهم ، ويربون صغارهم . فيتلقون ما يجب

عليهم نحو دينهم ، و تعلمون النظم العسكرية والحركات الرياضية ، ويتدربون على أعمال الفروسية فيعدون بذلك إعدادا صالحا لخوض المعامع ، ومباشرة الحروب والوقائع ، وقيادة الجيوش ، وإدارة المعارك .

وكان بتلك البروج والطباق : اثنا عشر ألفا أو يزيدون ، يتخرج منهم من يلتحقون بصفوف الجيش ويحل بها غيرهم . وبهذا استطاع السلطان قلاوون أن يصمد لخصوم الإسلام من الصليبيين ، وأعداء البلاد من التتر وغيرهم ، ويرد كيدهم فى نحورهم .

ورأى السلطان قلاوون أن المماليك يستعملون الذهب فى زينتهم ، ويتحلون به فى روحاتهم وغدواتهم ، ويبالغون فى ذلك مبالغة غير سائغة . كما أنهم يتخذون لأنفسهم ذوائب طويلة من الشعر ، يجعلونها فى أكياس من الحرير . فأمر بإبطال ذلك ، وبأن يكونوا فى ملبسهم وزيهم ، كما يكون عليه رجال الحرب ، وأبطال الطعن والضرب . وبهذا كله نقلهم من حال الترف والفوضى إلى حال الخشونة والنظام . وخاض بهم المعامع ، وكان من الفائزين .

٥ — وفود سلطان أفريقية على مصر

وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وفد على مصر السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحيانى ، أحد ملوك بنى حفص بتونس . وذلك فى سنة ٧١٧ هـ ١٣١٧ م

والسبب فى ذلك أن السلطان الحفصى بلغه توثب صاحب الثغور الغربية على بلاده فآثر التنازل عن الملك ، غير أنه كتم نيته ، وأخذ ببيع ما بخزائنه

من تحف وجواهر ، ودرر وذخائر ، كما باع ما يملك من أرض وعقار ومزارع ، ثم أخذ ما فى بيت ماله من نقود وسبائك ومسكوكات ، وجمع ذلك كله فى خفاء ، حتى باع الكتب . كما يقول ابن خلدون . ثم ورّى لأهل دولته أنه ذاهب إلى طرابلس لتمهيده . فلما وصل بركبه إلى ثغر طرابلس ركب البحر بما معه وبمن صحبه ، وحضر إلى الإسكندرية وفيها ألقى مراسيه . وتلقاه الملك الناصر وأنزله خير منزل وعنى به ورفع مجلسه وأكرم وفادته ، وفرض له جراية تكفيه ومن معه . فقابل الملك الحفصى هذا الإكرام بما هو أهله . وصار يمد الملك الناصر بأمواله وذخائره ، يستعين بها على حروبه ومنشآته حتى نفدت جميعها . وظل بعد ذلك يعيش مما فرض له ، حتى وافاه أجله ، فمات بمصر سنة ٧٢٨ هـ ١٣٢٨م

هذا ملخص ماذكره ابن خلدون . أما ابن بطوطة فقد قال عند زيارته للإسكندرية : وكان فيها فى ذلك العهد سلطان إفريقية المخلوع ، وهو زكريا أبو يحيى بن أحمد بن أبى حفض المعروف باللحيانى . وأمر الملك الناصر بإنزاله بدور السلطنة من اسكندرية ، وأجرى له مائة درهم فى كل يوم ، وكان معه أولاده عبد الواحد ، ومصرى ، واسكندرى ، وحاجبه أبو زكريا بن يعقوب ، ووزيره أبو عبد الله بن ياسين . وبالإسكندرية ، توفى اللحيانى وولده الإسكندرى ، وبقى المصرى بها إلى اليوم » .

* * *

ذكرنا هذا هنا لندل على أن مصر مازالت فى أدوار تاريخها ، وفى مختلف عصورها ، ملجأ للمنكوبين ، وعصمة للمظلومين ، وأنها ما برحت البلد المضياف الكريم ، يأوى إليها من فقد الأمن على حياته ، والطمأنينة

على كيانه : من كبار الرجال ، وأحرار الأبطال . وملوك الأمم . وهاهى فى عهد الفاروق العظيم تتقبل الملوك والأمراء ، والسادة والكبراء أمثال : الملك أحمد زوغو ملك ألبانيا ، والسيد محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين الأكبر ، والملك فكتور إمانويل ملك إيطاليا ، والملك سيمون ملك بلغاريا والملك أمبرتو ملك إيطاليا ، والأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى أمير المغرب الإسبانى . وغيرهم من الأحرار المضطهدين . ولكل واحد من هؤلاء حاشية ، تكثر أو تقل ، فضلا عن أسرهم وهم يعيشون الآن تحت سماء مصر وفى رحاب الأمن والكرامة .

عصر دولة المماليك الجراكسة

١ — تعليل نسبتهم

أما نسبتهم إلى الجركس ، فهى النسبة العامة التى اصطلح عليها أكثر المؤرخين . وقد يقال لهم المماليك البرجية ، إما نسبة إلى بلد قلاوون المسماة (برج) والمتاخمة لبلاد الجركس ، كما زعم بعض كتاب الإفرنج ، وإما نسبة إلى البروج التى أنشأها لهم السلطان قلاوون بقلعة الجبل . والأخير أظهر . وقد رجح بعضهم أن السلطان قلاوون جركسى الأصل . وإن كان بلا شك من المماليك البحرية . وقد أشرنا فيما مضى إلى أنهم كانوا من أجناس مختلفة .

٢ — وصف المماليك الجراكسة :

رأيت من الخير أن أعرض فى هذا الفصل ، لشىء من أحوال المماليك البرجية المعروفين بالجراكسة ، وأن أتناول ما كانوا عليه من الصفات الخَلقية والخلال الخُلقية ، وما امتازوا به من خصال أهلتهم لأن يكونوا ذوى أمر ونهى ، وعقد وحل ، وسطوة ونفوذ ؛ فى المملكة المصرية التى نشأوا فى ظلالها ، أو وردوا إليها واتخذوها وطناً لهم ، لا يعرفون غيره ، ولا يحنون إلى سواه . والذين تفانوا فى الدفاع عنه والذياد عن كيانه ، وأنشأوا فيه المنشآت العظيمة ، وشادوا فى أنحائه الآثار الفخمة ، من المساجد والمدارس ، والرُّبُط ، والتكايا ، والمشاهد ، والزوايا ، والأضرحة الكريمة . حتى عد عهدهم بحق من العصور الذهبية فى تاريخ مصر .

وقد وصفهم أبو الثناء محمود الأمشاطى فى كتابه (القول السديد) فقال:

«هم أصحاب قدود وقوة، وشدة وبأس وعصبية ، دأبهم المغالبة ، وفيهم غلظة وجبروت ، وكبر وخيلاء . لا يرون لأحد عليهم فضلا . ويزعمون أنهم مستحقو كل شيء من المكرمات ، ولا يستحق ذلك أحد غيرهم . ولهم شجاعة وقوة على الحرب. ولهم الصدمة الأولى، لا يقاومهم فيها أحد . وصالحهم صالح لا نظير له . وطالحهم طالح لا مثيل له . وألوانهم مختلفة : فالأبيض المشرب بحمرة يكون ذكيا فهما عاقلا ذا رأى وحكمة . والأشقر لا نظير له فى الشرور والخلاف ، قليل الخير والمعروف . والأسمر يكون شجاعا كبير الهمة مقداما» .

ووصفهم العلامة جودت باشا المؤرخ التركى المشهور ، فقال :

«جبت أرضهم طولا وعرضا ، فوجدتها نظيفة طاهرة من جميع الأدران ، ووجدتهم قوما عقلاء قابلين للحضارة والمدنية ، ذوى شجاعة وجسارة ، صادقين فى أقوالهم، ثابتين فيها ، لا يتكلمون بالكذب أصلا ، ولا يحلفون أيمانا كاذبة» .

وجاء وصفهم فى دائرة المعارف البستانية هكذا :

أن الجركس طوال القامات ، عراض المناكب ، نحاف الجسوم ، صغار الأيدى والأرجل ، حداد النظر . لهم هيبة وبأس ، وسائمة وخيول ، وأسلحة مشهورة . وهم أعلى الناس همة ، وأشجعهم وأجملهم ... وهم بطون وعشائر . يزع بين كل منها وازع من الأمراء ... ويحتفظون بأنسابهم ويفاخرون بها . وعزاهم بعضهم إلى سفك الدماء والوحشية .

وقال عنهم الحسن بن عبد الله العباسى فى كتابه (آثار الأول) :

«إن الوفاء ، والحنو ، والألفة ، فى الجركس» .

وذكرهم العلامة الأستاذ محمد فريد وجدى بك فى دائرة المعارف، بقوله:

« إن الجركس جيل من الناس يسكنون حوالى جبال القوقاس . وهم معدودون أكمل بنى آدم خلقة ، وأحسنهم وجوها ، وأشجعهم قلبا ، وأشدهم للشدائد مقاومة » .

وهذا رأى طريف ذكره ابن خلدون عند وصفه للأمير أنس الغسانى والد السلطان برقوق عند وصوله إلى مصر ، قال :

« أصل هذا الأمير برقوق من قبيلة جركس المتوطنين ببلاد الشمال فى الجبال المحيطة بوطء القفجاق ، والروس واللان ، من شرقيها ، المطلة على بسائطهم . ويقال إنهم من غسان الداخلين إلى بلاد الروم مع أميرهم جَبَلَة بن الأيهم »...

« وخبر مسيره من أرض الشام وقصته مع عمر بن الخطاب ، متناقلة معروفة بين المؤرخين » .

قال : « وأما هذا الرأى فليس على ظاهره . وقبيلة جركس من الترك معروفة بين النسابين ، ونزولهم بتلك المواطن قبل دخول غسان » ...

قال : « وتحقيق هذا الرأى ، أن غسان لما دخلوا مع جبلة إلى هِرَقْل (بالقسطنطينية) أقاموا عنده ، ويئسوا من الرجوع إلى بلادهم . وهلك هرقل ، واضطرب ملك الروم ، وانتشرت الفتنة هناك فى ممالكهم . واحتاجت غسان إلى الحلف للمدافعة فى الفتن . وحالفوا قبائل جركس ، ونزلوا فى بسيط جبلهم من جانبه الشرقى مما يلى القسطنطينية ، وخالطوهم بالنسب والصهر ، واندرجوا فيهم حتى تلاشت أحياؤهم ، وأووا من البسائط إلى الجبال مع

جركس . فلا يبعد مع هذا أن تكون أنسابهم تداخلت معهم ممن انتسب إلى غسان من جركس . وهو (أى والد برقوق) مصدّق فى نسبه ، ويستأنس له بما ذكرناه ، فهى نسبة قوية فى صحته . والله أعلم » .

قلت : إذن فى الدم الجركسى عنصر عربى غسانى . ولعل النوع الأسمر الذى ذكره الإشاطى فى كتابه ، ووصفه بأنه « يكون شجاعا كبير الهمة مقداما » ووصفه العباسى « بالوفاء والحنو والألفة » من ثمار هذا التزاوج ، ومن مظاهر هذا النسب الغسانى الجركسى ... ! خصوصا وأن المؤرخين يقدرون من دخل من العرب الغسانية مع جبلة بن الأيهم إلى بلاد الروم ، بأربعين ألفا ... وهو عدد كبير جدير ـ إن صح ـ بأن يتوالد ويتناسل ويحالف ويناسب ويصاهر من يكافئه ، من الأجناس أنّى شاء ...

٣ — مؤسس دولة المماليك الجراكسة :

كان أول من أسس هذه الدولة ، وقام على رأسها ، فى ملك الديار المصرية : السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن أنس (أو آنص . على ما يقول بعض المؤرخين) فقد اقتعد غارب السلطنة المصرية فى أواخر سنة ٧٨٤ هـ ١٣٨٣ م بعد منازعات وخطوب . وبعد أن وطد قواعد ملكه ، وثبت دعائم سلطانه ، أجرى بعض التعديلات فى نظام الجيش المصرى ، فأبدل ملابس الجنود الحريرية بغيرها من الصوف . وترسم طريق أستاذه السلطان قلاوون فى العناية بمماليك الطباق وتخريجهم فيما أُعدوا له من صفات الجندية ، ومؤهلات رجال الحرب .

المولد النبوى فى عهد الجراكسة

١ — عهد الظاهر برقوق :

فى ربيع الأول من سنة ٧٨٥هـ ١٣٨٣م توجهت عناية الظاهر برقوق إلى إحياء ذكرى المولد النبوى الشريف ، وانصرفت همته إلى أن يكون الاحتفال بها بالغا حد الكمال . فأمر بإقامة معالم الحفاوة ، ومظاهر الزينة ، وإجراء الرسوم على خير ما كانت عليه مع الافتنان فى ذلك ، وإدخال السرور والابتهاج على الأمة . فنهض الناس فى هذا الشأن وزينت القاهرة بما يتفق وجلال هذه الذكرى الكريمة . وقامت الدولة بالنفقات الواسعة ، والمخصصات البالغة ، وبذلت من المبرات وضروب الخيرات ، ما عم الناس جميعا ، وأطلق ألسنتهم بالدعاء للسلطان ، والثناء عليه ... كما تبارى فى ذلك أمراء الدولة ، وأعيان الملة ، وجرى وجوه الناس فى ترسم رغباته ، وإعطاء أنفسهم أمانيها بما يتقربون به إلى الله تعالى ، من إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج ، فى هذا الموسم العظيم . فبالغوا ، فى تحسين الزينات الباهرة ، وإقامة الولائم الفاخرة ، وتوزيع الأموال الجمة فى وجوه الخير وصنوف الصدقات .

وروى السخاوى عمن شهد هذا الاحتفال قال : لقد حضرت ليلة مولد [النبى] فى سنة ٧٨٥ عند الظاهر برقوق رحمه الله ، بقلعة الجبل ، فرأيت ماهالنى . وحزرنى ما أنفق فى تلك الليلة على القراء الحاضرين وغيرهم ، نحو عشرة آلاف مثقال من الذهب العين . ما بين خلع ، ومطعوم ، ومشروب ، ومسموع ، وغير ذلك [بحيث] لم ينزل واحد منهم إلا بنحو

عشرين خلعة من السلطان والأمراء».

وقد استمر الاحتفال بالمولد النبوى فى مواعيده المقررة ، وعلى هذه الرسوم الفخمة طوال عهد السلطان برقوق رحمه الله .

٢ — وفود ملك العراق على مصر

فى خلال سنة ٧٩٥ هـ ١٣٩٣ م كانت المحنة الكبرى ، والجائحة العظمى والفتنة المبيدة ، والطامة المبيرة . إذ تحرك تيمورلنك بجحافله الجرارة ، وجيوشه الكرارة ، من التتار والمغول وأجناسهم ، نحو بلاد الشرق الأوسط ، فاستولوا على ممالك الفرس ، واكتسحوا أرض العراق . وأعادوا سيرة جنكيزخان وهولاكو وغازان ، من الجبابرة المتقدمين.

وكان على العراق ، فى ذلك الإبّان ، السلطان أحمد بن أويس . فجمع جموعه وصمد لتيمورلنك وفيالقه ، ودافعه مدافعة الأبطال ، ونازله بما استطاع من قوة ، وما ملك من حول وطول . ولكن أين يذهب أحمد بن أويس وجنوده من تيمور وسيوله ؟ ! حُم القضاء ، وعجزت جيوش العراق عن المقاومة وباد أكثرها ، وتمزق شملها ، وكانت الهزيمة ...

فلما رأى السلطان أحمد بن أويس ما حل بقواته المدافعة ، لم ير بدا من الفرار ، ولم ير له ملجأ إلا مصر ، ولا مغيثاً إلا السلطان برقوق . فخابره فى ذلك ، فأجاب مُرحِّباً ، وأذن له فى القدوم عليه ، والنزول فى ساحته .

ولما صار على مقربة من القاهرة خرج السلطان للقائه والحفاوة به ، وأمر القواد والأمراء وكبار رجال الدولة ، بالمشى فى خدمته . وأنزله من القاهرة خير منزل ، وأكرمه غاية الإكرام . وأخبر السلطان برقوق أن تيمور بعد أن

استولى على بلاد الفرس والعراق ؛ أرسل قُصاده إلى السلطان لإنذاره بما يترتب على مخالفته . فبادر السلطان برقوق بإصدار الأمر إلى نائب السلطنة فى حلب والرحبة ، بأن لا يمكن هؤلاء القصاد من اجتياز الحدود ، وأن يقتلهم إذا لم يعودوا أدراجهم .

وعندما علم تيمور ماحل بقصاده ، دفع بجيوشه نحو الشام ، فاجتاحت الرها بالسيف ، وأمعنت فيها قتلا وسلبا ، وتدميراً ونهبا .

غير أن السلطان برقوق عند ما ترامى إليه هذا الخبر ،كان قد أعدّ عدّته فخرج فى جيوشه المظفرة إلى حلب . وكان بصحبته السلطان أحمد بن أويس . فأوقع بجيوش تيمور وقعة هائلة ، ومازال يكر عليهم حتى فرق شملهم ، ومزق جمعهم ، وهزمهم هزيمة شنعاء ، وردهم مفلولين عن البلاد ، ثم قصد إلى دمشق وأقام بها فترة جهز فيها سلطان العراق بالرجال والعتاد ، وأمده بالأموال ، كما أذن له باتخاذ شعار السلطنة المصرية . ومن الطبيعى أنه عقد معه محالفة دفاعية هجومية .

وسار السلطان أحمد بن أويس فى جحافله وإمداداته نحو العراق ، وهناك التحم بجيوش تيمور المغيرة وأجرى معها عدة وقائع كانت فى نهايتها الهزيمة الساحقة ، واسترد بغداد وما والاها من الأعمال . ولما استقرّ به المقام أظهر شعار السلطنة المصرية ، وخطب على منابر العراق باسم السلطان برقوق ، والدعاء له ،كما ضرب السكة باسمه . وبهذا صار العراق تحت السيادة المصرية الكريمة . وكان ذلك فى سنة ٧٩٦ هـ ١٣٩٤ م .

٣ — شعار مصر ومراسمها في بغداد

ومن البديهي أن السلطان أحمد بن أويس حينما كان بمصر شاهد الاحتفالات الشائقة التي أقامتها الدولة والأمة لذكرى مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ورأى العناية الفائقة التي كان يوجهها السلطان برقوق إلى الاحتشاد لها ، ووقف على مقادير النفقات التي كانت تبذل في سبيلها على الفقراء والمعوزين وأهل الستر ، من ذوى الخصاصة . وعرف ما كان يوزع من الصدقات ، ويقام من الولائم والمبرات ، مع الخلع والكُسَى على اختلاف صنوفها ، على القراء والوعاظ وأرباب الوظائف . كما لمس عن قرب معالم الزينات ، ومراسم التنسيقات ، التي كان يتبارى في الافتنان فيها أعيان الدولة ووجوه الأمة ، وكبار التجار . مما كان يأخذ بالألباب .

ولذلك لما استتب له الأمر في بلاده ، جرى على هذه السنة الحسنة ، وأحيا معالم هذه الذكرى ، بما وسعه من جهد . ولا شك أن الأمة العراقية قد شاركته في مشروعه المحبوب ، وبذلت فيه غاية المستطاع .

٤ — في عهد الناصر فرج بن برقوق :

تولى السلطان فرج بن برقوق عرش مصر بعد أبيه في سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٩ م غير أنه بدلا من أن يترسم سنن أبيه في العناية بمماليك الطباق ، ذهب في إهمال أمرهم كل مذهب . فكان بذلك سببا في نشر الجهل بينهم ، مع الزمن . حتى خرج الكثير منهم عن جادة الاستقامة ، وفسدت فيهم روح الجد والشهامة ، إلا من احتفظ منهم لنفسه بفضل العزة والكرامة . فكان عدم تثقيف تلك الكثرة منهم وسيلة إلى إحداث بعض الفتن ، ونشر القلاقل والاضطرابات .

أما عنايته بأمر الاحتفال بذكرى المولد النبوى ، فقد جرى فيه على شيء من سنن أبيه بقدر ما وسعته همته ، وإن كانت الأمة قد مضت فيه على جارى عادتها .

٣ — فى عهد الظاهر سيف الدين جقمق :

تولى السلطان چقمق عرش السلطنة المصرية فى سنة ٨٤٢ هـ ١٤٣٨ م فصرف همته إلى إحياء ذكرى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، وعنى به عناية بالغة حدود الروعة والجلال . فقد رسم بإقامة الزينات فى أحياء القاهرة ، وتبارى فى إبداعها رجال الدولة ، وأعيان الأمة ، ومياسير الناس . كما بذل فى سبيل البر بالفقراء والمعوزين ، وإقامة الولائم للصادرين والواردين - أموالا قيمة . وذلك بخلاف ما وزعه على القراء والوعاظ والمنشدين ، من الخلع والكساوى وصنوف الخيرات . حتى عمت صدقاته من لا عهد له بها من أهل الحياء والستر .

قال السخاوى : وفى هذا الشهر [ربيع الأول سنة ٨٤٥ هـ ١٤٤١ م فى فى عهد السلطان چقمق] كان المولد السلطانى (يريد المولد النبوى) على العادة .

ثم قال : ولا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده صلى الله عليه وسلم ، ويعملون الولائم لذلك ، ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات ، ويظهرون السرور ، ويزيدون فى المبرات ، ويعتنون بقراءة مولده الكريم ، ويظهر عليهم من بركاته فضل عميم ... ! قال ابن الجوزى : ومما جرب من خواصه : أمان فى ذلك العام ، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام ... ؟ ! وأكثرهم بذلك عناية أهل مصر والشام ، وللسلطان فى تلك الليلة مقام

يقوم فيه أعظم مقام ...

ثم مضى السخاوى يقول : ولو لم يكن فى ذلك إلا إرغام الشيطان ، وسرور أهل الإيمان من المسلمين [لكفى] وإذا كان أهل الصليب اتخذوا مولد نبيهم عيدا أكبر ، فأهل الإسلام أولى بالتكريم وأجدر . فرحم الله آمرءا اتخذ ليالى هذا الشهر المبارك وأيامه أعيادا ، لتكون أشد علة على من فى قلبه أدنى مرض وأعيى دا ...

وقال العلامة على مبارك باشا فى خططه : إن الاحتفال بالمولد النبوى الشريف زاد فى عهد السلطان الظاهر أبى سعيد چقمق على ما كان عليه فى عهد الظاهر برقوق . لا سيما فى النفقات والمبرات ، وتنويع الخيرات ، وتوزيع الصدقات .

قلت : وعلى هذه الرسوم جرى الأمر فى الاحتفال بذكرى المولد فى عهود من جاء بعده .

٤ — فى عهد الأشرف قايت باى :

أما السلطان الملك الأشرف قايت باى الذى تولى عرش السلطنة المصرية فى سنة ٨٧٢ هـ ١٤٦٨ م فقد كان فارس هـذا الميدان ، ومجلى هذه الحلبة على ملوك الزمان ، وحائز قصبات السبق دون غيره فى كل آن . إذ تفوق فى ذلك على من تقدمه من سلاطين المماليك عامة ، وأربى على من جاء بعده من ذوى السلطان فى مصر إلى يومنا هذا .

فقد صرف همته العالية فى إحياء ذكرى المولد النبوى الشريف بصورة



السلطان قايت باى

لم يسبقه إليها سابق ، ولم يلحقه فيها لاحق . إذ جدد رسوم هذه الذكرى على نسقها العالى ، وأفتنّ فى نشر أعلامها ، وبالغ فى تشييد معالمها . وأجرى فيها من المبرات ، وصنوف الخيرات ، وأنواع الصدقات ، ما امتاز به عمن تقدمه .

وفوق ذلك فقد زاد عليهم بأن رسم بصنع سرادق خاصا بالاحتفال بذكرى مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام . دفعه إليه شدة حبه وعظم تفانيه فى إجلاله صلى الله عليه وسلم . وعهد بصنعه إلى مهرة الصناع من المصريين ، فنهضوا فى إجادته إلى ما وراء الغاية ، وبذلوا فى إتقانه كل ما عرف عنهم من البراعة والإتقان ، وافتنوا فى تحسينه وأناقته وإحكامه أى افتنان . حتى جاء آية من آيات الصناعة المصرية ، ومعجزة من معجزات الفن المصرى . فكان فى صنعه والافتنان فيه ، مما لم يعهد له مثيل فى الدنيا .

وصف السرادق الأشرفى

كان صنع هذا السرادق العديم النظير ، من القماش السميك المنسوج من القطن المصرى — وعلى ما هو معروف إلى اليوم فى صناعة الخيام المحكمة النسج — غير أنه كان من القطن الخام الجيد الحلج ، وقد أخلص صناع المهرة الذين تولوه فى عملهم ، فلم تقف بهم همتهم عند حد إجادة نسجه ، وإحسان وضعه وصنعه ، بل افتنوا فى تزيين داخله بشرائح الأطلس الملون بالألوان الزاهية ، وتحليته بالرسوم البديعة ، والأشكال الرائعة ، والنقوش المشرقة ، والحلى الفائقة . وكل ذلك فى تناسب وتناسق ، يستوقف الأنظار ، ويأخذ بمجامع القلوب . ولا سيما إبداع أرباب الخطوط فى كتابة الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والكلمات المأثورة ، والعبارات المشهورة ،

وإجراء ذلك كله على القواعد الهندسية ، والرسوم الملوكية ، والرنوك السلطانية .

وكان هذا السرادق ، متى أقيم على أساطينه ، يشبه فى هيئته إيوانا فخما هائلا ، ترامت أرجاؤه ، وتباعدت أنحاؤه ؛ وتناوحت أطرافه ، وتدانت أكنافه ، وانبسطت كرته . لأنه كان مع هذا مستدير الشكل . يضم فى رحباته الواسعة : أربعة إيوانات كبيرة ، تعلوه من وسطه قبة شاهقة ، نهضت على أربع أساطين تمايزت عن سائر أعمدته بالفخامة والسمو . وقد انتثرت فى سماء القبة كواكب المشكاوات المصنوعة من البلور الفاخر ، ذى الألوان الزاهرة ، والأشكال الباهرة ، تنبعث منها ، فى ليالى الاحتفال : الأنوار المتلألئة ، بألوانها المتألقة ، وزخرفت بالتقاصيص العجيبة ، والفصوص الغريبة مما قد يعز عمل مثله الآن ، مهما بذل فيه من بدرات الأموال .

وناهيك به من سرادق ، كان عند ما يراد إقامته فى أيام المولد ، لا يستطيع أن يستقل بتشييده وترتيبه ، وتثبيت أساطينه ، وشد أطرافه ، وتركيب أستاره : أقل من خمسمائة رجل من أشداء الرجال . كان يؤتى بهم من بحارة الأسطول المصرى المختارين .

وكان ينصب فى الحوش السلطانى من قلعة الجبل . وعندئذ ترى أمامك مدينة جليلة . بها كل ما يسر النفوس ، ويشرح الصدور ، ويُشعر بالهيبة والجلال ، والعزة والجمال . وظهر لك غاية فى البهاء والروعة ، وآية فى الفخامة والبهجة .

قال ابن إياس : إن الأشرف قايت باى أنفق على هذه الخيمة [أى هذا

السرادق] أكثر من ستة وثلاثين ألف دينار .[1] وكان من أهم شعائر الدولة المصرية وأجلها .

فإذا كان اليوم الأول من ربيع الأول نصب هـذا السرادق بالحوش الكبير بالقلعة ، وفيه يقوم الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف طوال أيام المولد ولياليه الاثنى عشر ، فى كل سنة . وكان يضاء فى الليالى بآلاف من الشموع الكبيرة المعروفة بالموكبية ، وغيرها من ذوات الأحجام والأطوال المختلفة ، يضاف إلى ذلك مئات من الثريات وأحمال القناديل وعلائق المشكاوات ، حتى يعود الليل فيه نهارا .

وصف الاحتفال بليلة المولد :

جرت العادة فى كثير من السنين أن يحتفل بليالى المولد النبوى الشريف ، ابتداء من اليوم الأول من شهر ربيع الأول ، وأن يكون ذلك عاما فى سائر بلاد المملكة المصرية . فإذا كانت الليلة الختامية ، تضاعفت الجهود ، وعمت الزينات ، وقامت الولائم ، وانتشرت المآدب ، وسيرت المواكب ، وارتفعت فيها الأصوات بالأدعية والأناشيد . ويتطوع رجال الأسطول المصرى فى إقامة السرادق العظيم بحوش القلعة وإعداده إعدادا فخما ، فتفرش فيه البسط الثمينة ، والسجاجيد الفاخرة ، وتصف الأرائك الوثيرة ، وتنثر فى أنحائه المقاعد الجليلة ، عليها الطنافس المزركشة ، والنمارق المصفوفة ، والزرابى المبثوثة . وكل ذلك فى نظام محكم ، وترتيب غاية فى الإتقان .

(١) مما يعادل ما قيمته ٢٢ ألف جنيه مصرى تقريبا .

وبعد أن يبلغ شأوه من الأناقة والإحسان ، يحضر الخليفة العباسي المصري ، يحف به القضاة الأربعة ، ويتلوهم العلماء والفقهاء ورؤساء الأروقة ، ثم الأمراء والقواد وكبار رجال الجيش ، ثم عظماء الدولة ومديرو الإدارات في الحكومة ، ومتقدمو أرباب الوظائف . ثم أعيان الأمة ووجوه التجار ومياسير الناس . وقد امتطى أكثرهم الخيول المطهمة ، والبغال الموسومة ، والبراذين الفارهة ، والحُمُر المخدومة . ثم تتوالى المواكب في صدورها مشايخ الطرق الصوفية تحيط بهم حملة الأشاير والأعلام ، وتتقدمهم أصحاب الطبول والزمور . ويتلوهم الأتباع والمريدون ، رافعين أصواتهم بأدعيتهم الموروثة ، وأورادهم المنثورة ، وأناشيدهم المأثورة .

ثم يحضر بعد ذلك كبار الضيوف ، ووجوه الواردين من الأقطار الإسلامية . وكذلك السفراء والقصاد الوافدين من الممالك المجاورة . ومَن في حكمهم .

وتسير هذه الجموع الحاشدة ، في مواكبها الحافلة ، وأزيائها التقليدية ، والطبول تضرب ، والزمور تطرب ، حتى تصل في نظام وترتيب ، إلى ساحة الحوش السلطاني . فيستقبلهم على أبواب القلعة مندوبو الدولة ، ويتلقاهم عند أبواب السرادق رجال من حاشية السلطان بكل ترحيب وتكريم . وهناك يجلس كل فريق على حدة في المكان المعدّ له من أروقة السرادق ، كل على حسب طبقته .

فإذا استقر بهذه الجموع المقام ، أخذ القراء في ترتيل آي الذكر الحكيم بأصوات جميلة ، ونغمات مشجية ، ثم يقوم الوعاظ فيخطبون بين الملإ الحاشد

ويذكّرون الناس بما يجب لهم أو عليهم نحو الله ونحو أنفسهم ، ويحثونهم على ما أمر الله به من العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ويحذرونهم مانهى عنه من الفحشاء والمنكر والبغى . ويدعون إلى التعاطف والتراحم وإسداء المعروف ، والتعاون على البر والتقوى وأداء الأمانة ، ثم يخوّفون بما أعد الله لذوى الإثم والعدوان . ولايزالون يبدون ويعيدون حتى تخشع القلوب ، وتُستدرّ العيون .

وبعد الانتهاء من ذلك ومايتبعه ، تمد الأسمطة الزاخرة ، بالأطعمة الفاخرة ، فيتناول جميع من حضر ، من كبير وصغير ، وغنى وفقير ، ماحفلت به الموائد ، من الألوان والثرائد . فإذا ماانتهوا من الطعام ومايتبعه رفعت الموائد ، وطويت الأسمطة ، وعاد كل إنسان إلى مكانه ، فيأمر السلطان بتفرقة العطايا والهبات ، وتوزيع المنح والصلات . ثم تدار عليهم أنواع الأطباق والصوانى الحاملة لصنوف الحلوى ، ولذيذ الأشربة .

وفى خلال ذلك يكون السلطان جالساً برواقه المختار من السرادق وحوله حاشيته الخاصة ، ومعه رجال الدولة ، فيدعى كل فريق على حدته للمثول بين يديه ، فيسلم إليه ماخصه من الخلع الثمينة المزركشة ، والكساوى الجيدة المصنوعة من شقق الحرير المحكم النسج ، البديع الألوان . فيناولها طبقات العلماء ، والفقهاء ، والوعاظ ، والقراء ، والمنشدون ، وغيرهم من أرباب الوظائف ، ومشايخ الطرق الصوفية ، وأعيان الناس ، ووجوه الأمة ، كل على قدر منزلته . ثم توزع أموال الصدقات ، وماخصص منها فى الخيرات والمبرات ، فتعم الناس جميعاً ، وتخص أهل الستر منهم ، أولئكم الذين يحسبهم

الجاهل أغنياء من التعفف . ثم تنثر الدراهم على الجماهير من الفقراء والمعوزين بسعة وسخاء . وهنالك يرتفع الدعاء للسلطان بطول العمر ، ودوام العز والبقاء . وعلى الجملة يعم الخير والسرور فى هذه الليلة المباركة سائر الناس .

ومما تحسن الإشارة إليه فى هذا المقام أن السلطان الملك الأشرف قايت باى ، حج إلى بيت الله الحرام فى سنة ٨٨٤ هـ ١٤٧٩ م فأدى فريضته وأمر بإنشاء الآثار الصالحة فى الأماكن المقدسة ، يرتفق بها الحجاج والمقيمون ، وينتفع بها طلبة العلم والمجاورون ، ووقف عليها الأعيان والعقارات بمصر مما يدر عليها الأموال الجسيمة التى تضمن لها العمار والبقاء ، ما أحسن القيام عليها . كما وزع فى أهالى الحرمين الشريفين أموالا جليلة ، وخيرات جزيلة ، ومبرَّ شاملة . ومما يلاحظ أن قايت باى هو السلطان الوحيد — من بين سلاطين الدولة الجركسية — الذى وفق إلى أداء فريضة الحج . أحسن الله مثوبته .

وفود الامير جم العثمانى على مصر :

كانت العلاقات الدولية بين مصر والدولة العثمانية ، قائمة على قاعدة حسن الجوار ، ومفعمة بالكثير من أسباب التفاهم وتبادل مظاهر المودة . وإن كانت بعض النزوات والمطامع تثور أحياناً فى بعض الرؤس العثمانية ، فتحدث ماقد يكدر هذا الصفاء . ولكن بالرغم من ذلك ، فقد كان كثير من كبراء الترك العثمانيين وأعيانهم وتجارهم ، يفدون على مصر ، ولا تكاد تنقطع السبل منهم . وكذلك كان الكثير من طبقات المصريين يرحلون إلى البلاد العثمانية ، لتبادل المصالح والمتاجر والمنافع بين السكان ، دون قيد أو شرط .

وعلى هذه القواعد وفد الأمير جم بن السلطان محمد الفاتح ، على مصر . غير أن مجيئه إليها كان للالتجاء إلى كنف السلطان قايت باى .

وكان السبب فى ذلك أن السلطان محمد الفاتح لما انتقل إلى رحمة الله تعالى فى سنة ٨٨٦ هـ ١٤٨١ م كان قد خلف ولدين ، هما : بايزيد ، وجم .

وجم هذا يسميه ابن إياس (الججمة) مجاراة للعامة . والصحيح أن اسمه (چم) بالجيم الفارسية المثلثة . ومعناه بهذه اللغة (القمر) .

وكان السلطان الفاتح قبل وفاته قد جعل (بايزيد) حاكما فى أماسيا . وعين (چم) حاكما على قرمان . فلما توفى لم يلبث أن قام بين الأخوين نزاع وتخاصمٌ على الملك . وجرت بينهما خطوب وكروب ومعارك آلت إلى انهزام (چم) أمام جيش (بايزيد) هنالك فكر (چم) فى أمره فلم ير له ملجأ إلا مصر ، ولا أمناً إلا فى جوار السلطان قايت باى [1] ...

---

(١) وخلاصة أمر (جم) هذا أنه لما توفى السلطان محمد الفاتح كان الوزير محمد باشا القرمانى يميل إلى جم لما يأنسه فيه من المزايا العالية ، فبادر بالإرسال إليه ليعجل بالحضور إلى القسطنطينية . غير أن الانكشارية حينما علموا ذلك ثاروا بالوزير وقتلوه ، ثم بايعوا بايزيد الذى حضر فى جيش من أماسية وقاتل أخاه جم وانتصر عليه وهزمه فى صحراء بنى شهر . ففر جم ملتجئاً إلى مصر ... وفى خلال وجوده بمصر تجمع أنصاره وأعدّوا عدتهم لمناصرته ، ودعوه إليهم . فعاد إلى القسطنطينية وأعد جيشا تلاقى به مع أخيه ولكن الدائرة كانت عليه . ففر ملتجئاً إلى رودس وهناك تلقاه فرسان ماريوحنا بالترحاب . ولما علم بايزيد بذلك أرسل إليهم بأنهم إذا تعهدوا بأن لا يفر منهم أعطاهم فى كل سنة ٤٥٠٠٠ دوكا . فقبلوا ذلك وأرسلوا جم مخفورا إلى فرنسا حيث اعتقل فى برج (بروجانوف) وبعد فترة نقلوه إلى روما . . ثم إن البابا (اسكندر بورجيا) بعث إلى السلطان بايزيد يساومه فى أمر جم ، وأنه يتعهد بقتله إن دفع إليه ٣٠٠٠٠٠ دوكا ، أو باعتقاله إن دفع إليه ٤٠٠٠٠ دوكا سنويا . وفى أثناء هذه المخابرات كان=

وفد جم على مصر فتلقاه السلطان بما يليق بمثله من الحفاوة والتكريم وأنزله وحاشيته على الرحب والسعة . وظل بمصر سنة كاملة ، ضيفاً كريماً على السلطان ، محفوفا بالعطف من المصريين ، ثم اعتزم العودة إلى بلاده ، فزوده السلطان بما هو فى حاجة إليه من المال والخيل والسلاح والمؤن والذخائر . ثم ودعه خير وداع .

واجم هذا أخبار وحوادث ، وأنباء ووقائع ، وحكايات وأقاصيص ، عنى بها بعض الكتاب الأوربيين وأرسلوا عليها أشعة كثيفة من تخيلاتهم ، ومبالغات سخيفة من تمحلاتهم ، واختلقوا حوله روايات وأوهاما نظموها فيما كتبوه عنه . لأن المقادير ألقت به فى بعض بلادهم .

ومما لاريب فيه أن هذا الأمير جم قد حضر - وهو بمصر - الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وشاهد بعيني رأسه ، العناية البالغة التى كان يوجهها السلطان قايت باى نحو إبلاغه الغاية التى لاترام . كما رأى أثر الهمة المشكورة التى يبذلها المصريون فى إقامة الزينات فى كل مكان من أحياء القاهرة ، ومايتبرعون به من المآكل والمشارب والكُسى للفقراء وأهل الحاجة . فكان لهذا أثر عميق فى نفسه ملأ قلبه روعة ، وفؤاده جلالا ومهابة

= كارلوس الثامن ملك فرنسا يزحف على بلاد إيطاليا . فتمكن جم من الفرار من معتقل البابا . غير أن ملوك النصرانية رأوا أن يتخذوه ذريعة لإثارة الفتنة فى المملكة العثمانية . فاتفق فرسان رودس وملوك إيكوسية والمجر وبولونيا وفرنسا والمرديث من الأرناؤوط وغيرهم على أن يعدوا لجم جيوشا يزحف بها على أخيه بايزيد وينتزع منه عرش السلطنة . فلما بلغ بايزيد هذه المؤامرة أرسل إلى البابا مبلغ الـ ٣٠٠٠٠٠ دوكا الذى كان اقترحه فى نظير قتله ، فاحتال البابا حتى دس السم لجم فمات فى نابولى فى ٢٤ فبراير سنة ١٤٩٥

وكان مما وقع منه موقع الدهش والغرابة ، تلك الهبات الكريمة التي كان يوزعها السلطان على طبقات الناس ، مما لاعهد له بمثله فى ملك آل عثمان .

* * *

وجرى الحال بالاحتفال بالمولد على هذه الرسوم الفائقة ، وبهذه الحفاوة البالغة ، طوال عهد السلطان قايت باى الذى توفى سنة ٩٠١ هـ ١٤٦٠ م .

وفى عهد ولده الناصر محمد جرى الأمر على ذلك مع شيء من القصور والإهمال ، لأن أمراء الدولة لم ترقهم بعض تصرفاته فقاموا عليه بثورة وقابلهم عليها بالصمود ، فكان ذلك شغلهم الشاغل الذى صرفوا إليه جهودهم وما زالت المعارك ناشبة بين الطرفين مدة حكمه إلى أن قتل بأرض الطالبية التي بجوار الأهرام من أعمال الجيزة فى ١٦ من ربيع الأول سنة ٩٠٤ هـ ١٤٩٨ م ولهذا تعطل الاحتفال بالمولد ، بالصورة الرسمية ، ولم يستطع أحد من رجال الدولة القيام ، فى هذه الفترة ، بشيء من رسومه المقررة .

٥ — فى عهد الظاهر قانصوه الأشرفى :

وفى ١٧ من ربيع الأول سنة ٩٠٤ هـ ١٤٩٨ م تولى السلطنة المصرية ، السلطان الظاهر أبو سعيد قانصوه الأشرفى ، بعد أن بايعه الأمراء وأهل الرأى . ولما تم له الأمر ، واستتب له الملك ، فكر فيما حدث من التقصير فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، مدة الثورة ، ورأى وجوب قيام معالمه على ما جرت به التقاليد ، ولكن آثار الفتنة والاضطراب التى تولى على أثرها ، كانت لا تزال ماثلة للعيان ، وفى حاجة ماسة إلى كثير من الانتباه ، والأخذ بالحزم ، لإعادة الأمن والسكينة إلى النفوس ، والهدوء

والطمأنينة إلى البلاد . فلم يتمكن من ذلك إلا بعد خطوب .

ولما صفا له الجو ، وعم النظام والأمن ، أخذ فى إنفاذ فكرة الاحتفال بالمولد ، واستدراك ما فات من تعذرها . غير أنه لم يستطع التفرغ له وإجرائه على سننه الصحيحة ، إلا فى جمادى الأولى من تلك السنة . فأجراه على قواعده بكل ما استطاع من جهد ، وكانت هذه أول مرة ، بل لعلها المرة الوحيدة فى التاريخ ، التى احتفل فيها بالمولد النبوى فى غير ميعاده . ولذلك عدّ هذا من غرائب النوادر ، وفلتات الأحداث .

٦ — فى عهد الأشرف قانصوه الغورى :

وفى سنة ٩٠٦ هـ ١٥٠١ م تولى عرش السلطنة المصرية السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى . صاحب القبة التى أكتب الآن تحتها هذا التاريخ .

ولما صفا له الوقت ، واطمأن إلى تصريف شؤون الملك ، كان فيما فكر فيه إعادة الرسوم التقليدية ، فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، إلى سابق عهدها ، فى زمن الأشرف قايت باى ، مع التبسط فى النفقات ، والتوسع فى المنح والمبرات .

وصف الاحتفال بالمولد :

كان السلطان الغورى طوال عهده ، عند حلول شهر ربيع الأول من كل سنة ، يأمر بإقامة السرادق الأشرفى العظيم ، بالحوش السلطانى الكبير من قلعة الجبل ، وإعداده بكل ما من شأنه أن يجعل الاحتفال بالمولد شائقا فخما كريما .



السلطان الغورى

فيقام ويهيأ بما جرت به الرسوم من الفخامة والأبهة والجلال .

فإذا كان اليوم الحادى عشر من شهر ربيع الأول ، اتُّخذت فى مداخل أبواب السرادق أحواض من الجلد ، تملأ بالماء الصافى المحلى بالسكر والليمون . ثم تعلق حولها الأكواب الفاخرة ، المصنوعة من الشَّبَهِ (النحاس الأصفر) والنحاس الأحمر ، والمزينة بالنقوش الجميلة ، والمنزَّلة فيها الكلمات القرآنية ، والعبارات النبوية ، بالفضة . وقد اتصلت هذه الأكواب بشوكات ارتبطت بسلاسل من النحاس اللامع البراق ، وعلقت بعُراها التى تمسك بها ، ويصطف حول هذه الأحواض طائفة من غلمان الشرابخانة ، لمناولة الناس من هذا الشراب السائغ ، لا فرق فى ذلك بين كبير وصغير . ثم تزين جنبات السرادق والأحواض بالأوانى الخزفية من النوع الصينى البديع الأشكال ، الجميل الرسوم والألوان . وتصف الكاسات النحاسية المحلاة بالنقوش الفضية فى أوضاع أنيقة تسترعى الأنظار . وبهذه الكاسات ، وهاتيك الأكواب ، يتناول الصادر والوارد من الناس ، هذا الشراب السائغ اللذيذ . ويبالغ الغلمان الشرابدارية وعرفاؤُهم فى إرضاء كل طالب ، وإرواء كل شارب بعد أن يكون الغلمان قد قاموا بتزيين الشرابخانة حتى تصير بهجة للناظرين .

وعند حلول الوقت المعين للاحتفال ـ وكان ذلك بعد صلاة العصر ـ يصعد الخليفة العباسى المصرى إلى القلعة فى ركبه العظيم ، يحف به القضاة الأربعة ومن يليهم من رجال الشرع الشريف والشهود المعدلون . ثم يتلوه الأتابكى سودون العجمى فى كوكبة من الأمراء والقواد ومن يليهم من مقدمى الجيش . ثم كبار العلماء والفقهاء والوعاظ والقراء ، ومن يليهم من المقدمين

ثم أعيان الأمة ووجوه الناس ، ثم المباشرون وأرباب الوظائف وأصحاب الرتب . ثم مشايخ الطرق الصوفية وأتباعهم ومريدوهم ، فى مواكبهم المرتجة بطبولهم وزمورهم ومنشديهم ثم طبقات الجند وصفوف العساكر ورجال الحفظ . وجميعهم يرفلون فى الثياب الفاخرة حسب درجاتهم ومقدرتهم . أوكما يقولون : فى الشاش والقماش . وعلى أحسن زى ، وأجمل حلية .

وبعد أن يكتمل اجتماع هذه المواكب الحاشدة بحوش القلعة ، يدخلون السرادق الأشرفى ، وينتشرون فى أرجائه ، ويأخذ كل فريق مكانه المعد له من أروقته المترامية الأطراف . ثم يبدأ القراء فى تلاوة آى الذكر الحكيم بأصواتهم الجميلة ، وأنغامهم المشجية ، وترتيلهم المؤثر ، يليهم خطباء الوعظ والإرشاد ، فيلقون على الناس الأقوال المأثورة فى الأوامر والنواهى الدينية ، ثم يقوم أرباب الطرق الصوفيـة بتلاوة أورادهم وأدعيتهم . وكل فريق يؤدى خدمته المخصص بها .

فإذا انتهوا جميعا من شؤونهم ، نصبت الموائد عليها الأطعمة الحافلة ، ومدت الأسمطة بمختلف الألوان الشهية ، وصنوف المآكل المتنوعة الجيدة الهنية ، ودارت عليهم الطاسات الفاخرة بالأشربة اللذيذة المرية ، فإذا قضوا من هذه المآدب الجليلة أربهم ، وتناولوا منها مالذ وطاب لهم . عاد كل إنسان إلى مكانه ، وتجمع كل فريق فى إيوانه . وهنالك تنهال عليهم الإنعامات السلطانية ، وتشملهم المنح والهبات الملوكية ، وتوزع فيهم الخلع والشقق الحريرية ، ويختص منهم بذلك من جرى الرسم باختصاصه .

قال ابن إياس : وكان ينفق فى ذلك اليوم من الإنعامات ، وجوارى

الصدقات، ما يقدر بما يفوق الأربعة آلاف دينار .

وفود الامير كركود العثماني على مصر

كان للسلطان بايزيد بن محمد الفاتح ، أحد سلاطين آل العثمان ، في أواخر أيامه ثلاثة من الأولاد . هم : كركود ، وأحمد ، وسليم . وكان لكل واحد من هؤلاء الإخوة اتجاه خاص في الحياة .

أما كركود ، فكان ميالا بفطرته إلى الأخذ من العلوم والآداب ، بأطراف حسنة ، وإلى التثقف بأنواع من الفنون اللطيفة . ولذلك كان من أحب الأشياء إلى نفسه مجالسة العلماء ، ومسامرة الأدباء ، ومحاضرة أصحاب الفنون . وكان من هذه الناحية غير مرضى عنه من رجال الجيش . والمعروف من طبيعة العسكريين بصفة عامة ، النفور من العلم ، مع التظاهر بمجاملة العلماء والخضوع لهم - لا سيما أن كركود لم يكن على مشربهم من الميل المطلق إلى الحرب وشؤونها ، وخوض معامعها ، ومباشرة القتال في ميادينها .

وأما أحمد ، فقد عرف بين رجال الدولة بلطف المعاشرة ، وكرم الأخلاق ، وحسن الحديث . ولذلك كان قريبا من نفوس الأمراء ، محببا إلى عظماء السلطنة وذوى الرأى فيها . وكان الصدر الأعظم على باشا يبدى له كثيرا من مظاهر الإخلاص ودلائل العطف

وأما سليم ، فقد كان على ثقافة راقية ومعارف جليلة ، وكان كأخويه يعرف اللغات التركية والفارسية والعربية ، ويجيد الكتابة والشعر بها جميعها ، إلا أنه كان مع هذا محبا للأمر والنهى ، ميالا إلى الطعن والضرب ،

مشغوفا بمباشرة الحروب ، وإشعال نيران الوقائع . معجبا برؤية الدماء . ولهذا كان أثيرا لدى الانكشارية ، قريبا من قلوب رجال الجندية ...

فلما رأى والدهم السلطان بايزيد ما هم عليه من التباين فى الأخلاق والمشارب ، والتباعد فى الاتجاهات والمآرب ، خشى وقوع التنافر بينهم بعد وفاته ، وما قد يترتب على ذلك من تمزيق الشمل ، وتفريق الجمع ، ووقوع الفتنة التى قد تؤثر فى كيان الدولة ، وتضر مصالح السلطنة ـ فرسم بأن يتولى كل واحد منهم شؤون الحكم فى إحدى الولايات ، على أن تكون كل من هذه الولايات متباعدة عن أختها . فعين كركود حاكما على إحدى الولايات النائية . وعين أحمد حاكما على ولاية أماسيا . وعين سليما حاكما على ولاية طرابزون . كما ولى سليمان بن سليم على بعض بلاد القرم . وقد رضى كل من كركود وأحمد بما اختاره لهما والدهما .

أما سليم فقد أبى الإذعان لما قرره والده ، ولم يرضه هذا التقسيم ، وثارت فى نفسه نزوة التمرد والعصيان ، فترك ولايته وذهب مغاضباً إلى ولده سليمان بالقرم ، وأرسل إلى والده يطلب إسناد الحكم إليه فى إحدى الولايات الأوربية . غير أن السلطان بايزيد أمره بالبقاء حيث عينه . فلم يرض سليم بذلك بل أعلن التمرد على والده ، وجاهره بالعصيان . ثم لم يلبث أن جمع جيشاً من تتار بلاد الروملى . وبعد أن استكمل عدته ، ونظم ألويته قاد جيشه وسار لمحاربة والده إن لم يذعن لمشيئته ... فاضطُر السلطان إلى تجريد إحدى الفرق العسكرية إليه إرهاباً له . غير أن سليما لم يرهبه ذلك ، بل أصر على إنفاذ رغبته ، ... فعاودت السلطان بواعث الإشفاق من

اتساع الفتنة ، وإسالة الدماء ، وإزهاق الأرواح ، فيما قد يضر الدولة ولا ينفعها ... فبعث إليه مكرها ، بمرسوم يتولى بموجبه إحدى الولايات بالشاطئ الأوربي ... عندئذ تحرك شيطان الطمع فى نفس سليم ، ولم يكفه ماتم له من الظفر ، بل دفعه شيطان الغرور إلى أن يقوم على رأس جيش استولى به على «أدرنة» معلناً نفسه سلطاناً عليها ... !

فلما بلغ كُركود ماوصل إليه أخوه سليم من النجاح فى مقاومته إرادة والده ، أعدّ عدته للسير على منهاج أخيه ، وقاد جيشاً استولى به على «صاروخان» وصار بذلك قريباً من عاصمة الدولة ، استعداداً للطوارئ .

ولا شك أن هذه الأحداث قد وقعت من السلطان بايزيد موقع الصاعقة وحلت من نفسه محل الاستياء الفائر . لحفظاً لكيان الدولة ، وعملا على صيانة سمعة السلطنة ، لم يرَ بُدّاً من تجريد الجيوش وإرسالها إلى سليم ، وإلى كُركود ... فالتقت هذه الجيوش بعساكرهما ، كل فى مكانه ، وهزمتهما ، وفرقت شملهما ... أما سليم ففر إلى بلاد القرم . وأما كركود فألقى بيده مستسلماً ...

ولما كان أمراء الإنكشارية وزعماؤهم مؤيدين لحركة سليم ، ومعجبين بصفاته الحربية ، اجتمع قادتهم وتشاوروا فيما بينهم ، فى الذهاب إلى السلطان بايزيد لالتماس العفو عن سليم ، وشموله بالعطف عليه ، وإعادته إلى ولايته الأوربية . فقدّر السلطان أن من المصلحة إجابتهم إلى ملتمسهم ... ولكن عندما ذهب سليم إلى ولايته ، استقبله الانكشارية بمظاهرة صاخبة ، وساروا به فى موكب ضخم إلى القسطنطينية ، فإلى سراى السلطان بايزيد ، حيث طلبوا

إليه التنازل عن العرش لولده سليم .. اوفى هذه الحالة رأى بايزيد أن الفتنة قد شب قرنها ، وأنها توشك أن تزلزل من قواعد الملك . فحرص على أن تمر عاصفتها بسلام ، وأعلن تنازله عن عرش السلطنة ، حسما لمادة الفساد ، وحقنا لما قد يسيل من الدماء ... وكان ذلك فى صفر سنة ٩١٨ هـ ١٥١٢ م

أما كُركود ؛ فبعد انهزام جيشه ، واستسلامه لأبيه ، صار يتنقل بحاشيته من بلد إلى بلد ، ومن ولاية إلى أخرى ، حتى رمت به المقادير إلى مصر . فحضر إليها ملتجئاً إلى السلطان الغورى .

وقد ذكر ابن إياس أن مجيئه كان فى سنة ٩١٥ هـ ١٥٠٩ م . وذكر محمد مختار باشا المصرى أن مجيئه كان فى سنة ٩١٨ هـ ١٥١٢ م . والظاهر أن رواية ابن إياس أولى بالاعتبار لأنها مبنية على المشاهدة . ولعل رواية مختار باشا بنيت على تقدير أنه لم يجئ إلى مصر إلا بعد تنازل أبيه عن العرش ...

وكان ابن إياس يسميه (قُرقُد) والصواب كما هو عند العارفين (كركود) .

ولما وفد كركود على مصر استقبله السلطان الغورى استقبالا كريما ، واحتفى به وبحاشيته احتفاء بالغا ، حتى إنه أجلسه فى قاعة العرش فوق مرتبة الأمير الكبير ، وفوق منزلة قاضى الشافعية ، الذى كان له التقدم على سائر القضاة . وعُنى بشأنه عناية فائقة . وأمر بأن تعد له ولحاشيته (قاعات البرابخية) فى بولاق . ورسم لناظر الخاص بأن يُحضر إليه ما يحتاجه من فرش وأوان وصينى وأدوات فاخرة ، تصلح لإقامة مثله وراحته مع حاشيته . ثم أرسل إليه عشرين فرسا لركوبه وأتباعه . منها أربع جنائب بالسروج الذهب ، والكنابيش الزركش ، والغواشى الحرير الأصفر . ثم أمر السلطان بإقامة

مأدبة حافلة فى (دار البرابخية) وأن يتوجه إليه الأتابكى قرقماس والأمراء المقدمون ، لتحيته والسلام عليه والترحيب به ، وكذلك القضاة الأربعة ، وأعيان المباشرين ، من أرباب الوظائف فكان كركود يقوم لكل من يتقدم إليه بالسلام ...

ثم رسم السلطان لنقيب الجيش بالاستعداد لحضوره والأمراء جميعا ، الموكب الذى سيحف بالأمير العثمانى عند طلوعه إلى الحوش السلطانى بالقلعة ، وأن يكونوا - كما يقول ابن إياس - بالشاش والقماش . يعنى بالملابس الرسمية ، حسب ترتيب درجاتهم .

كما رسم بأن تنصب السحابة الزركش على الدكة - وهى غير السرادق الأشرفى - وأن تفرش الدكة بالطنافس الفاخرة ، وتُغَشَّى بالأطلس الأصفر ، وأن تزين القلعة - عند باب الزردخانة - بالسناجق السلطانية ، وبآلات الحرب من سائر أنواع الأسلحة ، وأن تصف المكاحل الكبار على بابها . وأمر بأن المهمندار ورؤس النُّوب ، يتوجهوا إلى الأمير كركود ابن عثمان بالشاش والقماش ، يعنى بأزيائهم الرسمية . ويصحبوه فى طلوعه إلى القلعة ...

وعند ما ذهب إليه رسل السلطان فى موكبهم الباهر ، أركبوه من دار الضيافة ببولاق ، فرسا مطهما بسرج من الذهب وكنبوش فاخر . وقادوا أمامه الجنائب السلطانية وسار الموكب به إلى طريق المقس ، ثم على سوق مرجوش . ومن هناك شقوا به القاهرة نحو القلعة .

قال ابن إياس ، فكان له يوم مشهود ، وخرج الناس أفواجا لرؤيته ، واستمر فى ذلك الموكب الفخم حتى وصل إلى القلعة . فطلع وهو راكب

إلى باب الحوش السلطانى ، ثم نزل على مصطبة باب الدهيشة ، ففرشوا له هناك مقعدا من الحرير ؛ استراح عليه قليلا ، ثم دخل الحوش . فلما بلغ أوائل البساط ، نهض السلطان ونزل عن الدكة واستقبله واقفا ، وتعانقا ... وقيل إن ابن عثمان باس يد السلطان ووضعها على عينيه ... ثم تحدثا وقوفا ساعة . ثم خلع السلطان عليه . فلما خرج ركب من مصطبة شاد الزردخانة .

قال : وكانت صفة (قُرقد) بيك ابن عثمان ، رجلا شابا فى عشر الأربعين ، معتدل القامة ، عربى الوجه ، يميل إلى الصفرة ، نحيف الجسد ، أسود اللحية ، جميل الهيئة . وعلى رأسه عمامة تركمانى ، وهى صغيرة دون عمائم جماعته ـ وقيل إنه أكبر أولاد بايزيد ابن عثمان ـ ولما طلع إلى القلعة كان عليه (دُلامة) حرير أصفر ، وفوقها (جُندة) صوف أخضر مفتوحة ... فخلع عليه السلطان خلعة جرد ذهب شغل القاعة ، تلمع كالبرق ... فنزع ما عليه ، وألبس الخلعة السلطانية ... وبالغ السلطان فى إكرامه جدا ...

ثم قال : ورسم السلطان للأمراء بأن ينزلوا صحبة (قُرقد) بيك . فنزلوا معه إلى الصليبة ... فحلف عليهم بالرجوع إلى دورهم ... فصحبته رؤس النُوب بالشاش والقماش ، إلى بولاق ، على الجزيرة الوسطى ، حتى وصلوا به إلى (البرابخية) دار الضيافة . ثم انفض الموكب . وهناك مدت له مدة حافلة ...

قال : وفى أثناء ذلك بعث إليه السلطان بتقدمة حافلة ... قيل إنه بعث إليه بعشرين ألف دينار : عشرة ذهب ، وعشرة فضة . وعدة بقج فيها

قماش مفتخر ، ما بين سكندرى ، ومنزلاوى ، وغير ذلك .: وفيما بعد ، قدم ابن عثمان للسلطان هدية جيدة ، ما يحضرنى قدرها ... ثم قال :

وفى يوم الثلاثاء ، ثامن ربيع الأول سنة ٩١٥ ، دعا السلطان (قُرقد) بيك إلى الميدان ، ولعب السلطان والأمراء أمامه بالكرة . ثم مدت له أسمطة حافلة ببُحرة الميدان ؛ ولم يحضر ذلك سوى ابن عثمان وجماعته ... ولما أراد الانصراف ، خلع عليه السلطان كاملية بتماسيح على الأحمر ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش .. واستمر بعد ذلك يدعى إلى ميدان الكرة .

* * *

ومما لا يحتمل الشك أن الأمير كركود قد حضر الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف فى هذا الشهر ، وشاهد هو وحاشيته ما تجلى من عناية السلطان الغورى بالمولد ، ومن سعة كرمه فى النفقات ، وبالغ الإنعامات وشمول المنح والمبرات ، وإسداء الإحسان والخيرات ، مما كان له وقع عظيم الأثر فى نفوسهم . كما راعهم ما أبصروا من فخامة الاحتفال بهذه الذكرى المباركة ، وما يوزع فى أيامها ولياليها من صنوف الصدقات على الفقراء والمعوزين ، مما لا عهد لهم بمثله فى بلادهم .

وفى شوال من هذه السنة أجرى السلطان للأمير كُركود راتباً شهريا قدره ألفا دينار ، تصرف إليه مادام فى مصر ...

وظل هو وحاشيته موضع الحفاوة والتكريم ، إلى أوائل ربيع الثانى من سنة ٩١٦ ، حيث طلع إلى القلعة مستأذناً فى العودة إلى بلاده . فتحفَّى به السلطان وخلع عليه خلعة سنية ، منسوجة بخيوط من الذهب ، شغل القاعة . وسمح له بالإذن . فنزل من القلعة فى موكب هائل ، وفى صحبته

الأتابكي قرقماس والأمراء المقدمون ، وجماعة من الرؤساء أصحاب النُّوب ، وساروا معه إلى بولاق . وهناك قدموا إليه الحراقة العظيمة التي يمتطيها السلطان عند الاحتفال بكسر الخليج . كما جهزوا له عدة سفن عليها المؤن والعلوفات والأواني اللازمة للإقامات . ورسم السلطان للمهمندار والخازن وبعض غلمان الخاص ، بأن يظلوا في خدمته حتى يصل في النيل إلى رشيد ... ومن هناك سافر الأمير إلى بلاده .

٤ — احتفال السلطان الغوري بالمولد

في ربيع الأول سنة ٩١٧ هـ ١٥١١ م رسم السلطان الغوري بإقامة معالم الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف ، على الرسوم المعتادة ، والتقاليد المقررة . وكانت ليلته الختامية مساء الجمعة . وحضره الخليفة العباسي المصري ، والقضاة الأربعة ، والأمراء ، ورجال الدولة ، وأعيان الأمة ، ووجوه الناس ، ومشايخ الطرق الصوفية وأتباعهم ، بأعلامهم وطبولهم وزمورهم ، في مواكبهم وإشاراتهم المعهودة .

قال ابن إياس : وكان حافلا ... وهكذا كانت العادة في كل سنة .

وقال : فلما كانت سنة ٩٢١ هـ ١٥١٥ م أمر السلطان بعمل المولد ، ونصب الخيمة الكبيرة (السرادق الأشرفي) وكان بمصر إذ ذاك الشريف بركات أمير مكة . فحضر الاحتفال بالمولد مع القضاة الأربعة . وقيل إن السلطان أجلسه فوق مرتبة الأتابكي سودون العجمي . واجتمع سائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف ، ومشايخ العلم . وكان يوماً مشهوداً .

هذا ما ذكره ابن إياس ...

وأما الأستاذ محمد لبيب البتنونى بك فقد ذكر فى كتابه (الرحلة الحجازية) أن السلطان الغورى أرسل فى سنة ٩١٨ إلى الشريف بركات يدعوه إلى مصر ، فاعتذر ، وأرسل بالنيابة عنه [ولده] الشريف أبا نمى ، وعمره ثمان سنين . فأكرمه السلطان كل الإكرام ، ورده إلى أبيه معززاً ، وأشركه معه فى أمر مكة والأقطار الحجازية . . .

أقول : وقد يكون هذا صواباً إذا لم يكن الشريف بركات قد حضر فى السنة التى ذكرها ابن إياس ، أما أن يحضر الولد فى سنة ٩١٨ ويحضر أبوه فى سنة ٩٢١ فلا تعارض ، خصوصاً وابن إياس يقرر ماشاهده وعرفه ووقف عليه . على أن البتنونى بك لم يذكر حضوره فى هذه السنة

قال ابن إياس : وفى ربيع الأول سنة ٩٢٢ ه‍ ١٥١٦ م عمل السلطان المولد الشريف النبوى ، على العادة . ونصب الخيمة العظيمة التى صنعها الأشرف قايت باى ، بالحوش . ونصب الشرابدارية فى الحوش [أمام السرادق] أحواضاً من الجلد ممتلئة بالماء الحلو ، وعلقوا شوكات بالكيزان الفاخرة ، وزينوا بالأوانى الصينية والطاسات النحاس ، وتوسعوا فى زينة الشرابخانة أكثر من كل سنة . . .

ثم جلس السلطان فى الخيمة ، وحضر الأتابكى سودون العجمى ، وسائر الأمراء من المقدمين وغيرهم ، ثم حضر قراء البلد قاطبة ، والوعاظ ، على العادة . ثم مد السلطان السماط الحافل ، وتوسع فى أمره . وكان ذلك اليوم مشهودا ، وأبهج مما تقدمه من الموالد الماضية .

قلت : ومما يوجب الأسف أن السلطان الغورى انتقل فى هذه السنة

إلى جوار ربه ، ممزقا تحت أرجل الخيل العثمانية ، فى موقعة مرج دابق بحلب . فعليه من الله الرحمة والرضوان .

إغارة السلطان سليم العثمانى على مصر

١ - فى سنة ٩٢٢ هـ ١٥١٦ م ترامى إلى السلطان الغورى أن الأسطول البرتغالى أغار على بعض الثغور الهندية ، وأن الجنود البرتغالية احتلت بعض مدنها الساحلية ، وأعملوا فيها النهب والسلب والتخريب . كما وردت عليه رسل بعض ملوك الهند تستصرخه وتطلب إليه النجدة . فبادر بالأمر بإعداد أسطول شحنه بالرجال ، وأرسله بقيادة الأمير حسين أغا الكردى ، مزودا بالمال والمؤن والسلاح والعتاد ، إلى بلاد الهند ، لإقامة سوق الجهاد ، ورد الأعداء عن بلاد الإسلام . سافر الأسطول بمعداته الحربية لإنقاذ المسلمين من عادية أولئكم المغيرين ..

٢ - وبينما الأمة المصرية فى انتظار الأخبار السارة عن أسطولها المنقذ ، إذا بالأيام تتمخض عن كارثة من أشد كوارث الدهر فى التاريخ المصرى ، وجائحة من أفدح جوائح الزمان ! وأى كارثة أحد من فقدان الأمة المصرية استقلالها الذى تمتعت به أدهارا متطاولة ؟ وأى جائحة أشد من ضياع السلطنة المصرية ، وإحالتها ولاية تابعة ، بعد أن كانت آمرة ناهية فى كثير من الممالك والولايات والأقاليم ... !

فقد تواترت الأنباء على السلطان الغورى بأن الجيوش العثمانية ، وعلى رأسها السلطان سليم بن بايزيد ، قد اجتازت حدود السلطنة المصرية ،

مجتاحة أملاكها الواسعة بآسيا الصغرى ، وولاياتها بالشرق العربى ... !

فما أن بلغت هذه الأخبار المكدرة مسامع السلطان حتى أصدر أوامره إلى أمراء الجيوش المصرية بالاستعداد والتأهب لملاقات الجيوش العثمانية ، وردها عن البلاد . كما أصدر أوامره إلى ولاة الثغور وحراس الحدود بإعداد القوة الكافية لوقف زحفها ، ودفع عاديتها ، بقدر المستطاع حتى تصل إليها الجيوش .

على أن علاقة الدولة المصرية ، بالدولة العثمانية ، كانت ـ كما أشرت إليه من قبل ـ قائمة منذ أمد بعيد ، على المسالمة ، والموادعة ، وحسن الجوار ، وتبادل العواطف . ولم يحدث بينهما ما يكدر الصفو ، أو يدعو إلى الجفاء أو الحرب .

اللهم إلا تلك المرة التى حدث فيها أن احتكت المرابطة العثمانية بالمرابطة المصرية ، فى بعض الثغور من آسيا الصغرى ، وقام الجنود المرابطون من المصريين هناك ، برد عدوان المعتدين من العثمانيين . مما دعا إلى تحرك السلطان بايزيد لذلك وإرساله جيشا لإخلاء أذنه (أطنة) وطرسوس ، من الجنود المصرية التى أحتلتهما ، وتدارك السلطان قايتباى ، الأمر ، ورأى ـ حسما للشر الذى كان يوشك أن لا يعرف مداه ، وحرصا منه على دماء المسلمين من أن تراق فى غير سبيل الله ـ التخلى عن هذين الثغرين ، والسلامة مما يجر الدفاع عنهما من سوء العواقب .

٣ ـ ولعل الأسباب التى حملت السلطان سليم على غزو مصر والاستيلاء عليها ، تتلخص ـ على ما أرى ـ فيما يأتى :

كان السلطان سليم جامح المطامع ، كثير الأوام إلى سفك الدماء ، لا يعرف فى ذلك عهدا ، ولا يرعى حرمة ، ولا يحفظ جوارا . وقد دفعته طبيعته الملتهبة إلى غزو مملكة الفرس ، والانتقام من الشاه إسماعيل الصفوى ، لأنه آوى إليه المشردين فى أبناء أخويه كركود وأحمد وأولادهم ، والبقايا من أعقابهم ، بعد أن قتلهما وأباد ماوصلت إليه يده من ذراريهما ... ولما رآه فوق ذلك من اهتمام الشاه بالتوسع فى رقعة الدولة الفارسية ، وامتدادها متجهة نحو الرقى والنمو . لا سيما بعد أن استولى الشاه على ولاية « شروان » واتخاذه « تبريز » قاعدة للملكه ، كما وضع يده على العراق العربى ، وبلاد خراسان ، وديار بكر ، واحتلت جنوده بغداد ، وضم إلى أملاكه مملكة فارس ، و « أذربيجان » وصار سلطانه ممتدا من الخليج الفارسى حتى بحر الخزر ، ومن منابع الفرات حتى نهر « أموداريا » جيحون ...

وكان السلطان الغورى قد راسل الشاه إسماعيل محذرا إياه من طغيان السلطان سليم ، وأنه غير مأمون الجانب . وعرض عليه عقد تحالف بين السلطنة المصرية والمملكة الفارسية ، يقوم على قواعد الدفاع المشترك . وقد تم عقد هذا التحالف . وكان من أثره أن بادر السلطان سليم بمهاجمة مملكة الشاه ، كما أضمر الشر لسلطنة الغورى ...

٤ ـ وقبل أن يهاجم السلطان سليم بلاد الشاه ، لجأ إلى فكرة ، بل أمر بارتكاب جريمة تعد من أفظع الجرائم الإنسانية . وذلك أنه أصدر مرسوما سريا بحصر عدد الشيعة المنتشرين فى أنحاء الولايات العثمانية ـ لاسيما أولئك الذين كانوا يسكنون البلاد المتاخمة لأرض الفرس ـ فلما

نفذ أمر الإحصاء، أمر بقتلهم جميعاً ... ! وقد كانوا ـ فيما يروى ـ قرابة أربعين ألفا ... فيا لهول ما صنع ... !

ولا شك في أن هذا الفعل الشنيع لا يصدر إلا عن طبيعة تجاوزت حدود الوحشية، وبرئت منها الفطرة الإنسانية، ولا يمر التفكير في مثلها بخاطر فيه أثارة من الإيمان بالله تعالى، سواء انتحل الإسلام، أم انتحل أي دين آخر من الأديان السماوية. ولا يصدر إلا عن مسخ أعرقت أصوله في أجذام البربرية ...

٥ ـ وما مرت هذه الحادثة الشنعاء بخاطري، إلا ذكرت بها حادثة أخرى تشبهها من كل الوجوه.

وذلك أنه في أغسطس سنة ١٥٧٢ م ٩٨٠ هـ حرضت الأميرة كترين دي مدسيس ولدها شارل التاسع ملك فرنسا على البروتستانت، وأغرته بالعمل على إبادتهم من المملكة. فأذعن لإرادتها، وحرض عليهم الكاثوليك فذبحوهم عن آخرهم ... ويروى أن عددهم كان نحواً من ستين ألفا. وفيهم كثير من النبلاء والعلماء والقواد والأدباء والشعراء ...

ومن البديهي أن من يقدم على ارتكاب أمثال هذه الفظائع لا يصح أن يحسب في عداد بني الإنسان، أو يدعي أنه ينسب إلى دين من الأديان ...

وفي التواريخ القديمة والحديثة وقائع من هذا النوع، تقشعر لذكرها الأبدان أضربنا عن الإشارة إليها؛ لاسيما ما كان منها خاصا بدول الاستعمار وما تتخذه من الوسائل الجامحة في استعباد الشعوب المغلوبة على أمرها في هذا العصر، مما يسود له جبين الإنسانية. ويلوث صحائف الحضارة

والمدنية التى تدعيها الدول الأوربية .[١]

٧ — وقد ذكر بعض المؤرخين أن الشاه إسماعيل الصفوى قابل فعلة السلطان سليم بالشيعة فى بلاده ، بمثلها أو بما يقرب منها بأهل السنة فى أرضه . إذ أمر بقتل طائفة من شيوخ السنة وإحراق كتبهم ، وهدم قبور موتاهم ... وكل هذا طغيان وخروج عن جوادِّ الحق والعدل والرحمة ... والبادئ أظلم ...

٨ — بهذه الفظائع وأمثالها بدأ السلطان سليم فى اجتياح بلاد الفرس ، فقاد جيوشه إليها وهاجمها وأخذ يعمل فيها يد التقتيل والتدمير والتخريب ، ما شاءت له طبيعته الجامحة . وبعد أن أبلى الشاه إسماعيل فى الدفاع عن بلاده البلاء العظيم ، فر منهزما ، واستولى سليم على أمواله وذخائره وخزائنه ونفائسه ، كما وقعت فى يده إحدى زوجاته ولم يقبل ردها إليه ، بل زوجها من أحد كتابه . وقبض على كثير من مهرة الصناع وأرسلهم إلى بلاده ، ليحرم الدولة الفارسية من عوامل الحضارة ، ووسائل التقدم والارتقاء .

وكان الشاه عندماهاجمت الجيوش العثمانية بلاده ، أمر بإحراق مخازن المؤن والأقوات ، وأنبار الحبوب . ولذلك لم يلبث الجيش العثمانى أن وقع فى مجاعة اضطر معها السلطان سليم إلى الارتداد ، وإخلاء البلاد ، والعودة إلى ملكه ، للاستراحة والاستعداد لمعاودة الكرة فى الربيع ...

وفى خلال ذلك ترامى إليه أن المؤن والذخيرة والأقوات التى كان أعدها للحاق بجيشه ، أثناء مهاجمته البلاد الفارسية ، قد مُنعت عن السير فى

---

(١) وهنا أذكر قول الدكتور غوستاف لوبون : إن الحضارة الأوربية ، وإن كانت أقل قسوة من الغارات الحربية ، إلا أنها أشد فتكا وأمعن تدميرا . وأقول : لاسيما فى النفوس والأخلاق ، واستنزاف الأرزاق ، وهذا أخطر ما تصاب به الإنسانية .

طريقها ، وأن ذلك المنع كان بتدبير من السلطان الغورى . فقامت قيامته وأمر بإعداد الجيوش لمهاجمة مصر والانتقام من الغورى . لاسيما وقد علم أن فيلقا من الجيش المصرى ذهب فى أسطول لنجدة بعض ملوك الهند الذين استغاثوا بالسلطان لرد غارة البرتغاليين عن ثغورهم وهذه فرصة ...!

ولكى يمهد السلطان سليم لهذه الغزوة، أرسل بعض رجاله إلى ولاة الدولة المصرية لاستطلاع الأخبار ، ومحاولة إرشاء من يقبل منهم الرشا ، مع الوعد والوعيد ، والترغيب والتهديد . ولسوء الحظ كان هؤلاء الولاة وهم : خير بك الأباظىّ والى حلب ، وجان بردى الغزالى والى دمشق ، وسيباى والى حمص ، كانوا يحملون شيئاً من الضغينة على السلطان الغورى . فوجد رسل السلطان سليم فيهم استعداداً لما يراد منهم . فقدموا الأموال والهدايا والتحف المرسلة إليهم . وتم الاتفاق على كل شىء، خلف الأستار . ثم عاد الرسل إلى بلادهم وأبلغوا السلطان سليم ماتم فى أمر رسالتهم ـ فأخذ فى الاستعداد والتأهب ... ثم ساق جيوشه نحو مصر .

ولما اقتربت الجيوش العثمانية من الثغور المصرية ، وعلم السلطان الغورى بشأنها أرسل فى الحال إلى أمراء الولايات، التى سيجتازها الجيش المغير، بالوقوف فى وجهه ومدافعته بما لديهم من الفيالق المصرية ، ومنع تقدمه إلى أن يحضر هو بجيوشه المظفرة . ثم نهض فى جيش حسن العدة، منضما إليه الكثير من الجنود المطوعة والعربان وغيرهم من شباب البلاد . وهناك فى مرج دابق من صحراء حلب ، التقى الجيشان وبدأت المعركة، وكان التفوق فيها أولا للجيش المصرى . وعند الالتحام واستعار الوطيس، تحركت الخطة المرسومة فى نفس خير بك ورفيقيه، وظهرت الخيانة العظمى منهم

إذ انهزموا بمن معهم من حُماة الثغور، وانضموا إلى الجيوش العثمانية . فلما رأى السلطان الغورى هذه الفعلة الشنعاء، أصيب فى الحال بالفالج، وسقط عن ظهر جواده . وكان إذ ذاك قد أربى على الثمانين من سنى حياته . وتطاردت الخيل فمزقته تحت سنابكها ... وكان ذلك فى ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ ١٥١٦ م .

وخيانة خير بك والغزالى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الجيش المصرى ... أما سيباى فقد عاودته الحمية ، وثارت به الشهامة والغيرة ، فندم على ما كان وارتد فقاتل حتى قتل مقبلا غير مدبر، رحمه الله .

٩ — فترة طومان باى :

وردت الأخبار إلى القاهرة بفقد السلطان الغورى ، وبانهزام الجيش المصرى، بسبب خيانة خيربك وجان بردى الغزالى . فعم الحزن جميع البلاد المصرية، غير أن ولاة الأمور رأوا الأمر أخطر من أن يُتوانى فى مداركته . فاجتمع الخليفة العباسى المصرى والأمراء والقضاة وأهل الرأى ، وبايعوا بالسلطنة لابن أخى الغورى : السلطان طومان باى ، الذى كان خليفته عند سفره ...

تولى طومان باى عرش مصر فى هذا الظرف العصيب . فبادر فى الحال بتأليف جيش تطوع فيه كثير من شجعان الأمة ، وانضم إليه فرسان العرب ورجالاتهم . ونهض بعزيمة قوية وقاد هذا الجيش ، وصمد لمدافعة العثمانيين عن البلاد ، وأبدى من الشجاعة والفروسية والإقدام، ما لا يفى به وصف . حتى إن السلطان سليم أعجب بما رأى من تفوقه فى البطولة ، وعزم على

أن يعهد إليه بولاية مصر . . وتحدث بذلك أمام الأمراء . فحذره خير بك والغزالى من عواقب هذا العزم ... فعدل عن ذلك . فلما وقع طومان باى أسيرا أمر بشنقه . فعلق على باب زويلة . وكان ذلك فى ١٢ محرم سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م .

وبموت السلطان طومان باى فقدت الديار المصرية استقلالها ، وامَّحت من الوجود سلطتها ، ووقع سكان وادى النيل فى مخالب الاستبداد ، وبين براثن الظلم والاستعباد ، دهراً طويلا . وسبحان من لا يقع فى ملكه إلا مايشاء .

مقارنة بين قمبيز المساوى وسليم العثمانى

١ - تبين لى مما لاحظته أثناء دراستى موضوع هذا الكتاب وملابساته التى دعا إليها التقصى والاستيفاء ، أن بين قمبيز ملك الفرس الأقدمين ، وبين سليم سلطان الترك العثمانيين ، كثيرا من التقابل فى الصفات ، والتشابه فى الخصال والحالات . على بعد ما بينهما من القرون والحقب والأجيال . فقد كان بين إغارة قمبيز على مصر واغتصابها من الفراعنة ، وبين إغارة سليم عليها وانتهابها من المماليك الجراكسة ، أكثر من عشرين قرنا .

وقد راعنى هذا التوافق الغريب بين هذين الجبارين ، وإنه ليعد من عبر التاريخ ، وروائع الأحداث الزمنية . فرأيت أن أعرض ما استنبطته من تقابل شؤونهما فى هذا الفصل ، ليكون عظة من عظات الدهر ، وعبرة من عبر الأيام .

١ - لما تولى قمبيز الملك بعد أبيه ، كان له أخ وحيد . فقتله .

ولما تولى سليم ـ وكان أبوه لا يزال حيا ، فدس له السم فمات ـ وكان له أخوان ، فما زال بهما حتى قتلهما ، وأفنى كثيرا من أولادهما .

٢ ـ غزا قمبيز مصر ، فلم يستطع التغلب عليها إلا بخيانة (فانيس) أحد القواد الأجانب الملتحقين بالجيش المصرى .

وغزا سليم مصر ، فلم يستطع التغلب عليها إلا بخيانة (خير بك الأباظى وجان بردى الغزالى) وكانا من قادتها وأمرائها .

٣ ـ فى أثناء غزوة قمبيز لمصر ، مات الفرعون (أماسيس) وقتل هو الفرعون (أبسامتيك) .

وفى غزوة سليم لمصر مات السلطان (الغورى) وشنق هو السلطان (طومان باى) .

٤ ـ لما وضع قمبيز يده على مصر ، عرض لمقدسات المصريين ، فنكل بالكهان ، وذبح العجل أبيس .

ولما وضع سليم يده على مصر ، عرض لبعض مقدسات المصريين من التقاليد والعادات ، فاعتقل الخليفة وأرسله هو وأهل بيته إلى بلاده ، شبه أسرى وسبايا ، ومزق السرادق الأشرفى الذى صنع لمولد النبى الكريم وباعه بأبخس الأثمان ، وكان من التحف التى لا نظير لها .

٢ — وأهم من ذلك كله :

٥ — أن اجتياح قمبيز للديار المصرية ، أضاع على الأمة استقلالها ، وأفقدها حريتها ، ومزق وحدتها ؛ تلك المزايا التى رفلت فى بحبوحتها ، ونعمت بها ، أدهاراً متطاولة .

وإن اجتياح سليم للديار المصرية أضاع على الأمة سلطانها الواسع ، وأفقدها استقلالها الكامل ، وحريتها المطلقة . تلك المزايا التي رفلت في بحبوحتها ونعمت بثمراتها الجنية عدة قرون .

٦ ـ مات قمبيز منتحرا ، في نوبة من نوبات الصرع التي كانت تعتاده في فترات من حياته ، ومات سليم بضربة الطاعون ـ ولم يمكّن أطباءه من علاجه ـ فهو بذلك والمنتحر سواء .

٧ ـ مات قمبيز ، بعد أن حكم سبع سنوات .

ومات سليم ، بعد أن حكم سبع سنوات .

وهذا من غرائب الاتفاقات .. ! وليس من جديد على الزمن .

تولى الله جزاءهما بما يستحقان ...

فى عصر الدولة العثمانية

١ — سياستها فى مصر :

أشرنا فيما مضى إلى ما كان من استيلاء السلطان سليم بن بايزيد العثمانى على الديار المصرية ، بعد شنق السلطان طومان باى ابن أخى السلطان الغورى . وكان ذلك فى سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م ومنذ ذلك التاريخ المشؤوم طويت صفحة من أنصع صفحات التاريخ فى عصور مصر المستقلة وأمجدها ، وتقلصت راية السلطنة المصرية عن الممالك والولايات المترامية الأطراف التى كانت تخفق عليها فى آسيا وأفريقية . وفقدت هذه الأمة المصرية الكريمة أمنها وسلامتها ، واستقلالها وحريتها ، التى تمتعت بثمراتها ، وألفت خيراتها بضعة قرون ، وتمزق شمل المملكة المصرية ؛ فغدت ولاية من ولايات الدولة العثمانية ، يتصرف فى شؤونها سلاطين آل عثمان بالتولية والعزل ، والتعيين والفصل ، كما شاءت أهواء صدورهم ومطامع وزرائهم . « والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » .

نهاية السرادق الأشرفى :

قال ابن إياس : وأشيع أن ابن عثمان (السلطان سليم) لما طلع إلى القلعة وعرضت عليه الحواصل التى بها رأى خيمة المولد (السرادق الأشرفى) فباعها المغاربة بأربعمائة دينار ... ! فقطعوها قطعا ، وباعوها للناس ستائر وسفرا ... ! وكانت من جملة شعائر المملكة السلطانية بالقاهرة . فبيعت

بأبخس الأثمان ، ولم يعرف ابن عثمان قيمتها ، وفقدتها الملوك (المصرية) من ذلك الوقت ... قال : وكانت هذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا ، لم يعمل مثلها فى العالم قط . وهذا من جملة مساوئ ابن عثمان التى فعلها فى مصر » .

* * *

أقول : ياليت السلطان سليم كان انتهبها فيما انتهبه من ذخائر ملوك مصر ونفائس سلاطينها ، وما استلبه من الأموال العامة والطرائف الخاصة ، وتحف مصر وآثارها النادرة ، وما كان عنـد أمرائها وأكابر تجارها من الأسلحة الثمينة ، والجوهرات القيمة ، والسلع التى لاتقوم بثمن ... ! ياليته اغتالها كما اغتال غيرها من مقومات السلطنة ، ومخبآت المملكة ، مما ليس هنا موضع تفصيله ، ولم يعرضها على أهل الطمع والجشع ممن لا يعرف قدرها ، فيبيعها منهم بثمن لا يقوم بطنب من أطنابها ... ! مع أنها قدكلفت الخزانة المصرية ، بإشراف السلطان قايت باى ، نفقات باهظة تجاوزت الستة والثلاثين ألفا من الدنانير الذهب . أى ما يربى على الواحد والعشرين ألفا من الجنيهات المصرية ... ! ياليته نقلها فيما نقل إلى بلاده ؛ إذاً لحفظت فى دار السلطنة العثمانية ، ولكانت مفخرة من مفاخر آل عثمان فى حفلاتهم بالمولد النبوى الشريف ، وغيره من حفلاتهم العامة أو الخاصة . ولكانت ذخيرة ثمينة تضاف إلى عرش الشاه الفارسى ، وتخت الغورى المصرى ، اللذين استولى عليهما وحفظهما فى متاحف القسطنطينية للتجمل بهمـا . ولـكن أنى لمثل السلطان سليم باستبدال روح التخريب والتدمير ، بروح التوطيد والتعمير ! ولله فى خلقه شؤون .

* * *

ومهما قيـل عن صفات السلطان سليم ، وأنه كان فى نشاطه مفقود

النظير ، وفى توقد ذهنه فوق الخيال ، وفى ماضى همته من أعلى ما عهد فى همم الرجال . وأنه كان شاعرا بليغا باللغات الثلاث : التركية والعربية والفارسية ، وأنه كان محبا للعلماء والأدباء ، مغرما بالعلم والعرفان ، وأنه كان لحرصه على راحة رعاياه وأمنهم ، يخرج أحيانا متنكرا فيختلط بالشعب ويطلع على أحواله ، ويقف على موضع الشكوى منه فيزيل أسبابها ويقتص من العمال والولاة الذين يتحقق خروجهم عن جادة العدل بين الرعية . إلى غير ذلك مما يصفه به بعض المؤرخين ؛ فإنه مما لا ريب فيه كان صاعقة على مصر . ولذلك فنحن لا ننظر إلى شؤونه وتصرفاته فى مصر ، إلا بالعين المصرية ، ولا نقيسها إلا على الخلال الإنسانية ، والنوازع الدينية . فذلك ما يهمنا تقديره ، ويتسق معنا اعتباره .

وذكر بعضهم أن السلطان سليما حينما استوخم القاهرة ، بعد أن أكثر فيها من القتل وإراقة الدماء ، ارتفع بجيوشه إلى الروضة وضرب فيها خيامه بجوار المقياس . وكتب بيده على عمود المقياس بيتين من شعره ، وهما :

الملك لله من يظفر بنيل منى ... يردده حقا ويضمن بعده الدركا

لو كان لى أو لغيرى قيد أُنْمُلَةٍ ... فوق التراب لكان الأمر مشتركا

والحقيقة أن السلطان سليم إنما كتب هذين البيتين من حفظه لا من قوله . وإنما هما من أبيات لأبى العلاء المعرى ، هى :

الموتُ رَبعُ فَناءٍ لَم يَضَعْ قَدَماً ... فيه امُرؤٌ فثناها نحو ما تركا

والمُـلكُ لله مَن يَظفَر بنيل مُنى ... يردُدْهُ قسراً وتَضمن نفسُه الدركا

لو كان لى أو لغيرى قـدر أُنْمُلَةٍ ... فوق التراب لكان الأمر مشتركا

ولو صفا العقلُ أَلقَى الثِّقلَ حامِلُه ... عنه ولم تَرَ فى الهيجاء معتركا

إنّ الأديم الذى ألقاه صاحبه ... يُرضى القبيلة فى تقسيمه شُركا
دَع القطاةفإن تُقدَرْ لِفيكَ تَبِتْ ... إليه تَسرى ولم تنصُب لها شَرَكا
وللمنايا سعى الساعون مذ خُلقوا ... فلا تُبالى أأَنصّ الركبُ أم أَركا
والحتفُ أيسرُ والأرواحُ ناظرة ... طلاقَها من خليل طالما فُرِكا
والشخصُ مثل نجيب رام عنبرة ... من المنون فلما سافها بَرَكا

الاحتفال بالمولد فى العهد العثمانى

١ — فى عهد السلطان سليم :

لما استقرت قدم السلطان سليم بالديار المصرية ، وحل شهر ربيع الأول سنة ٩٢٣ ﻫ أمر بإقامة معالم الاحتفال بالمولد النبوى ، وإجراء الزينات على ما جرت به العادة . وكان يوم ١١ من الشهر يوم الجمعة . قال ابن إياس : فلم يشعر به أحد من الناس ، وبطل ما كان يعمل فى ليلة المولد من اجتماع العلماء والقضاة الأربعة ، والأمراء ، بالحوش السلطانى ، كما بطلت الأسمطة التى كانت تمد فى ذلك اليوم ، وأُلغى ما كان يُعطى للقراء والوعاظ والفقراء ، من الخلع وشُقق الحرير وأنواع الإنعام ، فى تلك الليلة .

أقول : وكيف يشعر به أحد من الناس ، والأمة المصرية على بكرة أبيها كانت فى مأتم شامل ، وحزن عام ، من هذه النكبة التى لم تر لها مثيلا فى تاريخ مصر الماضى ، ولم تشهد لها نظيراً فى أشد العهود حلكة ، وقد مرت بها حوادث المغول والتتار ، ووقائع الحملات الصليبية ، على تكررها ، فلم تشعر من ذلك كله بما شعرت به من هذه النازلة .

٢ — في عهد خير بك :

لما أزمع السلطان سليم مفارقة الديار المصرية والعودة إلى بلاده ، أقام خير بك نائباً على مصر . مكافأة له على خيانته ، ومنحه لقب (ملك الأمراء) . وهذا اللقب ليس من ابتداع السلطان سليم ، وإنما هو من الألقاب التي كانت تمنحها سلاطين مصر لبعض الأمراء .

كما أقام جان بردى الغزالى نائبا على الشام . وهو زميل خير بك فى الخيانة ثم ارتحل بعد أن قتل واغتال وسلب ونهب ، ما وسعه أن يفعل - إلى غير رجعة ...

٣ — من هو خير بك :

رأينا من تمام الفائدة أن نُعَرِّفَ بهذا الرجل الذى لعب دوراً خطيراً فى تاريخ مصر ، وكان اليد الشُّؤمَى ، فى الخيانة العظمى . وما أصاب مصر بعد ذلك من الكوارث والنوازل .

هو خير بك بن ملباى الأباظى الجركسى . ولد بسمسوم قريباً من بلاد الكرج . ولما ترعرع قدم به والده إلى مصر ، وقدمه إلى السلطان الأشرف قايت باى . فأنزله مع أترابه من غلمان الطبقة . ثم صار من جملة المماليك السلطانية ، ثم منحه خيلا وقماشاً ورقاه فى صف الجدارية . ثم صار خاصكيا فدوادار سكين . وفى سنة ٩٠١ هـ جعل أمير عشرة . ثم عينه الناصر محمد بن قايت باى ، أمير طبلخانة وبعثه فى سفارة إلى السلطان بايزيد العثمانى والدسليم ثم جعله الأشرف قانصوه جان بلاط ، أمير عشرة مقدم ألف .

ولما خرج قصروه نائب الشام عن الطاعة، وأظهر العصيان على السلطنة، جرد السلطان عليه العساكر بقيادة خير بك، وكانت له معه وقائع ...

ولما بويع للعادل طومان باى الأول، كان خير بك مجرداً من رتبه مسجوناً فى بعض جرائمه، فلما حضر السلطان إلى مصر أمر بإطلاقه والإنعام عليه بتقدمه ألف، كما كان. ثم جعله الأشرف قانصوه الغورى، حاجب الحجاب.

وكان لخير بك أخ يسمى قانصره المحمدى البرجى وكان هذا الأخ نائبا على الشام. فلما توفى أسند الغورى نيابة حلب إلى خيربك سنة ٩٠١هـ ١٥٠١م مكان سيباى الذى نقل إلى نيابة الشام. وظل نائبا على حلب إلى أن كان من أمر السلطان سليم العثمانى ما كان، وحدثت منه تلك الخيانة العظمى. ثم جعله السلطان سليم نائبا على مصر عند ما رحل عنها.

وكان يلقب فى الدولة المصرية (المقر السيفى) فلقبه السلطان سليم (ملك الأمراء) وهو لقب يقرب فى معناه من لقب (خديو)

ومن آثاره المدرسة المعروفة بالخيربكية بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة.

٤ — الاحتفال بالمولد فى مدة نيابته :

بعد أن رحل السلطان سليم عن مصر، وقبض خيربك على زمام الأمر فى البلاد، أراد أن يستميل إليه الأهالى، وأن يحسن سياسته مع الشعب، ففكر فى أن يجرى على سنن من تقدمه من إجراء الاحتفال بالمولد النبوى الشريف، على القواعد المقررة، والتقاليد الموروثة ...

فلما حل شهر ربيع الأول من سنة ٩٢٤هـ ١٥١٨م أمر بإقامة الزينات

ومعالم الاحتفال بالمولد النبوى . فلم ينهض له الناس النهوض المعتاد . وكان احتفالا تافها . قال ابن إياس : فلم يشعر به أحد من الناس ، قيل إن خيربك أحضر عنده عشر جوخ للمقرئين ... ؟ ! فضجوا من ذلك وقالوا : نحن كان يدخل علينا فى مولد السلطان (يريد المولد النبوى ، وهكذا كان يطلق عليه فى تلك الحقبة) لكل واحد منا مائة شقة !! فكيف نأخذ فى مولد ملك الأمراء جوخة بأشرفيين ؟ (نوع من العملة) فرسم لكل واحد منهم بجوخة بأربع أشرفيات . قال : ثم بعد العصر مد سماط بالمقعد الثانى الذى بالحوش ، ليس بكبير أمر . تخاطفته العثمانية فى لمح البصر ، وبات غالب الفقهاء ، بلا عشاء .

ثم قال ابن إياس : وأين الحسام من المنجل ، بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين الماضية ، من الأسمطة الحافلة ، وشقق الحرير التى كانت تدخل على جوق القراء والوعاظ ؟ ولا سيما ما كان يعمل فى مولد السلطان قانصوه الغورى . فكان يصرف على السماط فى المولد أربعة آلاف دينار ، وكان يحضر عنده فى تلك الخيمة العظيمة التى لم يبق يسمح الزمان بمثلها أبدا ، القضاة الأربعة ، ومن الأمراء المقدمين : أربعة وعشرون أميرا مقدم ألف ، غير بقية الأمراء والعساكر ، وهم بالشاش والقماش ! ... فأين ذلك النظام العظيم ، كيف ذهبت أوقاته ؟ فيا أسفى على تلك الأيام ، كأنها كانت منام ... !

وفى ربيع الأول سنة ٩٢٥ هـ ١٥١٩ م كان المولد يوم الأحد ١١ منه . فجلس ملك الأمراء فى المقعد الذى بالحوش السلطانى بالقلعة ، وطلع إليه

خير الدين نائب القلعة ، وبعض المباشرين ، وثلة من أمراء العثمانية . كما اجتمع عنده من القراء والوعاظ ثلاث عشرة جوقة . وفى آخر النهار مد سماط . يصفه ابن إياس بأنه : لايسمن ولايغنى من جوع ... ثم خلع على الوعاظ قفطانات ، واستردها بثمن زهيد .

وعلى هذا جرى الرسم فى احتفال سنة ٢٦ و ٢٧ .

أما فى سنة ٩٢٨ فقد كان المولد فى يوم السبت ١١ من ربيع الأول ، حيث عمل ملك الأمراء الاحتفال به . فاجتمع القراء والوعاظ (بالدهيشة) وأرسل يقول لقضاة القضاء : لاتكلموا خواطركم ولاتطلعوا إلى القلعة ، فإن ملك الأمراء حصل عنده توعك فى جسده ، فلن يحضر المولد . ثم أرسل خلف قاضى القضاة المالكى على انفراد ـ وكان من أخصائه ، ومن المقربين عنده ـ وقال له : إطلع واحضر المولد ... كما أرسل إلى الأمراء الجراكسة ، والأمراء العثمانية يقول لهم : لاتكلفوا خواطركم ولاتطلعوا إلى القلعة بسبب المولد ...

قال ابن إياس : وقيل إن ملك الأمراء احتجب فى ذلك اليوم فى (الأشرفية) التى بجوار (الدهيشة) ولم يجلس عند القراء ، ولا حضر السماط ، بل قعد على رأس السماط قاضى القضاة المالكى ، والأمراء برسباى ، والخازندار ، وآخرون من الأمراء العثمانية ...

وقال اللواء محمد مختار باشا المصرى : وفى هذه السنة توفى خيربك باشا بمرض جلدى ، ودفن فى المدرسة التى تدعى الخيربكية التى بناها فى القاهرة بشارع باب الوزير تحت القلعة . قال : ولكثرة استبداده قيل فى حقه إنه

كان ينهض من لحده ليلا ويستغفر الله على ما أتاه من الشرور في حياته .

قلت : ولاشك أن هذا من تخاريف العامة واختلاقات من يستغلونهم .

وظل نواب السلطنة العثمانية وولاتها على مصر - بعد خير بك - يقومون بمراسم الاحتفال بالمولد النبوى الشريف بين العناية والتقصير ، حسب الظروف والأحوال ، كل على قدر همته من الرفعة والتدنى . إلى نهاية الحكم العثمانى .

على أن الأمة المصرية كانت تقوم من جانبها بما تقصر عنه همم الولاة من أهل الخزول والقصور .

٦ — من العادات المصرية :

قال الجبرتى : ولأهل مصر سنن وطرائق فى مكارم الأخلاق ، لاتوجد فى غيرهم ... ولهم عادات فى أيام المواسم ، مثل : أيام رجب ، والمعراج ، ونصف شعبان ، وليالى رمضان ، والأعياد ، وعاشوراء ، والمولد الشريف .

[فكانوا] يطبخون الأرز باللبن ، والزردة ، ويملأون من ذلك قصاعا كثيرة ، ويفرقون منها على من يعرفون من المحتاجين . [وكان] يجتمع فى كل بيت الكثيرُ من الفقراء ، فيوزعون عليهم الخبز ، ويأكلون حتى يشبعوا من ذلك اللبن والزردة ، ويُعطونهم بعد ذلك دراهم ... وذلك خلاف مايعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية ، والشريك : على المدافن والترب ، فى الجمع والمواسم .

في عهد المماليك البيكوات

١ - لما انتقل خير بك ملك الأمراء، ونائب الدولة العثمانية على مصر - إلى المكان الذي ينقل إليه كل بر وفاجر - أخذت الدولة تولى إرسال الباشوات من رجالها إلى مصر نوابا عنها، وولاة عليها. وكان بعض هؤلاء الباشوات ربما شعر من نفسه بشيء من بعد الهمة؛ فينتهز فرصة انشغال الدولة بالحرب مع دولة أخرى معادية - وكثيرا مايكون ذلك - فيثور محاولا الاستقلال بحكم الديار المصرية. كانت هذه المحاولات تظهر حينا وتختفي أحيانا. لأن الدولة كانت تبادر إلى إرسال الجيوش فتقمع هذه التوثبات وتقبض على ناصية الحال. ولا تلبث فتنة ذلك النائب المتوثب أن تخمد وتذهب ريحها ... ومن أجل هذا وضعت الدولة قاعدة في تعيين ولاتها على مصر، بأن لاتزيد مدة الولاية على سنة واحدة، في غالب الأحيان.

ثورة على بيك الكبير:

وما زال الأمر جاريا على ذلك إلى أن اشتبكت الدولة العثمانية مع دولة الروسيا في الحرب. وكان ذلك في عهد السلطان مصطفى خان الثالث. فانتهز على بيك هذه الفرصة، التي ظنها مواتية، وأعلن استقلاله بشؤون الديار المصرية، ثم زحف بجيشه مكتسحا بلاد الشام وحلب، وما والاها، وظل في وقائع ومعارك ومعامع ناجحة إلى ان أنتزعها من الدولة العثمانية، وأعاد انضمامها إلى أمها مصر، كما كانت من قبل.

وكان ابتداء حكم على بيك، مستقلا، في سنة ١١٧٩ هـ ١٧٦٥ م.

غير أن الدولة العثمانية لم تلبث أن فكرت فى تدارك الأمر ، واتهمت على بيك بممالأة الروس ، وبأنه إنما استمد منهم ما أعانه على ثورته ، وأصدرت الأوامر بتسيير الجيوش إليه ، فالتحمت معه فى حرب انتهت باستردادها للبلاد التى كان استولى عليها ، كما أعادت مصر إلى الحظيرة العثمانية .

على أن هذه الثورة التى قام بها على بيك ، لم تذهب عواملها مع الرياح ولا نتائجها سدى ، بل أنها تركت أثرا فعالا فى نفوس المماليك المصرية ... وقرّ فى ضمائرهم أن فى الاستطاعة منازعة الدولة ، والتغلب على نفوذها وسلطانها ، وأن فى الإمكان ، مقارعتها فى ساحة الحرب والطعان ... فقويت فى قلوبهم هذه النزعة ، واشتدت بها شوكتهم ، وعرفوا لأنفسهم قيمتها فى الوجود ، ففرضوا نفوذهم ، وأخذوا يسلبون من الباشوات مطلق سلطانهم ويقفون فى كثير من الشؤون العامة فى وجوههم ... وأحست الدولة بما تجدد لهم عليها من همم المماليك ونزوعهم نحو الاستقلال بالأمر فى مصر ، على أقل تقدير ، فحسبت حساب ما يحملون لها حقد ، وانتبهت لما يضمرون لها من كيد ، ويكمنون لها من بغضاء . لاسيما وقد كانت حالتها بعد الحرب الروسية ، آخذة فى التراجع ، وأنها فى حاجة إلى فترة تسترد فيها وسائل أمنها وسلامتها ، وتنظر فيها إلى إصلاح داخليتها ... فكانت تكتفى بعد ذلك بأن يكون همّ ولاتها فى مصر منصرفا ، على الأكثر ، إلى الحصول على (الخزانة) أى الخراج الذى كانت تدفعه مصر إلى الدولة فى كل سنة ... دون التعرض لأمر المماليك . بل اتخاذ سياسة المحاسنة معهم ...

وبذلك أصبح للماليك النفوذ الواسع ، فى طول البلاد وعرضها ... وكانوا

متى شاءوا إبدال وال بآخر لا تتوقف الدولة كثيرا فى إجابة طلبهم ...

وفى هذه الحالة كانت مصر تتمتع بقدر غير قليل من الاستقلال الذاتى .

المولد فى عهد المماليك المصرية

أما عناية حكومة هؤلاء المماليك بأمر الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، وإقامة معالمه فى أوقاته المقررة ، فقد كانت جارية على الرسوم التى ورثوها عن باشوات الدولة العثمانية . وما أهونها من رسوم ...!

إلا أن الأمة كانت تنهض به من تلقاء نفسها نهوضا بينا ، وتحتفل به احتفالا حسناً . وذلك تحت إشراف بيت السادة البكرية ، ورعاية شيوخه

بيت البكرى والمولد

كان بيت السادة البكرية فى تلك الحقبة ، يقوم بالساحة الكبرى التى كانت تمتد من جنوب دار الأوبرا الآن إلى مسجد العشماوى ، وتشمل حارة عبد الحق السنباطى غرباً ، إلى دار البريد شرقاً . وكان يطل على بركة الأزبكية شمالا . وكان حوله ميادين واسعة .

هذا البيت العامر الجناب ، الواسع الرحاب ، والمترامى الأطراف ، المتنائى الأكناف ، كان موئلا لأرباب الطرق الصوفية ، ومنتدى لمجامعهم الدورية . وكان شيوخ آل الصديق يقيمون معالم الاحتفال بالمولد فى ساحاته ، وينصبون الأعلام والزينات فى باحاته ، ويوقدون أحمال القناديل والثريات فى سواريه وشرفاته . ويذبحون فيه الذبائح ، ويقدمون للناس العطايا والمنائح فكان فى أيام المولد ولياليه قبلة القاصدين ، ومحط رحال الوافدين ، وملجأ

الفقراء والمعوزين . فإذا كانت الليلة الختامية للمولد ، حضر الباشا الوالى ، وكبار رجال الحكومة ، وزعماء الإنكشارية ، وأعيان المباشرين ، وأرباب الوظائف ، وغيرهم من وجوه الأمة ، ورؤس التجار ، وأصحاب الصناعات والحرف ، لمشاهدة الاحتفال بهذه الذكرى الكريمة . وكانت تمد لكل من حضر . الأسمطة الحافلة بألوان المطاعم ، والأوانى الرحبة المليئة بالثريد عليها أبضاع اللحوم الناضجة الشهية . فيتناول من ذلك من شاء مالذ له وطاب . وبعد الانتهاء من الطعام يصطفون على الأرائك والكراسى ، ويقعد أكثرهم على البسط والسجاجيد ، أو على الحصر المفترشة حول سارية الذكر . وهنالك تقوم حلقات الصوفية وأهل الطرق ، يذكرون الله ، ويتناشدون الأناشيد المعروفة عندهم ، وتحدث لبعضهم أطوار من الجذب ، فتكون صيحات وتواجد ، وزعقات وتساند . ويظهر على السامعين الشىء الكثير من الحركات الدالة على الاستحسان والاستطراب . ويجلس فى بعض الساحات حلقات أخرى لقراءة الأحزاب ، وتلاوة الأوراد ، بأصوات مرتفعة صادرة من أقصى حلوقهم ، فيكون لها دوى خاص فى الأسماع . ولا يزالون جميعاً فى هذه الأحوال إلى الثلث الأخير من الليل . ثم يأخذون فى الانصراف .

ومما يذكر أنه فى يوم الجمعة ١١ من ربيع الأول سنة ١٢٠٢ هـ ١٧٨٧ م لما أقيمت معالم الاحتفال بالمولد ، ونصبت سوارى الزينة عليها الأعلام ، ومدت الحبال وعلقت فيها الفوانيس والثريات والقناديل ، واستنارت الساحة بالأنوار المتلالئة ، وحضر المدعوون لشهود الليلة الختامية على العادة . حضر الوالى العثمانى عابدين باشا مدعوا ، واستقبل بحفاوة بالغة ، فلما

شاهد من ذلك ما لا عهد له به ، سر كثيرا وجاد ببعض الإنعامات . وكان الاحتفال بهيجا شائقاً ، وكان اشتراك الأمة فيه آية فى العناية والبذل والسخاء .

فى مدة مراد بك :

ولما صار أمر الحكومة المصرية فى يد مراد بك رأس المماليك ، جرى الاحتفال بالمولد على العادة ، وأقيمت معالم الاحتفال ، وامتدت الزينات فى أرجائه . وكان بين السيد محمد افندى البكرى وبين مراد بك شيء من المغاضبة والتهاجر وسوء التفاهم ، فنهض وسطاء الخير فى السعى إلى إصلاح ذات البين . وما زالوا بمراد بك حتى حملوه على الحضور إلى بيت السادة البكرية ، وأزالوا ما كان بينهما من التقاطع ، فتصالحا ، وتفاهما وتصالحا ، وزال ما كان فى نفس كل منهما من أثر . وكان لذلك رنة فرح وسرور عند الناس جميعا .

وبعد صلاة العشاء مدت الموائد الحافلة بالأطعمة الفاخرة ، لمراد بك وحاشيته ، ومن حضرها من الخواص ، فأكلوا وتبسطوا فى الأحاديث . وبعد الفراغ من تناول الطعام ، نهضوا فغسلوا أيديهم على جارى العادة ، ثم جلسوا على مقاعدهم يستمعون إلى قراءة القراء ، وإنشاد المنشدين ، وشاهدوا حلقات الصوفية وهم يتلون أورادهم وأحزابهم ، كما شاهدوا حلقات الذكر ، وترنح المترنحين ، وتمايل المتجاذبين ، وغير ذلك من المشاهد . ومكث مراد بك فى دار البكرى حتى منتصف الليل . ثم نهض وخلع على السيد محمد البكرى فروة سمور من النوع الفاخر ... وانصرف بعد ذلك راضيا مرضيا .

فى عصر الحملة الفرنسية

فترة نابوليون بمصر:

١ - ذكر الجبرتى فى تاريخه المشهور أن دخول نابوليون بونابرت على رأس حملته الفرنساوية إلى القاهرة ، كان فى ربيع الأول من سنة ١٢١٠ هـ ١٧٩٥ م . والجبرتى، كما هو معلوم ، كان من حاضرى دخول هذه الحملة ، ومن مشاهدى إغارتها على مصر ...

لكن اللواء محمد باشا مختار المصرى يذكر فى كتابه (التوفيقات الإلهامية) أن هذا الحادث كان فى صفر من سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م ووافقه على هذا التاريخ أمين سامى باشا فى كتابه (تقويم النيل) .

والراجح أن التاريخ الأخير أقرب إلى الصواب . لأنه من الثابت الذى لا شك فيه أن نابوليون كان ، فى التاريخ الذى ذكره الجبرتى ، يحارب دولة النمسا ، ينكل بجيوشها ، ولم يكن مشروع احتلاله لوادى النيل قد وضع بعد .

وعلى كل حال فقد احتل نابوليون وجيوشه الديار المصرية ، إثر موقعة الأهرام ، وانهزام مراد بك وجنوده ، بعد أن أبلوا البلاء الحسن ، ودافعوا دفاع الأبطال . وبعد أن استراح نابوليون بالقاهرة قليلا ، أرسل نوابه إلى الأقاليم المصرية ، لمكافحة الثائرين بها ، ومطاردة المدافعين عنها . ولضبط شؤونها وإقامة الحكم الفرنساوى بها ، ثم ألف ديوانه الخصوصى بالقاهرة ، وكان مركزه قصر الألفى الذى فى مكانه الآن (شبرد أوتيل) وغيره من

العمائر . وكان من رجال هذا الديوان : الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والسيد أحمد المحروقى ، وعلى كتخدا باشى ، ويوسف جاويش باشى . كما أنشأ غيره من الدواوين والمجالس وكذلك فعل بالاسكندرية .

المولد النبوى أيام الحملة

١ — أيام نابوليون :

بعد أن رأى نابوليون أن الأمر قد استتب له ، أخذ يفكر فيما يغطى به سخط الشعب المصرى عليه ، ويقرب قلوب الأمة إليه . فرأى أن من الوسائل التى قد تؤدى إلى ذلك ، أن يأمر بإحياء الاحتفال بذكرى المولد النبوى . فقد يدخل بهذا الاحتفال والمشاركة فيه ، شيئاً من الابتهاج والسرور على نفوس المصريين ، ويرضى عواطفهم ، ويجدد لهم ذكرى الأعياد والمواسم التى ألفوها حافلة بأسباب الأفراح ، ووسائل الخير العام والبر الشامل ، والتى كانت فى اعتبارهم ، فى عداد الواجبات الدينية ، أو التقاليد القومية .

قال الجبرتى : سأل سارى عسكر [نابوليون] عن المولد النبوى لماذا لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ [خليل] البكرى بتعطيل الأعمال ، وتوقف الأحوال ... ! فلم يقبل ، وقال : لابد من ذلك ... وأعطى له ٣٠٠ ريال فرنسيا معاونة ، وأمر بتعليق تعاليق وحبال وقناديل ... واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم ، وضربوا طبولهم ودبادبهم . وأرسل الطبلخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكرى . واستمروا يضربونها بطول

النهار والليل بالبركة (بركة الأزبكية) تحت داره . . وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية ، وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة . وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة ، وسواريخ تصعد فى الهواء . وفى ذلك اليوم ألبس الشيخ خليل البكرى فروة ، وتقلد نقابة الأشراف ونودى فى المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب .

وكان نابوليون كثيراً مايحضر إلى بيت البكرى بالأزبكية ، يتناول فيه الطعام ، فى المناسبات الداعية من المواسم والأعياد . . .

٣ — أيام كليبر :

لما سافر نابوليون عن مصر ، عهد بالقيادة العامة إلى الجنرال كليبر ، إذ كان حائزاً عنده تمام الثقة .

قال الجبرتى : وفى يوم الثلاثاء ١١ من ربيع الأول سنة ١٢١٤ هـ ١٧٩٩ م عمل المولد النبوى بالأزبكية . ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر (كليبر) مع جماعة من أعيانهم ، وتعشوا عنده ، وضربوا ببركة الأزبكية مدافع ، وعملوا حراقة سواريخ ، ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة ، وفتح الأسواق والدكاكين ليلا ، وإسراج قناديل ، واصطناع مهرجان .

نهاية الحملة الفرنسية

لاخفاء فى أن العداوة والبغضاء كانت متأصلة بين الإنجليز والفرنسيين وكان الإنجليز يحقدون أشد الحقد على نابوليون ويخشون نهضته . ومن طبع الإنجليز الحقد على كل من يرفع رأسه لاستنشاق نسيم الحرية فى الحياة ،

فهم يعملون بكل ما فى وسعهم، من دس وكيد، لخفض هذا الرأس أو قطعه . وكان نابوليون يعرف فيهم ذلك معرفة خبير ، ولهذا كان يظهر لهم أشد الاحتقار . على أن الانجليز مع هذا لايحبون أن يواجهوا عدوا لهم إلا إذا تمكنوا من الاعتماد على ظهير لهم يقدمونه بين يدى مطامعهم ، بعد أن يكونوا قد خدروا أعصابه بأساليبهم المعروفة من الكذب والغش والخداع والنفاق، وشراء الذمم ... وهذه هى سياستهم فى كل زمان ومكان

وبينا هم ينصبون حبائلهم لرجال الدولة العثمانية ، كى تمدهم الدولة بجيش يعاونهم على إخراج الفرنسيين من مصر ، ويبذلون فى ذلك من أنواع الخبث والمكر والمال ، كل مرتخص وغال ـ إذا بالجنرال كليبر يغتال بيد طالب حلبى من طلاب الأزهر اسمه سليمان . استأجره الانجليز بواسطة نائب عكا . . . وجرت محاكمة هذا القاتل أمام مجلس عسكرى فرنسى ، وحكم عليه بحرق يده ، ثم وضعه على خازوق إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة . . . وكان هذا الحكم وحشيا بلا شك . . .

وفى هذه الأثناء زحف الإنجليز ومعهم الجيش العثمانى على مصر ، وأخذوا فى مفاوضة الجنرال (منو) فى الجلاء عن مصر . . . وبعد خطوب ومحن جلا الفرنسيون فى رجب سنة ١٢١٦ هـ ١٨٠١ م .

ومنذ قتل كليبر فى ٢٠ من محرم سنة ١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م والأحوال فى مصر مضطربة ، والثورات متوالية ، والقمع جار فى الأهالى، من طغاة الفرنسيين ، والأزهر مغلق ومعطل الدراسة ، ومشتت الطلبة والشيوخ فى أنحاء البلاد .

ولما كانت المفاوضات مع الفرنسيين فى شأن خروجهم من مصر قد

بدأت من أول السنة الهجرية ، فلم يكن هناك من داع لمباشرة أى عمل من الأعمال العامة التى تهم الأمة . ولذلك لم يعن منهم أحد بحضور الاحتفال بالمولد فى هذه السنة ...

المولد أثناء مخابرات الجلاء

١ — فى يوم الأربعاء ١٠ من ربيع الأول سنة ١٢١٦ هـ ١٨٠١ م نودى بالاحتفال بالمولد النبوى ...

قال الجبرتى : نودى بتزيين الأسواق من الغد ، تعظيما ليوم المولد النبوى الشريف . فلما أصبح يوم الأربعاء كُررت المناداة والأوامر بالكنس والرش . فحصل الاعتناء ، وبذل الناس جهودهم ، وزينوا حوانيتهم بالشقق الحرير الزردخان ، والفاصيل الهندية . مع تخوفهم من العسكر . وركب الوزير (العثمانى يوسف باشا الذى حضر على رأس الجيش لإخراج الفرنسيين من مصر) عصر ذلك اليوم ، وشق المدينة ، وشاهد الشوارع ... وعند المساء أوقدوا المصابيح ومنارات المساجد . وحصل الجمع (بتكية الكلشنى) على (غير) العادة . وتردد الناس للفرجة ، وعملوا المغانى والمزامير فى عدّة جهات ، وقراءة القرآن ... وضجت الصغار فى الأسواق ، وعم ذلك سائر أخطاط المدينة العامرة ، ومصر ، وبولاق .

قال : وكان من المعتاد ألّا يُعتَنى بذلك إلا بجهة الأزبكية ، حيث مسكن الشيخ البكرى . لأن عمل المولد من وظائفه (فى القاهرة) وبولاق فقط .

٢ — وفى ربيع الأول سنة ١٢١٧ هـ ١٨٠٢ م كانت الأحوال قد هدأت فى مصر - بعد خروج الحملة الفرنسية منها - وأخذت مياه الاطمئنان

تعود إلى مجاريها ، وحل موسم المولد .

قال الجبرتى : شرعوا فى عمل المولد النبوى ، وعملوا صوارى ووقدة قبالة بيت [قبطان باشا] وبيت الدفتردار ، والشيخ البكرى . ونصبوا خياما فى وسط البركة [بركة الأزبكية] ونودى فى يوم الخميس ثامنه بتزيين البلد ، وفتح الأسواق والحوانيت ، والسهر بالليل ثلاث ليال . أولها صبح يوم الجمعة ، وآخرها ليلة المولد الشريف .

تقرير مرسل إلى نابوليون

عن أحوال مصر

عثرت على هذا التقرير فرأيت أن أجعله خاتمة لآثار الحملة الفرنسية بمصر . وقد أرسله الشيخ محمد المسيرى أحد أعضاء مجلس الأحكام الذى أنشأه نابوليون بالاسكندرية برآسة السيد محمد كريم - إلى نابوليون بونابرت بعد رحيل الفرنسويين عن مصر . فى شبه خطاب يشرح له فيه بعض الأحوال فى البلاد المصرية ، وغيرها من بلاد الشرق . وقد رواه البارون دى سامى فى كتابه (الأنيس المفيد) وهذا نصه ، قال :

إن من أحسن ما خطر فى الضمائر ، وبرز من مكنونات الذخائر ، ثناء أذكى من المسك عبيرا ، ودعاء أسرع من السحاب مسيرا ، إلى حضرة من أثار لعشيرته فى الأنام ذكرا ، ورفع لهم لواء لا يستطيع غيره له نشرا ، المتوصل بثاقب فكره إلى المطالب القاصية ، والمذلل برأيه وسياسته جوامح النواصى العاصية ، الظاهر بمظهر الجلال ، والسابق بحزمه إلى المراتب العوال ، ذي المهابة والوقار عند جميع الأجناس ، والشهامة والكياسة عند

الخاص والعام من الأكياس . حضرة صاري عسكر الجمهورية الفرنساوية ، وإنسان عينهم فعليه مدار القضية : بونابارت . جعل الله همته مصروفة فى الرشاد والاصلاح ، ونظمه فى سلك أهل الخير وعداد أهل الفلاح ، وأجرى على يديه راحة العباد ، وأجلى به الهموم والغموم والأنكاد ، وصان ذاته من كل نقص وشين ، وتولى أمره باللطف فى الدارين ، ولحظه بعين عنايته فى حركاته وسكناته ، وكان له موفقا فى جميع تقلباته وتصرفاته .

أما بعد بسط يدى بصالح الأدعية ، ونشر الثناء فى جميع الأندية . فإنا نحمد لكم الله الذى لا إلـه إلا هو ، على كل حال ، ونسأله أن يلطف بالجميع فى جميع الأحوال . وإننا لم ننس لكم ذكرا ، ولم نغفل عن الدعاء لكم سرا وجهرا .

ونعرفكم عن أحوال طرفنا : وهو أن البلاد المصرية ، حاكمها بمصر ، المتصرف فى أمورها (محمد باشا) وباشا الأسكندرية خورشد باشا . ولكن الكلام والتصرف فى الإسكندرية لطائفة الإنجليز . وأما الدخل والخرج فهو بيد العثملى[1] والغز - يعنى المماليك - كانوا فى الصعيد ، فتعين عليهم عساكر مرارا ، فتلاطموا معهم ، ووقعت بينهم محاربات وانهزامات وجراحات ، وأمور كثيرة . والآن جاؤا إلى أرض الفيوم ، وبرزت لهم تجريدة عسكر كبيرة . وما ندرى الآن ما حصل بينهم ، هل تلاطموا أو لا ؟! ومع الغز طائفة من الفرنساوية ، وهربت لهم عساكر من الأرنؤد .

والنيل كان وافيا . وشاع فى البلد أن عساكر من مصر متوجهة إلى أرض الشام مساعدة لمحمد باشا أبى مرق وإلى يافه ، لأنه وقع بينه وبين

(١) يريد بالعثملى : الأتراك العثمانيين .

والى عكة مشاجرة ، فحاصرة ، فاستغاث بالدولة ، فأغاثوه بمراكب ، صارى عسكرها (أنجه بك) الذى وقع مركبه فى بوقير . ثم وقعت بينهم وبين عسكر (الجزار)[1] ملاطمة . ثم جاء (أنجه بك) مصر ، وهو الآن بها .

وشريف مكة مات وتولى أخوه . وذكروا أن بينه وبين ابن أخيه حروباً منصوبة . وباشا جدة الحجاز توفى . وذكروا أن والى دمشق ووالى عكة اصطلحا بعد وقوع حروب بينهما . ووقع أيضاً بينه وبين أهل دمشق حروب وأخذ قلعتها . وإلى الآن (أبو مرق) محاصر فى يافه .

وربنا يصلح أحوال البلاد ، ويهنئ جميع العباد ، ويلهم خلقه الرشد والسداد ، وتفصيل الأمور يطول .

والله تعالى يجرى فضله فى عباده ، ويعاملهم بلطفه وإحسانه ، وييسر لهم الاستقامة ، ويجعلكم ممن رفع له فى الملأ الأعلى ذكراً ، وأجرى على أيديهم لعباده نفعاً وخيراً ، ولا يجعلكم ممن لعبت به الحياة الدنيا ، بل يجعلكم ممن همته عليا ، ويختم لكم بالخير والإحسان . آمين

فى ٢١ جمادى الثانية سنة ١٢١٧ من الفقير : محمد المسيرى لطف الله به

ولم أثبت هذا الخطاب أو هذا التقرير هنا لبلاغة إنشائه ، أو لأنه يصح أن يكون من نماذج الكتابة فى ذلك العهد ؟ فقد كان فى كتاب تلك الفترة من يحسن أن يكتب أفضل من هذا . وإنما ذكرته لأنه يدل على أن نابوليون وهو بمصر قد جذب إليه بعض القلوب ، وأعجب بمواهبه رجال لا بأس بفضلهم . على أن ماذكره المسيرى فى خطابه ليس فيه من الشؤون الداخلية بالديار المصرية مايفيد بونابرت كثيراً . وإنى لألمح من خلاله أنه خطاب

(١) هو أحمد باشا الجزار والى عكا .

استمناح ، أكثر منه تقرير يبين الأمور الجارية فى مصر بإيضاح .

٤ — عود الى المولد

وفى ربيع الأول من سنة ١٢١٨ هـ ١٨٠٣ م شرعوا فى إقامة معالم المولد النبوى الشريف . قال الجبرتى : فى يوم الجمعة ١١ منه كان المولد النبوى ، ونادوا بفتح الدكاكين [ليلا] ووقود القناديل ، فأوقدت الأسواق تلك الليلة والليلة قبلها ، ولكن دون ذلك .

قال : وأما الأزبكية فلم يعمل بها وقدة إلا قُبالة بيت البكرى . لاستيلاء الخراب عليها .

٥ — وصف الأزبكية قبل خرابها

قال العلامة الشيخ حسن العطار ، يصف الأزبكية قبل أن يحل بها الدمار :

أما بركة الأزبكية فهى مسكن الأمراء ، وموطن الرؤساء ، قد أحدقت بها البساتين الوارفة الظلال ، العديمة المثال . فترى الخضرة فى خلال تلك القصور المبيضة ، كثياب سندس خضر على أثواب مفضضة . يوقد بها كثير من السُرُج والشموع ، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يُدخل على القلب السرور ، ويُذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور . ولطالما مضت لى بالمسرة فيها أيام وليالى ، هن فى سمط الأيام من يتيم اللآلى ، وأنا أنظر إلى انطباع صورة البدر فى وجناتها ، وفيضان لُجين نوره على حافاتها وساحاتها ، والنسيم بأذيال ثوب مائها الفضى لَعَّاب ، وقد سل على حافاتها من تلاعب الأمواج كل قِرضاب ، وقام على منابر أدواحها فى ساحة أفراحها مُغرِّدات الطيور ، وجالبات السرور . فلذيذ العيش بها موصول ، وفيها أقول :

بالأزبكيةِ طابت لى مسراتُ ··· وآذن لى من بديع الأنس أوقات

حيث المياه بها والفُلك سابحة ··· كأنها الزُهر تحويها السموات

وقد أدير بها دُورٌ مشيدةٌ ··· كأنها لبدور الحسن هالات

قدّت عليها الروابي خُضر سُندسها ··· وغرّدت فى نواحيها حمامات

والماء حين سرى رطب النسيم به ··· وحل فيه من الأدواح زهرات

كسابغات دروع فوقها نُقطٌ ··· من فضة واحمرار الورد طعنات

مَراتعٌ لظباء الترك ساحتها ··· وللأُسود بها فيهن غَيضات

وللنديم بها عيشٌ تُجدده ··· أيدى الزمان ولا تُخشَى جنايات

يروح فيها صريعَ العقل حين يرى ··· على محاسنها دارت زُجاجات

وللرفاق بها جمعٌ ومفترَقٌ ··· لما غدت وهي للندمان حانات

عصر الدولة المحمدية العلوية

١ — من أعمال محمد على ومزاياه :

بعد أن رحلت بقايا رجال الحملة الفرنسية ، وأخلت الديار منها ، ظلت الحال فى مصر مضطربة ، والشؤون غير مستقرة ، والإدارة مرتبكة ، والنفوس قلقة ، والقلوب وجلة ، والأمن مزعزع الأركان ، والفتن تثور وتخمد فى كل مكان . إلى أن شاءت إرادة الله تعالى أن تنهض مصر من كبوتها ، وأن تسترد نشاطها وحيويتها ، وأن تساير الأمةُ المصريةُ غيرها من الأمم الناهضة فى سبل التقدم والعلاء . فأتاح لها ذلك العبقرى الفذ ، نابغة الأدهار ، وصفوة الأجيال والأعصار (محمد على الكبير) فهيأ الله لها على يديه عوامل الرقى والفلاح ، ومهد لها طرق العزة والنجاح ، فدفعها بقدم ثابتة إلى الأمام ، وخطا بها خُطا واسعة فى منافسة الأمم فى التفاضل والإقدام ، وبعث فيها روح الحياة القوية ، وأحيا فيها موات النهضة الكريمة ، وقادها بعزيمة ماضية إلى قمم الرفعة والسمو ، وشعفات العز والمجد .

كان محمد على من أفراد الدهر حقا ، ومن نوابغ الرجال بلا منازع ، وإن كان بعضهم يحب أن يقرن به رجالا من مشاهير عصره ، أمثال : عبد القادر الجزائرى ، وبشير الشهابى ، وعلى تبه دللى ، وشامل الداغستانى ، وأحمد الجزار . والحق أنه كان يفوق هؤلاء بسعة مواهبه ، وامتداد آفاق تفكيره . بل كان أكثر توفيقا وأبقى أثراء من نابوليون نابغة عصره الفريد فى الغرب . وأرى أنه ليس لمحمد على من شبيه فى أبطال التاريخ الإسلامى ، إلا أن يقرن

بأمثال عبد الملك بن مروان ، وأبى جعفر المنصور ، ومن جرى على نهجهم ، فى إقامة الدول ، وتأسيس الممالك .

٢ – محمد على وإبراهيم :

ومما منّ الله به على محمد على أن وهبه خير الأولاد ، وصفوة الأعضاد : إبراهيم . فكان قطب رحى حياته ، ويده اليمنى فى حروبه وغزواته . ولم يكن إبراهيم باشا بأقل من والده فى مزاياه ومواهبه ، ولا بدونه فى رسم خططه ومذاهبه . وهذا بلا شك توفيق من الله تعالى لم يتهيأ لكثير من أفراد الرجال . وما أحراها بقول شاعرة العرب (الخنساء) فى وصف أبيها وأخيها حيث تقول :

جارَى أباه فاقبلا وهما … يتعاوران مُلاءة الحُضْر
حتى إذا نزت القلوب وقد … لُزّت هناك العُذر بالعُذر
وعلا هُتاف الناس أيهما … قال المجيب هناك : لا أدرى
برزت صحيفة وجه والده … ومضَى على غُلَوائهِ يَجرى
أَوْلَى فأولَى أن يُساويهُ … لولا جلال السن والكبر
وهُما وقد برزا كأنهما … صَقران قد حَطّا إلى وكر

٣ – ولاية محمد على على مصر :

وكان تمام أمر ولاية محمد على علىّ الديار المصرية فى سنة ١٢٢٠ هـ ١٨٠٥ م وذلك بإجماع أهل الرأى واختيار العلماء والمشايخ، والوجوه والأعيان ، ورؤساء

العساكر ومقدمى الجيش ، وموافقة الباب العالى .

وهذه أول مرة فى تاريخ مصر يحدث فيها اختيار الحاكم بإجماع الأمة ، بمختلف طبقاتها ، ورضى الرأى العام فيها .

ولما استقر الأمر لمحمد على ، واستتب له النفوذ ، شرع فى أعمال الإصلاح بهمة جبارة لاتعرف الكلل ، وإزالة أسباب الفساد بعزيمة بعيدة عن عوامل الملل . فضرب على أيدى العابثين ، وأباد رؤس التوثب من الطامعين ، وما زال يعمل فى جد واجتهاد حتى أعاد الأمن إلى نصابه ، وأقر السلم فى قرابه . ثم اتجه نحو الأسباب الكفيلة بنهوض الأمة إلى مصاف الأمم الكريمة ، وبذل جهوده الموفقة فى جلب كل ما يفيد البلاد وينفع العباد ، ويعم الرعايا بالخير والإسعاد : من علوم عصرية ، وصناعات مدنية ، ونظم حديثة ، وعلماء أكفاء . مما هو مفصل فى تاريخه المجيد ... كما نظر فى مرافق الأمة من جهة الحكومة وأنظمتها ، وما يجب أن تكون عليه من الحكمة والسداد وحسن الإدارة ، حسب ما أرشدته إليه فطنته ، وأملته عليه خبرته . فصرف من عالى همته ما دبر به شؤونها ، وأحسن تقسيم مسؤلياتها ورتب أمورها ، وساسها بالحزم والإقدام ، وأجرى أعمالها على الضبط والإحكام . ماواتته الظروف وأعانته الوسائل واقتضاه الروح العام . ثم دفعها بقوة قاهرة إلى الأمام .

وكذلك توجهت إرادته القوية ، إلى الشؤون الادارية ، والحربية ، والعلمية والطبية ، والأدبية ، والتعليمية . تلك الشؤون التى تنشىء الرجال ، وتربى طبقات الأمة . فوجهها إلى الأهداف الصالحة . مما لم يسبقه إليه أحد من قبل .

وقد عُنى عناية خاصة بنشر أعلام الأمن فى أقاصى البلاد وأدانيها ، وإذاعة الطمأنينة فى ربوعها ونواحيها . فأمن الناس على أموالهم وأنفسهم ، وثمرات أعمالهم ، ومنتجات جهودهم . وبهذا كله جعل الأمة المصرية فى قليل من الزمن ، دولة تفوق بخصائصها ومزاياها : الدولة العثمانية : فى كثير من دواعى الثبات والاستقرار ... وكان فى إحياء هذه الأمة المصرية الكريمة وبعثها من رقدة الخمول ، وتمهيده لها مختلف السبل إلى العزة القومية ، والكرامة الوطنية : المثل المضروب على وجه الدهر ، والآية الباقية على الأيام .

العناية بالمولد النبوى

٤ — الموالد فى عهد محمد على :

وكان مما عُنى به محمد على باشا من الأمور التى تمنحها الأمة الكثير من اهتمامها ، والاحتشاد لها ، والتحفى بها : التفكير فى إحياء الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف . فلما حان وقته أمر بإقامة معالمه ، وأن تجرى الأمة فى إظهار مراسمه على ما جرت به عادتها ، وبالقدر الذى تسمح به الظروف وتقتضيه الأحوال

قال الجبرتى : فى يوم الثلاثاء ١١ من ربيع الأول سنة ١٢٣٠ هـ ١٨١٥ م كان المولد النبوى ، فنودى فى صبحه بزينة المدينة وبولاق ومصر القديمة . ووقود القناديل ، والسهر ثلاثة أيام بلياليها . فلما أصبح يوم الأربعاء ، والزينة بحالها إلى بعد أذان العصر ، نودى برفعها ... ففرح أهل الأسواق بإزالتها ورفعها . لما حصل لهم من التكاليف والسهر فى البرد والهواء . خصوصاً وقد حصل فى آخر ليلة رياح شديدة باردة .

قلت : إن النداء بإحياء ثلاث ليال من ليلة ١٢ من الشهر جرى على

غير المألوف ، فكان خطأ . ولهذا استدرك هذا الخطأ بإلغائه فى اليوم التالى وكان فى هذا الاستدراك ، رأفة بأهل الأسراق .

وصف الاحتفال بالمولد النبوى فى القاهرة

سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م

وفى هذا العهد كان العالم الإنجليزى (ادوارد وليم لين) يزور القاهرة ، فشاهد الإحتفال بالمولد النبوى ، فوصفه وصفاً شيقاً ، فكان طرفة من أحسن الطرف ، وجاء تحفة من أجمل التحف . وقد أثبته فى كتابه « أحوال المصريين الحديثين وعاداتهم » فرأيت من الخير إيراد هذا الوصف فى كتابى هذا لاطلاع قراء العربية عليه ، وإتماماً للفائدة العائدة منه . وقد تفضل حضرة صديقى المفضال الأستاذ محمد الصادق حسين بك ، بنقله عن الإنجليزية إلى العربية . فله جزيل الشكر وعظيم الأجر .

قال العلامة ادوارد وليم لين :

« فى أول ربيع الأول ، الشهر الثالث من شهور السنة الهجرية ، يبدأ الاستعداد للاحتفال بمولد النبى ، وأكبر ساحات هذا الاحتفال شأناً : الجزء الجنوبى الغربى لذلك الفضاء الواسع المعروف ببركة الأزبكية . وهو فضاء يكاد ينقلب كله فى موسم الفيضان إلى بركة . وفى هذه الحالة يكون الاحتفال على حفافى البركة . ولقد كان الحال كذلك لعدة سنين مضت . لكن جفاف البركة فى هذه السنة ، وفى موعد المولد ، جعلها الساحة اللائقة بالاحتفال .

« فى هذه الساحة أقيمت صيوانات كثيرة ، جلها للدراويش . وفيها يجتمعون كل ليلة للقيام بحلقات الذكر ، ما دام الاحتفال بالمولد . وبين

هذه الصيوانات ينصب «صارى» يثبت بالحبال ، ويعلق فيه من القناديل اثنا عشر ، أو أكثر . وحول هذا الصارى تقوم حلقة الذكر . وهى تتكون عادة ، من نحو خمسين أو ستين درويشا» .

«وعلى مقربة من حلقة الذكر ينصب «القائم» وهو مكون من أربعة «صوارى» فى خط مستقيم ، بين كل اثنين منها مدى بضع ياردات ، وقد شدت بينها ، ثم إلى الأرض تحتها ، حبال عدة ، علقت بها القناديل الكثيرة ، فى أوضاع مختلفة ، وأشكال منوعة ، يراها الرائى فى شبه أزهار ، وفى صور آساد ، وفى هيئات أخرى متناسقة . ومنها ما ترسم به كلمات كاسم الله ، أو اسم النبى ، أو كلمة التوحيد ، أو غير ذلك من الكلمات المأثورة . وقد تكون مجرد أشكال للزينة» .

«وفى اليوم الثانى من الشهر ، ينتهون من إقامة معالم الاحتفال ومعداته . فى العادة . ثم يشرعون فى اليوم التالى ، فى مظاهر الإحتفال ليلا ونهارا ، إلى الليلة الثانية عشرة من الشهر . وهى فى طريقة الحساب الإسلامية : الليلة السابقة لليوم الثانى عشر ، وهى ليلة المولد الكبرى . فى تلك الأيام التسعة والليالى التسع ، تحتشد الجموع فى الأزبكية» .

«وأنا أدون ملاحظاتى هذه فى أثناء المولد ، فأصف احتفال هذه السنة ، سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م ، وأذكر بضع أمور اختلف فيها احتفال هذا العام عن احتفالات الأعوام السابقة» .

«فى أثناء النهار يتسلّى الناس ، فى الساحة الكبرى ، بالاستماع إلى الشعراء ، وهم رواة «قصة أبو زيد» وبالتفرج على الحواة و «الخلابيص» وغيرهم .

أما الغوانى فقد أكرهتهم الحكومة ، من عهد قريب ، على التوبة وترك مهنتهن من رقص ونحوه . فلا أثر لهن فى احتفال هذه السنة . ولكن فى الموالد السابقة من أكثر العاملين فى الاحتفال اجتذابا للمتفرجين . وفى عدة أماكن من الشوارع المجاورة لساحة الاحتفال ، أقيمت « مراجيح » قليلة و « نصبات » لبيع الحلوى كثيرة »

« وفى بعض الاحتفالات الماضية كنت ترى من يلعبون على الحبال من « الغجر » لكن لا أثر لهؤلاء فى مولد هذا العام » .

« أما فى أثناء الليل فتضاء الشوارع المحيطة بساحة المولد ، بقناديل كثيرة تُعلق - غالبا - فى فوانيس من الخشب . ومن دكاكين المأكولات ونصبات الحلوى ما يبيت مفتوحا طول الليل . وكذلك القهاوى التى قد يكون فى بعضها ، وفى غيرها من الأماكن : شعراء ومحدثون ، ينصت إليهم كل من أراد من المارة » .

« وفى هذا الحى - فى كل ليلة من ليالى المولد - تمر مواكب الدراويش ، بعد منتصف الليل بساعة أو أكثر ، وهم فى مواكبهم الليلية هذه يحملون « مناور » وهى عبارة عن عصى طويلة فى أعلاها عدد من القناديل . وذلك بخلاف مواكبهم بالنهار ، فإنهم يحملون فيها رايات . والموكب من مواكب الدراويش ، يسمى فى عرفهم « إشارة الطائفة » سواء أكان من مواكب النهار بالرايات ، أم من مواكب الليل بالمناور » .

« وهؤلاء الدراويش ، أكثر ما يكونون ، من الطبقات الدنيا . وليس لهم زى خاص يمتازون به . بل جلهم يلبسون العمائم المعتادة . ومنهم من يقتصر

على الطربوش أو اللبدة . وغالبهم يلبس القمصان الزرق، أو الزعابيط . وهو زيهم الذى يظهرون به عادة فى أعمالهم اليومية ، أو فى دكاكينهم » .

« أما فى الليلتين الأخيرتين فيكون المولد أكثر زحاماً ، وأسباب التفرج والمسليات أعظم منها فى الليالى السابقة » .

« وسأصف فيما يلى ماشاهدته فى الأولى من هاتين الليلتين :

« كان القمر عاليا يبث الحياة فى مناظر الاحتفال . فذهبتُ إلى الشارع المعروف بسوق البكرى ، تبع بركة الأزبكية ، لأشاهد ذِكراً قيل لى إنه سيكون خير أذكار تلك الليلة . وكانت الشوارع التى اخترقتُها غاصة بالجماهير وقد سُمح للمارة بالتجول دون أن يحملوا فوانيس . أما النساء فلم يكد يكون لهن أثر بين المارة . وهذا مألوف بالليل . ولما وصلتُ إلى محل الذكر فى سوق البكرى، وجدتُه أكثر أماكن المولد ازدحاماً ، ووجدت به نجفة ضخمة قد عُلقت فى وسطه » .

(وهذه النجفة عبارة عن شمعدان ، بل عدة شمعدانات ، أكثر موادها الزجاج . وهى طبقات بعضها فوق بعض . وقد وُضعت بكيفية تجعلها كأنها شمعدان واحد)

وكان بالنجفة ما يقرب من مائتى قنديل أو ثلثمائة . وحول النجفة كثير من الفوانيس الخشبية ، قد تدلت من كل منها عدة قناديل » .

مولد الشيخ العشماوى

« ولم يكن الغرض من هذه الأنوار كلها مقصوراً على الاحتفال بالمولد النبوى . بل لوحظ فيها أنهـا قريبة من زاوية فيها ضريح (الشيخ درويش

العشماوى) وكانت هذه ليلة مولده . وعند زاويته هذه تقوم حفلة ذكر كل ليلة جمعة . ولكنها لاتبلغ من الفخامة مابلغته هذه الليلة ، بمناسبة المولد النبوى » .

« ومما لفت نظرى أنى شاهدتُ كثيراً من مسيحيى القبط بعمائمهم السود . ولما كنت لم أكد أرى منهم أحداً فى غير هذا المكان تلك الليلة ، وكنت أسمع الباعة يكثرون من الجهر بقولهم « ملحة فى عين اللى مايصلى على النبى » فكنت أحسب أن المسيحيين واليهود يكونون معرضين للأذى أو للإهانة على الأقل ، فى هذا الوقت الذى اشتدت فيه حماسة المسلمين ... وقد سألت عن السبب فى وجود كثير من الأقباط فى حفلة الذكر هذه ؟ فعلمتُ أن قبطيا منهم أسلم ، وهو الذى تبرع بكل نفقات الاحتفال بمولد الشيخ العشماوى »

« هذا ، وقد كان للشيخ العشماوى عند الناس مقام كبير . وكان مجذوباً يعمل مايعمل المجانين . وكثيراً ما كان يدوس على الخبز وغيره من المأكولات أو يقذف بها فى القاذورات . ثم يأتى من الأعمال مالا يبيحه الشرع ... ! ومع هذا ، فقد كان معدوداً من كبار الأولياء ... ! والناس يعدون مثل هذه الأعمال أثراً من آثار انصراف النفس إلى الروحانيات ... ! »

« أما وفاة الشيخ فكانت من نحو ثمانية أعوام » .

« جلس الذكيرة ، وكانوا نحواً من ثلاثين « مربعين » على حصر قريبة من البيوت ، فى جانب من الشارع . وكانوا حلقة فى شكل مستطيل ، وفى داخل الحلقة ، فى وسط الحصر ، أقيمت ثلاث شمعات كبيرة ، طول كل واحدة منها نحو أربعة أقدام . وقد أثبتت فى شمعدان قليل الارتفاع .

وكان أغلب الذكيرة (أحمدية) من الطبقات الدنيا، وفى زى حقير ، وعلى كثير منهم عمائم خضر . وقد جلس فى أحد طرفى الحلقة أربعة من المنشدين معهم صاحب « ناى » .

« أما أنا فقد حصلت ، من قهوة قريبة من الحلقة ، على كرسى من الجريد وبشىء من المجهود أعانى عليه خادمى ، تمكنت من أن أجد لى محلا مع المنشدين وهناك قعدت أشهد مجلساً كاملا من مجالس الذكر . وها أنا ذا أصفه وصفاً كاملا بقدر المستطاع ، كى يوجد فى ذهن القارئ صورة من مجالس الذكر الذى تألفه القاهرة وترضى عنه »

« بدأ الذكر فى نحو الساعة الثالثة ـ أى بعد الغروب بثلاث ساعات ـ واستمر ساعتين ... بدأه الذكيرة بقراءة الفاتحة معا ، بعد أن قال شيخهم أو رئيسهم بصوت مرتفع « الفاتحة » ثم تلوا مترنمين ، الدعاء الآتى ، وهو :

« اللهم صلّ على سيدنا محمد فى الأولين ، وصل على سيدنا محمد فى الآخرين ، وصل على سيدنا محمد فى كل وقت وحين ، وصل على سيدنا محمد فى عِلّيّين إلى يوم الدين ، وصل على الأنبياء والمرسلين فى السموات والأرضين . ورضى الله تبارك وتعالى عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وعن أوليائه المقربين . وحسبنا الله ونعم الوكيل . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . يا واسع المغفرة يا أرحم الراحمين . اللهم آمين »

« ثم لازموا الصمت ثلاث دقائق أو أربعاً ، ثم أخذوا فى قراءة الفاتحة سرا »

« أقول : وهذه المقدمة لمجالس الذكر ، مما اعتاده كل دراويش مصر

على اختلاف طوائفهم »

« بعد هذه المقدمة ، شرعوا فى الذكر وهم جلوس ، على الوصف المتقدم ، ينشدون على مهل : (لا إلـه إلا الله) [١] وهم فى إنشادهم هذا ينغضون رؤسهم ، ويثنون أجسامهم مرتين فى كل مرة ينشدون فيها : (لا إلـه إلا الله) ولبثوا على هذه الحال ما يقرب من ربع الساعة . ثم ردَّدوا هذه العبارة ، هذه المدة أيضاً ، ولكن بنغمة سريعة ، تصحبها حركات أسرع . وفى خلال ذلك يُنشد المنشدون ، موشحات أو قصائد ، بأنغام مناسبة لأنغام الذكر . وهذه القصائد والموشحات من قبيل أُنشودة سليمان وموضوعها ، فى العادة ، حب النبى ومدحه [٢] »

« وكان يتخلل الذكر صياح أحد المنشدين بقوله (مدد) ومعنى مدد ، فى هذا المقام ، استمداد العون الروحى من الله . وبعد أن فرغ الذكيرة من شأنهم أخذوا يُردِّدون قول (لا إلـه إلا الله) مدّة تقرب من المدّة التى قدمت ذكرها ، ولكن بنغمة جديدة . يبتدئون ببطء ثم يسرعون [٣] ثم

(١) وهنا وضع الكاتب طريقة الإنشاد فى نوتة موسيقية .

(٢) وهنا قال الكاتب : وإنى مورد هنا ترجمة موشح من تلك الموشحات ، وهى كثيرة . وإنما أترجم واحداً منها تريك أسلوبها . وهى مأخوذة من كتاب حوى جملة من تلك القصائد اشتريته فى هذا المولد من درويش برأس كثيراً من مجالس الذكر . وهو الذى اختار هذه القصيدة التى أترجمها لأنها مألوفة فى الأذكار . وقد أنشدت فعلا فى المجلس الذى أنا بصدد وصفه . ثم ترجم القصيدة شعراً باللغة الإنجليزية تحرى فيه التقرب من الأصل العربى بقدر ما استطاع . ثم اتبعها بغيرها وذكر وجه الشبه بينها وبين أنشودة سليمان ثم مضى فى الوصف .

أقول : يريد بأنشودة سليمان قطعة من نشيد الإنشاد الوارد فى بعض أسفار التوراة المنسوب لسليمان بن داود عليهما السلام .

(٣) وهنا رسم الكاتب نوتة موسيقية بطريقة الإنشاد .

نهضوا وقوفا بالترتيب الذى كانوا عليه وهم قعود ، وردّدوا العبارة نفسها بنغمة أخرى . وهنا انضم إليهم عبد أسود طويل القامة ، حسن البزة ، حملنى مظهره على أن أعرف من يكون ؟ فعرفت أنه خصى من خصيان الباشا [١] ثم أخذ الذكيرة يُردّدون عبارة (لا إله إلا الله) وهم لايزالون وقوفاً ، بنغمة عميقة ، وصوت أجش ، مشدّدين النبر على (لا) وعلى المقطع الأول من آخر لفظ الجلالة (الله) وأحسبهم كانوا يبذلون فى النطق شيئاً كثيراً من الجهد . فكان صوتهم أشبه بالصوت الذى تسمعه إذا ضربت على حافة طنبور . وكان كل ذكير يترنح إلى اليمين ثم إلى الشمال ، كلما ردد (لا إله إلا الله) » .

« أما الخصىّ الذى أشرنا إليه فقد صار ، فى هذا الدور من أدوار الذكر ، إلى حالة مايسمونه « ملبوس » أو « مطور » فكان يُلَوِّحُ بيديه وينظر إلى أعلى ، وقد تجهم وجهه تجهماً مخيفاً ، وأخذ يصيح بأعلى صوته ، فى عنف وسرعة ، بقوله : الله . الله . الله . الله . الله . ل . ل . ل . ل . ل . ل . ل . ل . ل . ل . ل . ل . لاه . ياعمى . ياعمى . ياعمى . عشماوى . ياعشماوى . ياعشماوى . ياعشماوى . ثم ضعف صوته تدريجاً ... ثم خر صريعاً ... بالرغم من أن الدرويش الذى كان بجانبه كان يسنده . وأرغى ، وأغمض عينيه ، واضطربت أعضاؤه ، وأمسك إبهاميه بأصابعه ... لقد انتابته نوبة لايظن من يراها أنها مفتعلة ، بل هى بلا شك نتيجة انفعال

---

(١) الباشا المراد هنا : هو محمد على الكبير . وكان فى ذلك التاريخ يوالى حروبه بالشام .

ديني شديد ، ولم يدهش لها أحد من الحاضرين . لأن أمثالها في مجالس الذكر كثيرة الوقوع . »

« في هذا الدور من أدوار المجلس بدت على الذكيرة أمارات الانفعال . فقد كانوا يذكرون بسرعة متزايدة ، ويديرون رؤسهم بعنف ، وينزلون بجميع أجسامهم ، بل منهم من كان يقفز ... واطّور الخصي مرات ... وقد لاحظت أن النوبات كانت تنتابه عادة عقب إنشاد المنشد بيتاً أو بيتين ، يجهد نفسه وهو ينشدهما ، في تهييج سامعيه . وفي الحق أن الإنشاد كان في ذوقي مما تستريح إليه النفس »

« وقبيل اختتام المجلس اطّور جندي شارك في مجلس الذكر من أوله فأخذ يزمجر بكيفية مزعجة ، ويحرك رأسه بعنف يَمنة ويَسرة . ومما يثير العجب خاصة ، بُعد ما بين حالة الذكيرة في ختام المجلس ، وحالتهم في مبدئه تلك حالة مجهود عنيف ، وهذه حالة وقار ورزانة وهدوء »

« هذا ، وقد جُمعت أثناء الذكر نقود للمنشدين . أما الذكيرة فلا أجر لهم »

« ولقد رأيت إشارة مرت بنا في مجلس الذكر الذي وصفته ، وهو ذكر يستمر طول الليل حتى أذان الفجر ، ولا يستريح الذكيرة إلا بين كل دورين . وفي فترة الاستراحة يتناولون القهوة عادة ، ومنهم من يدخن »

عود إلى المولد النبوي

« انتصف الليل قبل أن أتحول من هذا المكان إلى بركة الأزبكية ، فلما وصلت إليها وجدت بها أثراً غريباً لضوء القمر ، ونور القناديل ، وإن كان كثير من قناديل (القائم) وقناديل (الصاري) وقناديل الصواوين قد أطفئت

وشاهدت كثيراً من الناس نياماً قد افترشوا الأرض يأخذون قسطهم من راحة الليل ، وكان ذكر الدراويش حول الصاري قد انتهى ، فاعتمدت فيما يلي من وصفه على ماشاهدته في الليلة التالية »

« هذا ، وبعد أن شاهدت كثيراً من مجالس الذكر فى الصواوين عدت إلى بيتى لأنام »

« وفى الغد ، وهو اليوم السابق لليلة الكبرى ، ذهبت إلى الأزبكية قبل الظهر بنحو نصف ساعة ، فلم أجد خلقاً كثيراً هناك ، ولم يكن فى ساحة المولد كثير من دواعى تسليتهم . فلم أر هناك من الحواة والخلابيص المضحكين والشعراء ، سوى اثنين أو ثلاثة ، حول كل منهم حلقة صغيرة من المتفرجين والسامعين ... لكن لم تلبث الجموع أن زادت شيئاً فشيئاً . وأحسب أن ذلك راجع إلى رغبتهم فى مشاهدة منظر رائع تحتشد له كل عام ، فى مثل هذا اليوم ، جموع النظارة . ذلك منظر (الدوسة) وقد آن لى أن أصفه »

وصف الدوسة

« اليوم يوم الجمعة . وقد ذهب شيخ الطريقة السعدية ـ السيد محمد المنزلاوى ـ إلى مسجد الحسين ـ وكان هو خطيبه ـ ليؤدى صلاة الجمعة فيه . بعد أن قضى ـ كما يقال ـ شطراً من الليلة السابقة فى الخلوة ، مصلياً داعياً تالياً للقرآن . فلما قُضيت صلاته وخطبته ، قصد إلى بيت الشيخ البكرى ، وهو شيخ مشايخ الطرق الصوفية فى القطر المصرى . وبيته قبلى بركة الأزبكية ملاصق للبيت القائم فى الزاوية الجنوبية الغربية »

« وفى أثناء مسير السيد المنزلاوى من المسجد الحسيني إلى بيت البكري ،

انضم إليه جماعات من الدراويش (السعدية) وفدوا عليه من مختلف أنحاء العاصمة. ومع كل طائفة منهم رايتان من راياتهم»

«أما شيخهم هذا فشيخ أبيض اللحية، أبيض الوجه مليحه، عليه سيما الذكاء. وكان لباسه بش أبيض، وعلى رأسه قاووق أبيض لفت عليه عمامة زيتونية أقرب ما تكون إلى السواد، وعليها من الأمام شريط من قماش أبيض قد لف بميل. وقد ركب فرساً معتدل العلو والثقل. أذكر ذلك خاصة لسبب يظهر عما قريب»

«دخل الشيخ بركة الأزبكية يتقدمه موكب عظيم من دراويشه. وقف الموكب قريباً من بيت الشيخ البكري. وهنا تقدّم جمع لا يستهان به من الدراويش وغيرهم، وطرحوا أنفسهم على الأرض - أنا على يقين من أنهم نيَّفوا على الستين، وإن لم أتمكن من عدّهم - انبطحوا على بطونهم متجاورين جداً، ومدّوا أرجلهم، وضموا أيديهم ووضعوا عليها جباههم. ولم يكفوا عن ذكر الله همساً. ثم تقدّم نحو من اثنى عشر أو أكثر من الدراويش وجروا حفاة على ظهور إخوانهم المنبسطين على الأرض، ومنهم من كان يضرب على البازة ويقول (الله) بعد هذا يتقدّم الشيخ فيتلبث حصانه دقائق متردداً محجماً عن أن يطأ ظهر أوّل المنبطحين. فلما سحبوه من قدام واستحثّوه من خلف، تقدّم. ثم لم تظهر عليه أمارات الخوف، وأخذ يعدو بسرعة فوق ظهورهم جميعاً، يقوده رجلان يعدوان على المنبطحين، هذا يدوس على أقدامهم، وذاك على رءوسهم. ولا يلبث النظارة أن يصيحوا طويلا: الله. لا. لا. لا لاه، لاه»

« لم يبدُ على أحد ممن ديسوا على هذا النحو ، مايدل على أنه قد لحقه من الحصان أذًى ، بل كل منهم كان يثب بمجرد مرور الحصان عليه ، ويسير خلف الشيخ . ولاحظت أن كلا منهم أصابه من الحصان دوستان ، واحدة من رجله الأمامية ، وأخرى من رجله الخلفية »

« ويقال أن هؤلاء الدراويش وشيخهم أيضاً ، يتلون فى اليوم السابق ليوم الدوسة أوراداً ودعوات تعينهم على احتمال دوسة الحصان ولا يلحقهم منها ضرر . وأن غيرهم ممن لم يعتدُّوا بتلك الأوراد والدعوات لما عرضوا أنفسهم للدوسة ، قُتلوا أو أُصيبوا إصابات خطرة . وحدث ذلك غير مرة ، فى زعمهم . فهم لهذا يعدون عملية الدوسة كرامة لشيخ السعدية . ويزعمون أن ثانى شيوخ السعدية ، أى خليفة الشيخ الأول مؤسس الطريقة ، كان يدوس بحصانه أكواماً من الأوانى الزجاجية فلا تنكسر منها آنية . ومن الناس من يُصر على أنهم يخلعون حدوة الحصان قبل هذه العملية . لكنى أحسبنى لاحظت أن ذلك لم يكن الواقع . ومنهم من يقول إن الحصان يدرب تدريباً خاصا ، فإذا صح ذلك لم يكن تعليلا إلا لأقل حوادث الدوسة غرابة . أعنى كون الحصان يدرب على أن يدوس الناس . لكن المعروف أن الحصان الذى يستعمل فى الدوسة ينفر من دوس الناس نفوراً بيناً »

« هذا ، وقد لبث شيخ السعدية الحالى عدة سنين يرفض القيام بالدوسة ، ثم ألحوا عليه حتى أناب غيره فى القيام بها وقد نجح النائب ، وكان مكفوفا ، لكن الشيخ نزل بعد ذلك على حكم دراويشه ، وواظب على أن يتولى هو الدوسة » .

« وبعد أن فرغ الشيخ من هذه العملية العجيبة ، دون أن يقع حادث ما ، ولو طفيفاً على مايظهر ، دخل حديقة بيت البكرى راكباً ، ثم دخل البيت وليس معه إلا القليل من الدراويش .. وقد انضممت إلى من دخلوا البيت بمساعدة خادم كان عند الباب ، فرأيت الشيخ قد ترجل وجلس على سجادة فُرشت على البلاط إلى جانب أحد جدران التختبوش فى حوش البيت . جلس منحنيا مطرقا تترقرق عيناه بالدموع ، ولسانه لايكاد يكف عن البسبسة وكنت واقفا قريبا منه أكاد أكون إلى جانبه . وكان يجلس معه ثمانية أشخاص . أما الدراويش الذين دخلوا معه - وكانوا نحو العشرين - فقد وقفوا أمامه على حُصر فُرشت لهم فى شكل نصف دائرة . وأحاط بهم نحو خمسين أو ستين شخصا . ثم خرج من نصف الدائرة ستة دراويش وتقدموا قدر ياردتين ، نحو الشيخ وأخذوا يذكرون الله بقولهم (الله حى) ويضربون على الباز ، كل قد أمسك البازة بيسراه قابضا على الجزء الناتىء من أسفلها ويضرب عليها بسير قصير من الجلد . وهم على ذلك بضع دقائق إذا بعبد أسود قذف بنفسه وسط الدراويش وقد (اطَّوَّر) وصار (ملبوسا) وأخذ يُلَوِّحُ بيديه ويصيح : الله . لا . لا . لا . لا . لاه . فسنده بعض الحاضرين ثم لم يلبث أن أفاق وعاد إلى صوابه . ثم أخذ الدراويش جميعا يذكرون ثانية وهم وقوف فى شكل نصف دائرة ، وبعضهم يقول (الله حى) وبعضٌ (ياحى) وهم فى أثناء ذلك يتمايلون يمينا وشمالا ، وظلوا على هذا الحال نحو عشر دقائق . ثم أخذوا يصيحون : دايم . يادايم . وهم على حالتهم من الوقوف والحركات نحو عشر دقائق أيضا »

« وهنا شعرت بدافع ، لا قِبَل لى بمقاومته ، يدفعنى إلى أن أجرب الذكر معهم ، دون أن يفطنوا إلى أنى دخيل فيهم ، فدخلت فى صفهم ، واشتركت فى الذكر ، ونجحت إلى حد أنى لم ألفت أنظارهم ، ولكنى قد شعرت بحرارة شاعت فى جسمى لم أقو على احتمالها ... »

« وبعد انتهاء الذكر أخذ أحد القراء يرتل عشراً من القرآن بتجويد حسن . غير أنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى الذكر ، وظلوا فيه نحو ربع الساعة ثم أخذ أغلب الحاضرين فى لثم يد الشيخ ، وصعدوا إلى الطابق العلوى »

أكل الثعابين

«كان من عادة بعض السعدية ، فى مثل هذا الموسم ، أن يبدؤا بعد الدوسة ، بأكل الثعابين الحية . تلك العملية التى شاعت عنهم . وكانوا يأكلونها فى بيت البكرى ، على مرأى من جماعة مختارة . لكن شيخهم الحالى قد بذل مجهوداً حتى أبطل هذه العادة فى العاصمة منذ عهد قريب . وكان مصيباً فيما فعل . لأنها ليست من الإسلام فى شىء ، فقد حرّم فيما حرّم من الحيوان أكل الثعابين ، وذلك فضلا عن أنها مما تشمئز منه النفوس وتنفر الطباع ...

« ولقد كان السعدية ، عند زيارتى الأولى لمصر ، كثيراً ما يأكلون الثعابين والعقارب ، وكانوا قبل أكل الثعابين ينزعون أنيابها السامة ، أو يمنعون أذاها بثقب فكيها الأعلى والأسفل وربطهما من الجانبين بخيط من الحرير حتى لا تتمكن من النهش . أما الثعابين التى يحملونها فى المراكب دون أن يأكلوها فكانوا يخزمونها بحلق من الفضة بدل خيط الحرير وكان السعدي إذا أكل ثعباناً حيا ـ دفع إلى ذلك أو زعم أنه دفع إليه ، بشبه جنون ـ

فكان يضغط بطرف إبهامه ضغطاً شديداً على عنق الثعبان دون الرأس بنحو بوصتين . ثم يأكل الرأس والجزء الذى يليه إلى المكان المضغوط . وذلك على ثلاث دفعات أو أربع ، ثم يرمى بسائره »

« على أن تداول الثعابين ليس دائماً سليم العاقبة ، ولو كان المتداول من السعدية . فقد حدث منذ بضع سنين أن درويشاً منهم كان يسمى (الفيل) لضخامة جسمه وقوة عضله . كان أشهر آكلى الثعابين فى عصره ، بل يكاد يكون أشهرهم فى كل عصر ، رغب فى تربية ثعبان سام وجده بين مجموعة ثعابين جاء بها ابنه من الصحراء . فوضع الفيل هذا الثعبان فى سبت وأجاعه أياما ليضعفه ، ثم مد يده ليخرجه ويزيل أنيابه ، فعض الثعبان إبهامه ، فصاح مستغيثاً فلم يُغثه أحد ، ثم وجدوا ذراعه كله قد تورم واسود . فمات بعد بضع ساعات »

« لم يكن فى يوم الدوسة ما يستحق الذكر غيرها . وكان الاحتفال أقل مرحا من الاحتفالات السابقة ، لعدم اشتراك (الغوازى) فيه »

عود إلى المولد النبوى

« وفى ليلة المولد الكبرى ذهبت إلى الساحة الرئيسية . فرأيت ذِكرًا قوامه نحو ستين درويشاً حول صارى . وكان ضوء القمر كافياً لإنارة الساحة من القناديل . وكان الدراويش حول الصارى من طوائف مختلفة . لكن كان ذكرهم من النوع المألوف عند البيومية . وفى أحد مجالس هذا الذكر ، أو فى دور من أدواره ، كان الذكيرة يقولون (يا ألله) ثم يرفعون رءوسهم

ويصفقون جميعا بأيديهم أمام وجوههم . وكان داخل حلقة الذكر خلق كثير قد جلسوا على الأرض . ولبث الذكيرة يذكرون ، على هذا النحو ، مقدار نصف ساعة . ثم انقسموا جماعات كل جماعة من خمسة أو ستة . ولكنهم بقوا يكونون حلقة واسعة . ثم أمسك أفراد كل جماعة بعضهم ببعض ، كل منهم ، ماعدا الأول ؛ قد وضع ذراعه اليمنى على ظهر من يليه يسارا ، ويده على الكتف اليسرى ، كتف من يليه . ثم اتجهوا إلى النظارة خارج الحلقة وأخذوا يذكرون (الله) بصوت أجش عميق ، وهم فى هذه الحالة يتقدمون إلى الأمام خطوة ، ثم إلى الوراء خطوة ، مع تحرك كل منهم قليلا إلى اليسار ، فكانت الحلقة كلها تدور ولكن ببطء شديد ، وكان كل منهم يمد يده اليمنى نحو النظارة خارج الحلقة مشيراً بالتحية . وهؤلاء ، أو أغلبهم ، كانوا يردون السلام على الذكيرة ، وأحيانا كان بعضهم يقبل اليد الممتدة إليه إذا قابلت وجهه ، متى كانوا قريبين منهم »

« ومن العوائد المتبعة عندهم أن يسكت من فى الصواوين من الذكيرة ، متى كان الذكر حول الصارى »

« وقد شاهدت فى هذه الليلة مجلس ذكر آخر . وهو تكرار لمجلس الليلة البارحة ، فى سوق البكرى ، ولم يكن شىء سوى الذكر مما يجذب المتفرجين أو السامعين ، غير رواة القصص »

« وعند أذان الفجر انتهى الاحتفال ، وتقوضت مجالس الذكر بعد منتصف الليل بنحو ثلاث ساعات ؛ ماعدا الذكر الذى كان فى سوق البكرى وفى اليوم التالى أزيل القائم والصارى والصواوين وغيرها »

* * *

قلت : ومن الطبيعى أن يستمر العمل على إحياء ذكرى المولد النبوى الشريف ، والاحتفال به على الرسوم التى تجددت فى عهد محمد على باشا ، مع الافتنان بإظهار فخامته وجلاله ، والتوسع فى النفقات ، على ماجرت به العادة ، من توزيع الصدقات ، وإسداء المبرات ، وتعميم الخيرات ، والابتداع فى إقامة الزينات ، وشمول العناية به فى أنحاء البلاد ، طوال أيام أولاده ولاة مصر : إبراهيم ، وعباس الأول ، وسعيد ، وفى عهود أحفاده من الخديويين : إسماعيل العظيم الذى منح المولد من عالى همته ، وواسع كرمه ومروأته ماجعله غرة فى جبين الموالد التى سبقت العناية بها ، وأعاد له تلك التقاليد المحببة إلى نفوس الأمة ، والمشيعة فيها أسباب السرور والابتهاج . وكذلك كان فى عهد الخديو توفيق ، على قدر همته وعوامل ظروفه ،

٤ — المولد فى بيت البكرى

وكان لبيت السادة البكرية فى إحياء المولد النبوى ، الشأن العظيم ، والقِدْحُ المُعَلَّى ، والعناية الفائقة ، منذ دهر ، على مامر بك .

قال على باشا مبارك فى خططه :

« وللسادة البكرية ، فى ظل الدولة المحمدية العلوية ، من العناية فى كل عام ، مايتحدث بزائد شرفه الركبان ، ويفاخر به هذا الزمان على غيره من الأزمان ، لاسيما فى عهد الحضرة الفخيمة الخديوية ، وعصر الطلعة البهية التوفيقية . فإنه وصل فيها الاحتفال بأمر المولد النبوى الشريف إلى حده الأعلى ، وبلغ الاعتناء بشأنه المبلغ الأغلى .

«وذلك أنه فى أوائل العشرة الأخيرة من شهر صفر الخير من كل عام ، تصنع بمنزلهم بالخرنفش ، مأدبة فاخرة ، يدعى إليها كافة مشايخ الطرق والأضرحة والتكايا ، والوجوه والأعيان والذوات . فتدخل أرباب الطرق بالبيارق رافعين أصواتهم بالذكر والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم يعين لكل واحد من السادة الصوفية مايخصه من ليالى المولد الشريف لإحيائه»

«وفى اليوم الثانى تفتتح المقارئ بالمنزل المذكور ، مؤلفة من نحو مائتى قارئ [ممن يحسنون القراءة ويجيدون الترتيل] ويتلى أيضاً المولد النبوى الشريف بعد حزب البكرى . ولا تزال تحيا به الليالى تلاوة وذكراً ، بحيث يحضر إليه كل ليلة أرباب طريقة من الطرق ، مع إيقاد الشموع الجملة الكثيرة العظيمة ، مجتمعين جماعة جماعة ، رافعين أصواتهم بذكر الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تقدم . يعقبهم شيخهم ، فيستقبل بتلاوة الفاتحة ، ويخلع عليه فرجية من طرف السيد البكرى . ويؤمر بضرب خيامه فى المكان الذى عينته الحكومة للمولد الشريف ، بحيث تكون الخيام على شكل دائرة . ولا يزال ذلك إلى ليلة الرابع من شهر ربيع الأول . ثم تمر بساحة المولد الشريف كل ليلة ـ بعد ذلك ـ أرباب طريقة من الطرق التى لم تحضر بالمنزل قبل . حتى تنتهى إلى خيمة السيد البكرى . فبعد استقبالهم بالكيفية السابقة ، تخلع على شيخهم فرجية»

«وفى الحادى عشر من الشهر المذكور ـ الذى هو ختام المولد الشريف ـ تزدان خيمة السيد البكرى [بتشريف] الجناب الخديوى ، ويهدى السيد بفرو نفيس من قبله»

« ومما يزيد رونق الساحة بهاء ، وحسناً وازدهاء ، ما جرت به الخاصة السنية من ضرب خيام دواوينها هناك مزينة بأبهى زينة . لاسيما خيمة الحضرة الفخيمة الخديوية ، بجانب خيمة السيد البكرى المعينة له من الحكومة ، فإنها لا تزال تزدهى بالأنوار ، ويانع الأزهار ، إلى انتهاء المولد الشريف ... »

« أما خيمة السيد البكرى فإن لياليها جميع تلك المدة تكون زاهية بالتلاوة والدلائل والأذكار ، باهية من أضواء الشموع بسواطع الأنوار ، زاهرة أيامها بالخيرات وأنواع المبرات ، من إطعام الطعام ، وبذل الإكرام ، لعموم الزائرين ، وجميع الوافدين ، من أى جنس كان . وكذلك تكون خيام أرباب الطرق فى ليالى المولد الشريف »

« ويبلغ مقدار ما يصرف من طرف السيد البكرى فى شؤون المولد الشريف ، نحو ثلثمائة جنيه مصرى . والمرتب له من الحكومة السنية نحو ٣٥ جنيهاً »

* * *

قلت : هذا المبلغ الذى كان يصرف فى ذلك الوقت كان يناسب تلك الحالة . أما الآن فلا يكفى لذلك أضعافه . والذى أعلمه أن الحكومة المصرية لم تضن على بيت البكرى بالمزيد ، على تراخى الأعوام وتطور الظروف وتنقل الأحوال . وقد تعددت له طرق الإعانات والمساعدات ، وتنوعت جهاتها .

أما الاحتفال بالمولد فلا يزال على رسومه المعتادة فى هذا البيت . فقد حضرت بعض لياليه فى البيت المذكور بالخرنفش فى عهد مشيخة السيد عبد الحميد البكرى . كما شاهدتها فى سرادقه بساحة المولد بميدان الرصدخانة

بالعباسية ، فرأيت مصداق ما أثبته على باشا مبارك ، وأكثر منه وأفخم .
أما الشموع فقد مضى زمانها وخلفتها الأنوار الكهربائية ، التى تتلألأ فى سماء الدار والسرادق كالكواكب الدرية . غير أن الشموع لا تزال توقد بها بعض الفوانيس الخاصة بأرباب الطرق ، المصنوعة من أنابيب الصفيح والمكسوة بالقماش الشفاف ، وهم يحملونها بين أيديهم عند مسيرهم جماعات ويضعونها فى وسط حلقة الذكر عند شروعهم فيه .

* * *

وقد اطرد الأمر على ذلك مدة الخديوى عباس حلمى الثانى ، وأيام السلطان حسين كامل . رحم الله الجميع .

فى عهد الملك فؤاد

١ - عنايته الكبرى بالمولد :

أما فى عهد هذا الملك العظيم فؤاد الأول بن إسماعيل ، أسكنه الله فسيح جناته ، فقد رأينا الاحتفال بهذه الذكرى الكريمة ، ذكرى مولد النبى عليه الصلاة والسلام ، وبفضل عنايته ، وكريم رعايته ، رحمه الله ، بلغ الغاية التى لا ترام ، من الإجلال والاعظام ، وتناول الذروة العليا من البهجة والجمال ، والمنزلة السامية من العظمة والجلال . وشهدنا الزينات تتألق ، والخيرات تتدفق ، والصدقات توزع وتفرق ، والمبرات تمنح بسخاء ، لأهل الحاجة وذوى اللأواء ، ممن يغشون ساحة المولد بالعباسية . وحضرنا الولائم الحافلة تمد موائدها فى الكثير من السرادقات المقامة فى هذا الميدان الفسيح ، يصيب منها المدعوون ، ويتناول من ألوانها الوافدون ولا يحرم منها الواردون . على اختلاف طبقات الناس ، وتباين حالاتهم . وبهذا وأمثاله كانت أيام المولد مواسم ، ولياليه أعيادا بواسم ، يعم فيها السرور ، ويشمل فيها الابتهاج والحبور ، يتمتع بها كل رائح وغاد ، من صنوف أبناء البلاد .

٢ - اهتمام الحكومة بالمولد :

ولوزارات الحكومة المصرية فى هذا الموسم الكريم ، سنن وعادات وتقاليد ، تقوم على رعايتها والعناية بها خير قيام . فما من وزارة إلا لها سرادق خاص تقيمه فى ساحة المولد ، عند استهلال شهر ربيع الأول ،

يغشاه الزوار طوال أيام المولد ولياليه ، من جميع طبقات الأمة ، ويفد إليه الناس أفواجا من سائر أنحاء البلاد ، فيقدم لكل أحد منهم ما تشتهيه نفسه ، من أطيب المأكولات ، وأهنأ المشروبات ، وأنواع الحلوى والمسكّرات . ويتمتع الجميع بسماع آى الذكر الحكيم من مشاهير القراء ، ومهرة المجودين ، كما يستمعون مبتهجين لخطب الوعظ والإرشاد ، وما يلقى إليهم من بدائع قصة الميلاد . وكل ذلك من ذوى الأصوات الحسنة ، والإلقاء الجيد .

٣ - وزارة الأوقاف والموالد :

ولوزارة الأوقاف فى هذا الشأن ، فائق السبق ، ومتقدم الامتياز . فإنها كثيرا ما لا تكتفى بما تصنعه فى سرادقها من بالغ الحفاوة وعميم الإكرام ، وما تبذله فى أيام المولد ولياليه من صنوف الخير ، وأنواع الإحسان والبر ، بل لا تزال تجرى على سنن تفردت بها ، من توجيه الدعوة إلى كبار رجال الدولة من الوزراء والوكلاء ، وغيرهم من العظماء والوجوه والأعيان ، وزعماء الهيئات من العلماء والأدباء ، وسواهم من ذوى الأخطار وأرباب الوظائف بالحضور إلى الاحتفال الخاص الذى تقيمه عادة فى صبيحة الليلة الختامية للمولد الشريف بالمشهد الحسينى ، حيث يشنفون آذانهم بسماع ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، من أفاضل المقرئين ، ثم يستمعون إلى قصة المولد الشريف . حتى إذا ما انتهى قارئ القصة من إلقائها ، وزعت فيهم أنواع الحلوى والمسكّرات ، وصنوف النقل وسائغ المشروبات . كما تفرق الصدقات فى الفقراء والمساكين وذوى الحاجة . ويكون بذلك يوما من أجل أيام المولد الختامية ، وأحفلها بالخير والبركات .

عصر الملك فاروق الاول

١ – عهد الخير والبركة :

أما فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول ، فقد جرى الأمر فيه على النهج الذى رسمه والده العظيم الملك فؤاد الأول ، أسكنه الله فسيح جناته – من صرف بالغ العناية بمولد سيد المرسلين ، وإمام الهداة والمتقين : محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، والافتنان فى إحياء ذكراه الكريمة ، بما يليق به من الفخامة والجلال ، والأبهة والجمال . فقد رأينا آثار همة الفاروق العالية فى الاحتفال بالمولد الشريف ، وقد جاء آية من آيات الروعة والبهاء ، والبهجة والرواء .

٢ – وصف الاحتفال :

ومن الليالى الغر التى لا أنساها ما حييت ، ليلة الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١٣٦٤ ﻫ ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ والتى تعد بحق مثالا لما يجب أن يكون عليه الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف فى كل عام .

فقد شهدت فى ساحة المولد بصحراء قايت باى – المعروفة عند العامة بصحراء الخفير – معالم الزينة التى تأخذ بالألباب ، ومظاهر الاحتفال التى بدت فى شكل فخم ، ونظام جليل . هناك ، وفى هذا الميدان المترامى الأطراف ، أقيم السرادق الملكى البديع ، وقد تجلى فى زخارفه ، وماس فى أستاره ومطارفه ، وفرش بالطنافس الثمينة ، وصفت فى رحابه الأرائك المحلاة

بالذهب ، وانتثرت فى جنباته النمارق الموصوفة ، واسترسلت فى ساحاته الكلل الحريرية، ورفعت على سواريه الأعلام الملكية ، وعلقت فى مداخله المصابيح الباهرة الأنوار ، وفى سماواته الثريات الآخذة بالأبصار ، والجاعلة الليل فيه كوضح النهار . كما فرشت أرض الميدان بالرمل الأصفر والأحمر ، ووقف على أبوابه رجال الحرس الملكى فى ملابسهم المزركشة ، وشاراتهم الجميلة . وعلى مقربة منه رجال البوليس وحراس الأمن ، لحفظ النظام ، ومنع الزحام ، وتسهيل حركة المرور ، على الواردين فى السيارات ، والمقبلين فى العربات ، من مختلف الطبقات . ووفد على هذا السرادق وزراء الدولة ، وشيخ الأزهر وطوائف العلماء ، ووكلاء الوزارات ، ومديرو الإدارات ، ورؤساء المصالح ، وكبار الموظفين ، وقواد الجيش وصنوف الضباط ، وكبراء الأمة ، وأعيان الناس من ذوى المراتب والألقاب . وجميع هؤلاء قد وقف فى جلال ووقار ، انتظارا لتشريف حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، أو من ينتدب للإنابة عن جلالته فى حضور الاحتفال .

وفى قبيل الظهر بساعة ، بينما هذا الجمع الحاشد فى الانتظار ، إذ تعالت هتافات الجماهير المحتشدة على قوارع الطرق المؤدية إلى ساحة المولد : بحياة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، وحياة مصر الخالدة . فكان ذلك إيذانا بوصول الركب الملكى الفخم . وقد أقبل جلالته بوجهه المشرق على هذه الجموع مشيرا بيده الكريمة إشارة التحية والسلام . وكان إلى يسار جلالته فى عربة التشريفة الكبرى حضرة صاحب الدولة أحمد ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء (إذ ذاك) ولما اقتربت العربة من السرادق وأشرفت

طلعته البهية ، خف إلى استقبال جلالته : حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، وحضرة صاحبا السعادة رئيسا مجلسى الشيوخ والنواب ، وأصحاب المعالى الوزراء ، وعبد اللطيف طلعت باشا كبير الأمناء ، ومراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية ، والفريق إبراهيم عطا الله باشا ، وحسن يوسف بك وكيل الديوان الملكى ، وسائر كبار رجال القصر ، والياوران ، وبدوى خليفة باشا وكيل وزارة الداخلية ، ومحمد صبرى شهيب بك وكيل وزارة الأوقاف ، ومحمد عمر دمرداش بك وكيل وزارة الأوقاف المساعد ، ومحمود غزالى بك مدير الأمن العام ، والسيد محمد شاهين باشا محافظ القاهرة . وغيرهم من علية الناس الذين شذت أسماؤهم عن الذاكرة .

وممن شاهدتهم فى هذا الحفل العظيم ، من ممثلى الدول العربية والشرقية الشقيقة : صاحب الدولة السيد جميل مردم بك وزير خارجية الدولة السورية ، والشيخ يوسف يس نائب وزير خارجية الدولة العربية السعودية ، والسيد محمد صادق المجددى وزير دولة الأفغان المفوض ، والسيد تحسين العسكرى وزير الدولة العراقية ، والشيخ فوزان السابق القائم بأعمال المفوضية العربية السعودية والأستاذ تقى الدين الصلح بك مستشار المفوضية اللبنانية ، والدكتور فوزى الملقى القنصل العام لامارة شرق الأردن ، وغيرهم من رجال الدول الشقيقة .

وعند ما وصلت المركبة الملكية قبالة السرادق الملكى العظيم ، سُمعت طلقات المدافع تدوى تحية للمليك الكريم . وتعالت أصوات قوات الجيش هاتفة بحياة جلالة القائد الأعلى ثم أخذت الموسيقى تصدح بأنغامها الشجية ،

بالسلام الملكى . ولما ترجل جلالة الفاروق عن مركبته الملكية . تفضل بمصافحة مستقبليه فى سرور وابتهاج ، ثم شرف السرادق متصدرا الاحتفال فى هالة من الوزراء والعلماء وكبار رجال القصر . ثم لم يلبث أن نهض متجها نحو العلم ووقف تحت ظلاله يحف به رئيس مجلس الوزراء ، والوزراء ورئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى ، وكبار الحاضرين . فعرض بعض فرق الجيش من أسلحته المختلفة ، فكان أول ما عرض : فرقة الفرسان ، ثم فرقة الموسيقى الراكبة ، ففرق من السيارات الثقيلة والخفيفة برجالها ، ففرقة المدافع المضادة للطائرات ، ثم كتائب من المشاة ، فرجال سلاح الإشارة ، ففرقة القسم الطبى . وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تحى جلالة الملك عند مرورها بين يديه .

وبعد الانتهاء من عرض الجيش تقدمت بين يدى جلالته مشايخ الطرق الصوفية برجالها ومر يديها ، حاملين لأعلامهم وشاراتهم ، وكل شيخ يمر بين يديه يقف هنيهة لقراءة الفاتحة وتلاوة بعض الأدعية المأثورة ، بطريقتهم المعروفة ، فى القراءة والدعاء . ثم يهتفون جميعا بحياة الفاروق ثلاثا .

ولما انتهى مرور أصحاب الطرق ، عاد جلالته إلى السرادق الملكى ، حيث قدمت صنوف الحلوى ، وأنواع المرطبات ، فتناول منها جميع الحاضرين .

وبعد فترة قصيرة بارح جلالته السرادق الملكى، قاصدا تشريف سرادق السادة البكرية ، وما هو أن أشرف عليه حتى نهض حضرة صاحب السماحة السيد أحمد مراد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وحوله جمع من كبار المشايخ ، لاستقبال جلالته بما يليق بمقامه الكريم ، من الإجلال والتعظيم ولما شرف جلالته حفظه الله صدر المجلس الخاص قام حضرة صاحب

الفضيلة السيد محمد الببلاوى نقيب الأشراف ، وأخذ فى إلقاء قصة المولد الشريف ، وما هو أن وصل إلى ذكر مولده صلى الله عليه وسلم ، حتى نهض جلالة الملك واقفا، إجلالا وإعظاما، لهذه الذكرى الكريمة . وبوقوفه وقف الجمع الحاشد فى كمال الخشوع والإكرام . وعند الانتهاء من إلقاء القصة والدعاء لجلالة الملك المعظم ، بدأ القراء فى تلاوة ماتيسر من القرآن الكريم ، بترتيل حسن ، وتنغيم مطرب جميل . وجميع القراء من مشهورى المجودين ، ومذكورى الملحنين ، وأصحاب الأصوات الشجية ، والأنغام العذبة الندية ... ثم تقدم الخدم والفراشون بصوانى الحلوى وأكواب المرطبات ، إلى بين يدى جلالته ليتناول منها ما يشاء ، كما أديرت بعد ذلك على سائر الحاضرين ، فتناول كل أحد منهم ما لذ له وطاب .

وفى أثناء إلقاء القصة الشريفة لم تنقطع المدافع عن دويها المطلق بنظام محكم ، وترتيب بديع . كما أخذ المذيع بالراديو فى ترديد القصة من أبواقه لإسماع الجمهور . وبعد ذلك نهض جلالة الملك وقرأ الفاتحة ، وشاركه فى قراءتها جميع الحاضرين . وعندما هم بمغادرة السرادق أقترب من السيد الببلاوى وقبله . فرفع السيد يديه إلى السماء بحار الدعاء لجلالته بدوام العز ومديد العمر ، وأمن الحاضرون على دعائه . ثم تعالى هتاف الجماهير الحاشدة بحياة الملك الصالح فاروق الأول ، فرقى جلالته حفظه الله ، مركبته الملكية عائدا إلى القصر العامر ، تحف به القلوب وترمقه الأبصار .

٣ — الحكومة والاحتفال بالمولد :

ومن الرسوم المقررة ، أن تقوم الحكومة فى هذا الاحتفال العظيم بنصيب وافر ، وحظ كبير . إذ تقام سرادقاتها المختلفة متسقة أمام السرادق الملكى أبدع تنسيق . فترى سرادق وزارة المالية مجاوراً لسرادق وزارة الداخلية ، وإلى جانبه سرادق وزارة الأشغال ، فسرادق وزارة العدل ، فسرادق وزارة المعارف ، ثم المواصلات ، والزراعة ، والأوقاف ، والشؤون الاجتماعية ، والتجارة والتموين . يتوسطها سراق رآسة مجلس الوزراء ، ويقاربها سرادقات مجلسى الشيوخ والنواب ، فالأزهر الشريف والخاصة الملكية ، ومحافظة القاهرة . وكلها متجاورة وعلى أبعاد متفاوتة وقد فرشت هذه السرادقات بأنواع البسط والسجاد الفاخر ، من المصانع المصرية والشرقية . وصفت فى أرجائها المقاعد المذهبة ، والكراسى الموطأة ، ورفعت على سواريها الأعلام المصرية ، وأعدت فيها الثريات الكهربائية ، للإنارة ليلا .

وكذلك أقيمت سرادقات مشايخ الطرق الصوفية ، حافة بسرادق السادة البكرية ، وعلى جوانب سرادقات الحكومة . على الرسم المقرر . وعلى أبوابها البيارق ، وعلى سواريها الأعلام ، مزدانة بشاراتهم المعروفة .

٤ — زوار المحتفلين بالمولد :

وبعد مبارحة جلالة الملك المعظم ساحة المولد الشريف . أخذ الوزراء والوكلاء ، وكبار رجال الدولة ، وقادة الجيش ، ووجوه الأمة — فى زيارة

السرادقات على اختلاف أنواعها ، من حكومية ، وأهلية ، يتبادلون التهانى ويستمعون إلى قراءة القراء ، وأدعية الداعين ، وإنشاد المنشدين على حلقات الذكر ، ويتناولون صنوف الحلوى ، وألوان المرطبات ، والقهوة والشاى ، وهم فى خلال ذلك يتحادثون فى سرور ، ويتسامرون فى ابتهاج وحبور ، إلى الثلث الأخير من الليل . ثم ينصرفون فى أمن وسلام .

٥ - المولد فى سنة ١٣٦٥ هـ :

وفى ربيع الأول من سنة ١٣٦٥ هـ فبراير سنة ١٩٤٦ م شُرع فى إقامة معالم الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، فى ميدانه الفسيح من صحراء قايت باى . وفى هذه الساحة الكبيرة نصبت السرادقات على الرسم المعتاد ، بتنسيق بديع ، وترتيب جميل ، ورفعت عليها الأعلام ، وأعدت بمختلف الأنوار الكهربائية ، لإعادة الساحة فى لياليها نهارا ، وأخذت زخرفها وازّينت بكل أنواع الزينة المعتادة . وحفل الميدان بكل ذى قدر من رجال الحكومة وأعيان الأمة . ووقفوا صفوفا متراصة انتظارا لتشريف نائب الحضرة الملكية .

وما وافت الساعة الرابعة بعد الظهر ، حتى أقبل حضرة صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا رئيس مجلس الوزراء ، فى موكبه العظيم نائبا عن حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول حفظه الله . تحيط بركبه كوكبة من فرسان البوليس بقيادة أحد البكباشية . فلما وصل إلى باب السرادق الملكى ، صدحت الموسيق بالسلام الملكى ، وأطلق ٢٤ مدفعا تحية الاستقبال ، وحيته فرقة من جنود الجيش التحية العسكرية .

وكان فى استقباله ـ غير الوزراء والعظماء وكبار رجال الدولة ، وأعيان الأمة ـ الأمير سيف الإسلام عبد الله نجل الإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن ، وضيف مصر ، وسفراء الدول الشرقية ، ومفوضو الممالك العربية . فكان استقبالا حافلا . وجرت المراسم كالمعتاد .

ولما انتقل دولته إلى سرادق مشيخة الطرق الصوفية . ألقى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية ، قصة المولد الشريف ، بين يديه . ثم عاد دولته فى موكبه الرسمى بين التهليل والتكبير والدعاء بحياة جلالة الملك ، وتحية نائبه الكريم .

وجرت الرسوم كلها على ما سبق بيانه .

٦ – فى الأزهر الشريف :

وفى نحو الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الثانى عشر من ربيع ، أقامت إدارة الأزهر احتفالا شائقا بذكرى مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم .

٧ – خطبة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق :

وبعد افتتاح الحفلة بتلاوة ماتيسر من آى الذكر الحكيم ، نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر ، وألقى خطبة قيمة فى موضوع المولد الكريم جاءت آية من آيات البلاغة ، ومعجزة من معجزات البيان ، وقد تضمنت من الفكر الصالحة ، والآراء الناضجة ، مالا مزيد معه لمستزيد . ولما كان رحمه الله قد سبق له الاطلاع على نماذج من هذا الكتاب دعته إلى الثناء عليه والتشجيع على إعداده وطبعه

فقد تفضل وبعث إلى بصورة من الخطبة لإثباتها به . وهذا نصها :

قال رحمه الله تعالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم » :

« لم يكن من سنة العرب أن يحتفلوا بتاريخ ميلاد لأحد منهم . ولم تجر بذلك سنة المسلمين فيما سلف . ويظهر أن عادة الاحتفال بميلاد النبي عليه السلام ، من العادات المحدثة . اللهم إلا أن أهل مكة ـ فيما رواه بعض المؤرخين ـ كانوا يتبركون بزيارة الموضع الذي ولد فيه عليه السلام ، في يوم ميلاده . وما هي بالبدعة السيئة أن يجعل الناس يوما من أيام العام خاصا بتذكار محمد رسول الله ، أكبر أبناء آدم بركة على الإنسانية ، وأبقاهم في صحائف التاريخ أثراً » .

« لم تشعر الأمة العربية بذلك اليوم العظيم الذي وضعت فيه حملها الأيم الفقيرة آمنة بنت وهب ، أرملة عبد الله بن عبد المطلب . حتى لقد خفي على العرب عام ميلاد النبي . وخفي عليهم موضع الدار التي جاء لآمنة فيها المخاض ، واختلفوا في ذلك اختلافا كثيرا » .

« وقد يتبين من هذا أن ما ذكره بعض أرباب السير من أن إرهاصات وحوادث سماوية وأرضية وقعت في يوم مولده الشريف ، فيه من الغلو ما لا يقوم عند التحميص ، ولا يحققه التاريخ » .

« وليست سيرة النبي العظيم محمد بن عبد الله ، محتاجة إلى نافلة من خيال المؤرخين » .

إن محمداً لعظيم في طفولته بين ذُلّى اليتم والفقر ، وعظيم في كهولته

بين جلال الإسلام ومجد العرب . وهل حفظ التاريخ مجدا أكبر من مجد النبي العربي صاحب الدين الخالد ، والهدى الراشد ؟ ... »

« كان محمد في صدر حياته يشعر بما عليه قومه من سخافة عقائدهم ، واستيلاء الأوهام عليهم ، وتفرق كلمتهم ، وتفانيهم يتسافك الدماء بينهم ، وإشرافهم على الهلاك باستعباد الغرباء لهم ، وتحكم الأجانب في كثير من بلادهم . وكان يلتمس السبيل لتقويم عقائدهم ، وجمع كلمتهم ، وإيقاظهم من سباتهم ، وإصلاح شأنهم ، وإصلاح العالم بهم . فيحار في ذلك فكره ، ويضل فيه رأيه . « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى » .

« وللخلاص من هذه الحيرة كان يطلب الخلوة بغار حراء ، ويلتمس هداية ربه ، في جوانب قلبه ، وهو مملوء النفس هما وطموحا وقلقا ، حتى ملكت عليه هذه الخواطر كل مشاعره . فهو يشهدها يقظة ، وهو يشهدها مناما » .

« ولما بلغ سن الأربعين جاءه الوحي من الله ، وبُعث رسولا نبيا . فأدى بمكة رسالته ، يتحمل من قريش كل أذى في سبيل الله » .

« وأقام محمد بمكة صابرا على الفتنة ، جاهدا في الدعوة إلى ربه ، والهداية إلى الخير والبر ، يوافي المواسم ، يتبع الحاج ، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها ، قبيلة قبيلة ، يدعوهم أن يمنعوه حتى يُبلغ رسالات ربه ، فيردونه ويؤذونه خوفا من قريش ، ويقولون : قومك أعلم بك ! ولم يكن شيء من ذلك ليضعف من عزم محمد عليه السلام ، في بيان ما عليه الناس

من شر ، وإرشادهم إلى طريق الخير . وكان آخر ما نزل عليه من آيات القرآن بمكة : « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الذين إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينْ » .

« ثم لقى عند وفد يثرب من الأوس والخزرج ، معينا على نصرته ، فأعطوه موثقا . وأخذ يخرج إليهم من كان قد دخل فى الإسلام من أهل مكة . وخرج إليهم محمد مهاجرا فى سبيل الله ، تاركا وطنه وماله وأهله ليؤدى حرا أمانة الله ، وليؤدى شعائر دينه حرا » .

« ويروى أن محمدا حين خرج من مكة نظر إلى البيت وقال : والله إنك لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت . وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس . وكانت سن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلاثا وخمسين سنة . وذلك بعد أن بعثه الله بثلاث عشرة سنة » .

« هذه هى الحادثة الكبرى فى تاريخ انتشار الإسلام التى جُعلت بعد ذلك بداية للتاريخ الإسلامى » .

« تألفت فى يثرب التى سميت منذ الهجرة (المدينة) جماعة إسلامية تربطها وحدة العقيدة ، على اختلاف المناسب والديار ، وسوى الدين بين أفرادها فهم إخوة فى الله ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، وأمرهم شورى بينهم . وما محمد إلا رجل منهم اختاره الله لوحيه ورسالته » .

« قامت هذه الجماعة حية ناهضة بما بث فيها الإيمان من قوة وأمل

وشجاعة وصبر » .

« عاش محمد فى المدينة عشر سنين ، غزا فيها بنفسه سبعاً وعشرين غزوة . أما بعوثه وسراياه فكانت ٣٨ والذى يعرب عن سر الجهاد فى الإسلام ووجهة هذه الغزوات والسرايا ، هو ما جاء فى القرآن : « وقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ . وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنْ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ . فَإِنِ انْتَهَوا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ » .

« لم تكن حروب محمد طمعاً فى مال . فإن المجاهدين الأولين من المسلمين كانوا يؤثرون الموت فى سبيل الله لينالوا الشهادة والحياة الباقية « وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَاللهُ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » .

« لم تكن حروب محمد للإكراه فى الدين . فإن القرآن ينادى « لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ »

« كانت غاية محمد من حروبه ألا تكون فتنة ، ويكون الدين لله . وكان إذا أمّر أميرا على جيش أو على سرية ، أوصاه فى خاصته بتقوى الله ،

ومن معه من المسلمين خيرا . ثم قال : اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا » الحديث رواه مسلم

« وقد بذل محمد فى عشر سنين من الجهد العقلى والبدنى ، ما لا تقوم به طاقة البشر ، وهو يومئذ من عمره بين الخمسين والستين »

« ومضى محمد إلى ربه بعد أن بلغ الرسالة ، ورسخت دعائم دعوته ، وترك فى الناس دينا خالدا ، هو دين الإسلام »

« وقد جمع الرسول عليه الصلاة والتسليم صفوة دعوته وأصول دينه ، فى حديث ـ رواه مسلم ـ قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ـ وفى رواية غيرك ـ قال : قل آمنت بالله، ثم استقم .

ويقول الرسول لعمر بن الخطاب : أذن فى الناس أن من شهد ألا إلـه إلا الله وحده لا شريك له مخلصا ، دخل الجنة » .

« والإخلاص هو أساس الدعوة المحمدية ، وهو أساس الدين الذى جاء به محمد عليه السلام . ويدل على ذلك اسم هذا الدين (الإسلام) المأخوذ من السلامة وخلاص القلب . وفى القرآن الكريم : « يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ ولاَ بَنُونَ إلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »

٨ — وزارة الأوقاف والاحتفال :

وقد جرت وزارة الأوقاف بالاتفاق مع وزارة الشؤون الاجتماعية ، على سنة حميدة ، هى القيام بتنظيم محاضرات تلقى على الناس فى الوعظ والإرشاد ، فى أوقات متناسبة ، حتى يستطيع أكبر عدد ممكن من الاستفادة

من خطباء الوزارتين ووعاظهما ، فى تهذيب نفوسهم وإرشادهم إلى الخير فى دينهم ، والصلاح فى دنياهم . فينتشر الخطباء والوعاظ فى مختلف السرادقات المقامة بساحة المولد كل ليلة ، ويلقون على الناس ماينفعهم ويصلح من شأنهم ثم توزع من كل من الوزارتين أنواع الخيرات ، وصنوف المبرات ، على الفقراء والمعوزين . وكذلك تصنع سائر الوزارات فى صواوينها ، على أنحاء متفاوتة ، وأساليب متقاربة .

كما احتفلت وزارة الأوقاف ، على جارى عادتها ، بإلقاء القصة النبوية فى مسجد أبى عبد الله الحسين ، صبيحة المولد . ووُزعت أنواع من الحلوى والنقل والمرطبات ، على كل من شهد الحفل من غنى وفقير .

وكما يحدث فى سرادقات الحكومة من إسداء المبرات إلى الغادى والرائح فى ليالى المولد وأيامه ، يحدث مثله فى سرادقات أرباب الطرق الصوفية وغيرهم ، من الجماعات والهيئات والنقابات ، وبعض أهل الخير من الأفراد ، كل على قدر طاقته ، وأساليب افتنانه .

٩ — المولد فى سنة ١٣٦٦

وفى موسم سنة ١٣٦٦ هـ احتُفل بذكرى المولد النبوى الشريف فى جميع أنحاء البلاد ، وقد تجلت فى الاحتفال الرسمى الذى أقيم فى ساحة (الخفير) بالعباسية ، مظاهر الروعة والجلال ، فتعددت السرادقات فى جوانب الساحة ، يتوسطها سرادق الخاصة الملكية ، وإلى جانبه سرادق مشيخة الطرق الصوفية . ثم سرادقات الوزارات ، والبرلمان ، ومشايخ الطرق .

وحدات الجيش

وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، اصطفت وحدات الجيش المصرى فى مكان الاحتفال بأعلامها وموسيقاها . وكانت الجماهير قد احتشدت على جانبي الطريق ، وفى أنحاء الميدان حتى ضاقت بها على سعتها .

فى سرادق الخاصة الملكية

وما وافت الساعة الثانية والنصف حتى أخذ المدعوون يفدون على سرادق الخاصة الملكية ، يتقدمهم أصحاب الدولة والمعالى والفضيلة : رئيس الوزراء ، والوزراء ، وناظر الخاصة الملكية ، وفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، والعلماء ، ورئيس المحكمة الشرعية ، والمفتى ، ووكيلا وزارة الداخلية والأوقاف ، ومحافظ العاصمة ، ومدير الأمن العام ، ووكيل المحافظة وكبار الموظفين ، وضباط الجيش والبوليس .

نائب جلالة الملك

وفى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ، أقبل موكب صاحب السمو الملكى الأمير محمد على ، تتقدمه ثلة من فرسان البوليس ، فكوكبة من فرسان الحرس . وما أن وقفت المركبة التى تقل سموه أمام السرادق ، حتى صدحت الموسيقى بالسلام الملكى ، وأدت قوات الجيش والبوليس التحية الملكية وأطلقت بطارية المدفعية طلقاتها ، تحية لسمو نائب الملك ، ورفع العلم المصرى على السارية الكبرى المقامة هناك . وبعد أن صافح سموه مستقبليه ، جلس فى صدر السرادق وإلى يمينه شيخ الجامع الأزهر ، فشيخ مشايخ الطرق الصوفية

(الشيخ أحمد الصاوى) فالعلماء، وإلى يسار سموه : رئيس الوزراء، والوزراء .

عرض الجيش :

وبعد قليل عرض نائب الملك قوات الجيش ، حيث كانت موسيقى الجيش تصدح بنغماتها . وبعد العرض عاد سموه إلى السرادق ، فأديرت المرطبات والحلوى على الحاضرين . وقد شكر سموه لمعالى أحمد عطية باشا، وسعادة الفريق إبراهيم عطا الله باشا، على نظام الجيش ، وحسن العرض .

ثم تفضل نائب الملك باستقبال مشايخ الطرق الصوفية . وكانت كل طائفة منهم تحمل شاراتها وأعلامها ، فقرأوا الفاتحة ، وتلوا بعض الأدعية . ثم هتفوا بحياة جلالة الملك .

تلاوة القصة :

ثم قصد سموه إلى سرادق مشيخة الطرق الصوفية ، يتبعه كبار المدعوين حيث استمع إلى حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد الببلاوى نقيب الأشراف وهو يلقى القصة النبوية أمام مكبرات الصوت . ولما وصل فضيلته إلى ذكر مولد الرسول ، وقف سمو نائب الملك ، كما وقف الحاضرون ، إجلالا وتكريما . وبعد الانتهاء من القصة قرأ كل من الأستاذين الشيخ شديد الشطنوفى والشيخ محمد عبد الحليم ، بعض آى الذكر الحكيم . ولما هم سموه بالانصراف ، تحدث إلى فضيلة نقيب الأشراف . ثم عزفت الموسيقى بالسلام الملكى . وغادر نائب الملك مكان الاحتفال بين مظاهر التعظيم والتبجيل . وظلت السرادقات الأخرى تموج بزائريها يستمعون قارئ القرآن الكريم

حتى الثلث الأخير من الليل :

وكان من بين الذين رأيتهم فى زيارة مكان الاحتفال : رئيس بعثة سيلان الموفدة إلى الأزهر ، والسيدة قرينته . وثلاثة من ممثلى الإدارة الدينية الإسلامية فى التركستان الروسية .

وفى منتصف الساعة الثامنة مساء ، قام قسم الأسلحة والمهمات بإطلاق السهام النارية ، ابتهاجا بذكرى المولد الشريف .

وفى صبيحة يوم ١٢ من ربيع الأول ، عطلت أعمال الحكومة ، فى وزاراتها ودواوينها ومصالحها ، كما عطلت الأعمال فى الدوائر المالية والتجارية ، احتفالا بذكرى المولد النبوى الشريف . على جارى العادة . وقصد الكبراء والعظماء إلى قصر عابدين العامر حيث قيدوا أسماءهم فى سجل التشريفات ، رافعين فروض التهنئة والولاء إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم .

١٠ — فى المشهد الحسينى :

وفى منتصف الساعة الحادية عشر من هذا اليوم . احتشد المسجد الحسينى بجماهير من العلماء والكبراء والأعيان ، لسماع القصة النبوية . وحضر صاحب السعادة محمد السيد شاهين باشا محافظ القاهرة ، نائبا عن جلالة الملك ، يرافقه الأميرالاى عبد الفتاح نصر بك مساعد الحكمدار . فاستقبله هذا الجمع الحاشد . ولما أخذ مكانه من صدر المجلس قام صاحب الفضيلة الشيخ أحمد الصاوى شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وألقى القصة النبوية الشريفة . فلما وصل إلى ذكر مولده الكريم ، وقف سعادة نائب الملك والحاضرون ، تعظيما وإجلالا .

ثم زار سعادته ضريح الإمام الحسين ، وحجرة المخلفات النبوية . ثم بارح المسجد مودعا بالتجلة والإكرام .

١١ — احتفال الجماعات والهيآت :

وكثير من الجماعات والهيآت المؤلفة للأعمال الصالحة ، والأغراض النافعة ، يقوم بشؤون الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، بعناية وحفاوة ، وتبذل فى أيامه ولياليه وافر الصدقات ، وكريم المبرات . أمثال : جمعيات الشبان المسلمين ، وجمعية الدعاية للحج ، وجمعية البر والإصلاح الاجتماعى ، وجمعية مساجد الخلفاء الراشدين ، وجمعية المحافظة على القرآن ، وجمعية الوثبة المباركة ، وجامعة أدباء العروبة ، ونادى التجارة الملكى ، ونادى جبهة مصر ، ومؤسسة رباط الخدمة الاجتماعية ، وبعثات الكويت . كما يقوم بذلك : أسلحة الجيش المصرى ، والكلية الحربية ، وكلية الطب ، ومديرية الجيزة ، ونقابة الصحفيين . وغيرها مما لم تع الذاكرة أسماءها .

فى الإسكندرية

١٢ — الاحتفال بالمولد فى الإسكندرية :

أما فى الإسكندرية ، فإن الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف يبلغ فى أرجائها من الكمال غايته ، ومن البهاء والجلال نهايته . فقد قامت إدارة البلدية بتشييد سرادقها الفخم ، فى ميدان محمد على . وزانته بالأعلام المصرية وبالثريات والمصابيح الكهربائية ، ونضدت فيه المقاعد المذهبة ، والكراسى المنجدة ، وبسطت فيه الأبسطة والسجاجيد الفاخرة . وحضر الاحتفال به حضرة صاحب السعادة عبد الخالق حسونه باشا ، نائبا عن حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم . وكان فى استقباله حضرات : مدير البلدية العام ،

ومديرو المصالح ، وكثير من العلماء والأعيان وكبار الموظفين ، من مختلف الدوائر والإدارات . وبعد أن أخذ مكانه من صدر المجلس افتتحت الحفلة بتلاوة آى من الذكر الحكيم ، رتلها المقرئ الشهير الشيخ عبد الفتاح الشعشاعى بصوته الرخيم . ثم نهض الشيخ حمزة الحلوانى وألقى القصة النبوية . وبعد الانتهاء منها ، أعقبه الشيخ أحمد حسن حلفاية بمحاضرة فى موضوع الذكرى الكريمة . ثم تلاه السيد أحمد مختار الناضورى نقيب الأشراف بالاسكندرية ، بكلمة طيبة فى معنى الذكرى ، وما كان فى حياته عليه السلام من الموعظة والاعتبار ، والقدوة الصالحة للناس جميعا . وبعد ذلك بارح نائب الملك مكان الاحتفال مودعا من الحاضرين بمظاهر التجلة والتكريم ، والدعاء بحياة جلالة الملك العظيم . . ولبث الحاضرون فى السمر والذكريات ، والاستماع إلى محكم الآيات ، من مشاهير القراء ، حتى ساعة متأخرة من الليل .

١٣ — احتفال إدارة الأوقاف بالاسكندرية :

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم ، احتفلت إدارة الأوقاف فى مسجد أبى العباس المرسى ، بذكرى المولد النبوى الشريف ، وغص المسجد بالمدعوين ، وتوافدت إليه الجماهير من أنحاء المدينة . وحضر الحفلة صاحب السعادة محافظ المدينة ، نائبا عن حضرة صاحب الجلالة الملك حفظه الله . وبعد سماع القصة النبوية ، وزعت الحلوى والنقل على الحاضرين ، كما فرقت الصدقات فى الفقراء والمعوزين .

وكذلك أقيمت الزينات ، ومعالم الاحتفالات ، فى أنحاء المدينة ومساجدها

الشهيرة ، وانتظمت المواكب الصوفية ، فى كثير من أحيائها ، طوال أيام المولد ولياليه .

وكانت الحكومة أصدرت فى التاسع من شهر ربيع الأول ، منشوراً تذكر الناس فيه بما عليهم من واجبات الاحتفال بذكرى صاحب المولد الشريف ، وما تقتضيه من العناية والبذل ، فيما يعود على الناس بالنفع والخير ، مع الافتنان فى إقامة الزينات ، وإسداء المبرات . ولهذا كانت العناية بالاحتفال فى هذا العام شاملة سائر المديريات والمراكز والمدن والقرى فى أنحاء البلاد .

الاحتفال بالمولد فى الأقاليم المصرية

ومما تجب الإشارة إليه ، ويحسن إثباته فى هذا المقام ، أن الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، لم يكن قاصراً على القاهرة أو الأسكندرية ، ولم يستأثرا به دون غيرهما من مدن القطر وبلاده . بل إنه كان ومازال عاما فى الولايات والمراكز ، لا بل فى كثير من القرى والبنادر . وما برح الحكام والأعيان يقومون فى هذا الشأن بما يستوجب التدوين ، ولا يستحق الإغفال . وإنى أصف مايأتى عن مشاهدة حضور ومشاركة :

فقد رأيت فى البلاد التى اتفق لى الإلمام بها فى شهر المولد من العناية بالاحتفال به مايجدر عرضه فى هذا الكتاب تخليداً له : رأيت أعيان البلاد ووجوه المدن ، متى أوشك شهر ربيع الأول على الحلول ، يجتمعون لدى حاكم البلد ، إن كان مديراً ، أو مأموراً ، للتفاهم فيما بينهم على إحياء ليالى المولد الشريف كلها ، وكيفية إقامة الزينات ، وتسيير المواكب ، وتوزيع

الذبائح ، والتوسع فى إنارة المساجد ، وتنظيم حلقات الذكر داخلها أو فى الصواوين التى تنصب لذلك . وفى إمداد الطرق الصوفية بما يلزمها من الزيوت والشموع وغيرها ، وفى مد الموائد لإطعام الوارد والوافد ، وبسط الأسمطة للرائح والغادى من الفقراء وأهل الحاجة ، وتفريق أنواع الحلوى والنقل والمشروبات المسكَّرة على البادى والحاضر . ثم ينصرفون وقد تعهد كل واحد من موسريهم بالإنفاق على ليلة أو ليلتين ، من ماله الخاص .
وبهذا لا تلبث الزينات أن تقوم معالمها فى الشوارع والأسواق ، وتنصب الخيام والصواوين فى الساحات المعدة للاحتفال فى البلد ، وترفع الأعلام على سواريها . والمصابيح فى مداخلها وأبهائها ، وتتزايد الأنوار فى لياليها ، ويجتمع أرباب الطرق الصوفية لوضع النظم فى تسيير مواكبهم . فتنبعث فى أوقاتها المقررة ، أما فى النهار فتتقدمها أعلامها وبنودها ، وطبولها وزمورها فى الأزياء الحسنة ، والهيئات الجميلة . وأما فى الليل فتتقدّمها وتتخللها المشاعل الموقدة ، أو المصابيح البيضاء الكروية الشكل ، مضاءة ومرفوعة فى أعواد من الخشب مستطيلة ، يحملها فريق من الفراشين أو طائفة من الأتباع والمريدين . وفى أثناء هذه المواكب التى يسمونها (الزفف) يحمل بعض الأتباع نوعا من الفوانيس مصنوعا من أنابيب الصفيح ومغطى بالشاش الرقيق ، وبها الشموع المتقدة ... وبعضهم يحمل (البازات) وهى نوع من الطبول الصغيرة تمسك باليد اليسرى ويضرب عليها بسير من الجلد باليد اليمنى . وبعضهم يحمل الدفوف وينقر عليها نقراً يتناسب مع النطق بذكر الله تعالى .

تسير هذه المواكب يتلو بعضها بعضا ، كل شيخ طريقة بموكبه الخاص في بعض أحياء المدينة ، أو في شوارعها الكبيرة ، بين التهليل والتكبير ، وإنشاد المدائح النبوية ، والصلاة والتسليم على خير البرية ، مع قراءة بعض الأوراد والأدعية الخاصة بشيخ الطريقة الأول . حتى يصلوا ، إما إلى المسجد المقرر إقامة الاحتفال في جواره ، وإما إلى بيت السرى المتعهد بالإنفاق ، وإما إلى صيوان أكبر شيخ للطريقة في البلدة . حيث تقوم حلقة الذكر حول الصارى القائم في الوسط .

وعلى صاحب الليلة - أى المتعهد بالإنفاق عليها - مراقبة احتياجات كل شيخ طريقة ، أو صاحب حرفة مشترك في الاحتفال ، فيؤدى اليهم طلباتهم فورا . وذلك غير ما يقوم به من الولائم العامة ، وتوزيع اللحوم والخبز على المحتاجين ، والشموع وأصناف الحلوى على كل مريد أو طالب . وعلى الجملة يكون بيت هذا السرى أو صيوانه ، في يومه وليلته ، مصدرا لكل خير ، ومظهرا لكل بر ، وعاملا من عوامل السرور والابتهاج ... طوال أيام المولد ولياليه .

وفي يوم وليلة كل سرى ، يجتمع الناس في بيته ، أو في صيوانه ، أو في المسجد المتفق عليه ، لسماع آيات القرآن الكريم من مشاهير قراء البلد ، ويشهدون حلقات الذكر وإنشاد المنشدين وقراءة الأوراد والأحزاب والأدعية المأثورة . وفي أثناء ذلك تدار عليهم أكواب الشاى ، أو فناجيل القهوة ، أو بعض أنواع المشروبات المسكّرة .

وفي الليلة الختامية تفد على المدينة وفود هائلة من القرى المجاورة فترتج

البلد بهم ، وتسير المواكب فيها سيرا بطيئا لكثرة الزحام ، ويكون السرور شاملا ، والابتهاج عاما .

* * *

هذا ما شاهدته بنفسى فى عهد كل من الخديوى عباس الثانى ، والسلطان حسين كامل ، والملك فؤاد ، رحمهم الله جميعا . وقد كان ذلك فى طنطا ، والمنصورة ، والزقازيق ، وبنها ، ودمنهور ، وفى المحلة الكبرى ، وزفتى ، وميت غمر . كما علمت أن أمثال هذه الاحتفالات تقوم فى مديريات الوجه القبلى ومدنه . مع كثير من التنوع والتصرف على ما يقتضيه تخالف البيئات ، وتباين الحالات ، بين سكان الأقاليم واستعدادهم .

* * *

وهذا ما كان ، وما يزال يصنع فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف بالديار المصرية ، فصلته بما لا يحتاج إلى مزيد .

* * *

وقد رأيت إتماما للفائدة ، وإكمالا للموضوع أن ألقى نظرة على ما كان يصنع من ذلك فى بعض الممالك الإسلامية . وأن إفرده بباب خاص ، تراه بعد هذا . والله الموفق .

الاحتفال بالمولد فى الممالك الاسلامية

بعد أن وفيت موضوع البحث فى شأن الاحتفال بذكرى مولد النبى عليه الصلاة والسلام ، بالديار المصرية ، بكثير من التفصيل والإلمام ، عن لى أن أبحث فيما كان له من شأن فى بعض الممالك الإسلامية الأخرى ، ليكون الموضوع حائزاً صفة الكمال والشمول ، على قدر الإمكان . فوجهت رائد التنقيب والاستقراء ، وأعملت مطايا التحقيق والاستقصاء ، وما زلت جاداً فى ذلك حتى عثرت ، بعد جهد مضن ، على كلمات متفرقة ، وعبارات غير متلاحقة ، فى شتى المراجع ، ومختلف المصادر ، ومتباعد الأسفار ، فألفت بين متفرقها ، ولاءمت بين آبدها ، وجمعت شاردها بواردها . إلى أن استوى لى منها ما حسبته صالحا للعرض فى هذا الباب ، وما رأيته جديراً بالإفادة والاعتبار عند ذوى الألباب .

فى السلطنة العثمانية

١ — الأعياد الرسمية

كان لسلاطين آل عثمان عناية بالغة ، ورعاية فائقة ، بالاحتفال بجميع الأعياد والمواسم المعروفة عند الأمم الإسلامية كافة ، وكذلك كانت الأمة العثمانية ، على اختلاف أجناسها وشعوبها ، لها فى هذا الشأن نهوض محمود ، واهتمام ملحوظ . فكانوا كغيرهم من ملوك الإسلام وأممه وشعوبه ، يحتفلون بعيدى الفطر والأضحى . وكان لهم فى الاحتفال بهذين العيدين اختصاص

فى التفرد ببعض الرسوم .

٢ — رسوم عيدى الفطر والأضحى

فقد كان السلطان عبد الحميد يجرى فى الاحتفال بهذين العيدين على الرسوم التى جرى عليها آباؤه وأجداده ، من سلاطين آل عثمان . مع تفرده بخصوصيات دونهم ، اقتضتها ظروفه وملابساته . فكان يخرج من قصر «يلديز» العامر ، لصلاة العيد فى موكب فخم ، تحف به المهابة والجلال ، إلى جامع بشكطاش ، وتعلوه الأبهة والجمال . وقد ارتدى جلالته حلة ملازم من ضباط الجيش ، وعلى صدره النيشان العثمانى العلى الشأن . وبعد أن يؤدى صلاة العيد ، يقدم إليه جواد مطهم من خيرة الجياد السلطانية . فيعلو صهوته ، ثم يسير فى موكبه الباهر ، ويمشى بجوار ركابه الغازى عثمان باشا ، يليه الصدور والوكلاء والوزراء . وجميعهم مشاة على مقربة من جواد السلطان ولا يزال الموكب سائراً بين تهليل الشعب وتكبيره ، وجنود الجيش متراصة على جانبى الطريق ، حتى يصل إلى سراى (طوله بغجه) فيترجل متجها نحو القاعة الكبرى حيث يجلس على تخت السلطان الغورى المرصع باللؤلؤ والياقوت ، والمحلى بالذهب الإبريز .

وهو التخت الذى استلبه السلطان سليم من مصر فيما استلب من تراث سلاطينها .

ثم تجرى التشريفات فيكون أول من يمثل بين يدى جلالته ، نقيب الأشراف . فينهض السلطان واقفا لاستقباله . فيهنئ ويدعو بطول العمر ودوام التأييد . ثم يدخل الصدر الأعظم فيقبل طرف ثوبه . وكذلك يفعل

شيخ الإسلام . ثم يُؤْذن للوكلاء فيدخلون منحنى الرؤوس فيقبلون رجله ويقفون بإزائه صفا . وهنا يجلس جلالة السلطان . ثم يؤذن بالدخول لأرباب المناصب ، فيدخلون على طبقات مراتبهم القلمية والملكية والعسكرية فيقبلون (السجق) وهو عبارة عن هداب من الحرير ، يمسك أحد طرفيه الغازى عثمان باشا وهو واقف عن يمين التخت . فإذا انتهت التشريفات عاد السلطان فى مركبته الملوكية الخاصة ، وفى موكبه الفخم : إلى قصر « يلدز » وهناك يتلقى التهانى والتبريكات من سفراء الدول بواسطة تراجمتهم .

* * *

هكذا كان الشأن فى الاحتفال الرسمى بالعيدين ؛ ولا يتمايزان إلا بشىء واحد ، وهو أن الخطيب فى عيد الفطر كان لا يعدو فى خطابته أن يروى من الأحاديث إلا قوله (إن الله جميل يحب الجمال) كما لا يعدو فى خطبة عيد الأضحى قوله (سمنوا ضحاياكم) .

وهذا الالتزام لم يحدث إلا فى عهد السلطان عبد الحميد فقط . أما فى عهود غيره من السلاطين المتقدمين ، فقد كان الخطيب غير مقيد إلا بما يدعو إليه الشرع ، ويتفق والتقاليد الموروثة .

ومما كان يمتاز به عيد الأضحى أن السلطان يأمر بنحر ثلاثين كبشا توزع لحمانها على من يقع عليه الاختيار . وكان يقوم بنحر هذه الكباش عن جلالته ، موظف خاص يسمى (قربانجى باشى) .

٣ — رسوم عيد أول السنة :

وأما عيد أول السنة ، فقد كان السلطان يأمر بأن تضرب فيه نقود

بالضربخانة السلطانية بالآستانة ، مؤرخة بالعام الجديد . وكان يصرف من هذه النقود الجديدة على رجال الدولة ، ووجوه الأمة ، ممن يفدون على السراى السلطانية للتهنئة والتبريك ، بحسب درجاتهم ورتبهم ، من ألف ليرة عثمانية إلى ليرة واحدة .

٤ — رسوم عيدى الميلاد والجلوس السلطانى :

وأما عيدى الميلاد والجلوس السلطانى ، فقد كان يحتفل بهما فى عاصمة الدولة (الآستانة العلية) كما كان يحتفل بهما فى سائر الولايات العثمانية ، احتفالا شائقا ، يتردد صداه فى أنحاء البلاد ، بما تكتبه الصحف والمجلات من بارع الأوصاف ، وفائق عبارات التمجيد والتفخيم . وقد كانت مصر تُعنى بالاحتفال بهما عناية خاصة ، كما شهدناه بأنفسنا . وكان الشعراء ، منهم : شوقى وحافظ وحفنى ناصف والسيد توفيق البكرى وغيرهم ، يتبارون فى نظم القصائد ، فى مدح السلطان ووصف أعياده ، وربما تضمنت بعض القصائد شيئا من الأمور السياسية ، ويكون لذلك موسم عظيم بحديقة الأزبكية ، تعمل فيه المباريات ، وتوزع الجوائز للمتفوقين .

٥ — المواسم الرسمية :

موسم ليلة النصف من رمضان :

وكان يحتفل بليلة النصف من رمضان احتفالا رسميا شائقا ، فى السراى القديمة التى كان يسكنها سلاطين آل عثمان . وهى واقعة على بوغاز البوسفور ومتصلة بجامع آيا صوفيا من جهة ، وبالباب العالى من جهة أخرى . وكانت

تحوى المخلفات النبوية الشريفة، موضوعة فى صندوق من الفضة الخالصة

وهذه المخلفات هى ـ فيما يزعمون ـ : البردة النبوية ، وسن من أسنان المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبضع شعرات من شعره الشريف ، وقطعة من رايته التى كانت تسمى (العُقاب) ونعاله ... ومنها أيضاً إناءآن من الحديد . يزعمون أنهما كانا للخليل إبراهيم عليه السلام وأنه كان يشرب بهما الماء من بئر زمزم . وذراع يقال إنه كان ليحيي بن زكريا عليهما السلام . وجبة كانت للإمام أبى حنيفة النعمان .

وكان الرسم المقرر أنه متى استهل شهر رمضان ، يجرى انتخاب عشرة من العلماء . وعلى كل عالم من هؤلاء المنتخبين اختيار عشرة من طلابه الأذكياء . وبهؤلاء جميعاً تعقد مجالس العلم فى شكل أقواس . وعلى العلماء طوال ليالى الشهر إلقاء محاضرات فى تفسير القرآن الكريم ، يتخللها أسئلة توجه إليهم من الطلاب . وكان يقع ذلك كله بمشهد من جلالة السلطان ، وبمسمع منه .

وقد كان من الرسم أن يتناول جلالة السلطان طعام الإفطار فى هذه السراى ، أغلب ليالى الشهر المعظم . وكان يُدعى إلى مائدته السلطانية عظماء الدولة ، وكبار رجال المابين ، وقواد الجيوش العثمانية ، وبعض أكابر الضيوف ، وغيرهم من ذوى الأخطار ، وأرباب الدرجات والمراتب العلية ، من ملكيين ، وعسكريين ، كما يُدعى إليها غيرهم من العلماء والوجوه والأعيان . وكان الرسم أن يُعطى لكل من يتناول طعام الإفطار على المائدة السلطانية فى هذا الشهر المبارك ، مبلغ من المال يسمى باللغة التركية (ديش كراسى)

أى أجرة الأسنان .

٦ — مواسم أخرى :

وكان هناك ، غير ذلك ، ليال يحتفلون بها ، وتسمى (ليالى القنديل) وهى خمس ليال ، هى : ليلة القدر ، وليلة المعراج ، وليلة النصف من شعبان . وهذه الليلة تسمى بالتركية (ليلة برات) وليلة الجمعة الأولى من رجب ، وتسمى بالتركية (ليلة رغائب) والخامسة ليلة المولد النبوى .

وتسمية هذه الليالى (بليالى القنديل) ترجع إلى أن جميع منائر الجوامع والمساجد توقد فيها بالقناديل . وكان الاحتفال بهذه الليالى على الرسم الذى يحتفل به فى ليلة المولد النبوى الشريف ، وهى التى نعرض لوصفها بعد .

* * *

وما ذكرت هذه الأعياد والمواسم ، إلا لتكون نماذج لما كان لها من شأن فى بلاد السلطنة العثمانية قبل أن ينقلب فيها الحال وتصير جمهورية . ولأن الباحث المنقب لا يستطيع العثور عليها فى غير هذا الكتاب .

٧ — الاحتفال بالمولد النبوى فى الاستانة

لم أعثر على شىء أصف به ما كان من الاحتفال بالمولد النبوى الشريف فى عهود الماضين من سلاطين آل عثمان . الذين لاشك أنهم كانوا يولون هذا الاحتفال عناية مشكورة . ولذلك فقد رأيت بعد البحث والتحرى الاكتفاء بعرض ما كان من ذلك فى العهد القريب



السيد جمال الدين الأفغانى

فى عهد السلطان عبد الحميد

وقد لمحت فى مطالعة خاطفة أن السلاطين السابقين كانوا يحتفلون بالمولد النبوى فى أحد الجوامع الكبيرة بالآستانة، حسب اختيار السلطان .

فلما تولى السلطان عبد الحميد فى سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م ، قَصَر حفلاته التقليدية على الجامع الحميدى .

فقد كان الاحتفال بالمولد فى عهده ، متى كانت الليلة الثانية عشر من ربيع الأول ، يحضر إلى باب الجامع عظماء الدولة وكبراؤها . وفيهم الأمراء والمشيرون ، والعلماء ؛ وذوو المراتب العلية ، وكبار أرباب الوظائف بأصنافهم ، وجميعهم بالملابس الرسمية وكساوى التشريفة ، وعلى صدورهم النياشين تتلألأ بأنواعها . ثم يقفون فى صفوف متراصة ، ونظام تام ، انتظاراً لتشريف صاحب الجلالة السلطان .

وفى هذه الليلة يخرج جلالة السلطان من قصر يلدز العامر ممتطيا جواداً مطهما ، من خيرة الجياد السلطانية . بسرج من الذهب الخالص . وقد حَف بجلالته موكب فخم ، ورُفعت على رأسه الأعلام ، وأنيرت الثريات بالشموع الموكبية ، أو بالسواطع الكهربائية . ومشى فى ركابه الغازى عثمان باشا وأحدقت به الصدور العظام ، والوزراء الفخام . ويسير هذا الموكب بين صفين من جنود الجيش العثمانى فى أبهة وجلال ، وخلفهما جماهير الأمة ، إلى أن يصل إلى باب الجامع ، وهناك يترجل جلالته ، وقد يكون فى استقباله : شيخ الإسلام ، والسيد جمال الدين الأفغانى ، والسيد فضل باشا العلوى ، والسيد أسعد القيصرلى المدنى ، والسيد أبو الهدى الصيادى ، وناظر الأوقاف ،

وبعض رجال الخاصة السلطانية . ثم يدخل باب الجامع ويجلس فى مكانه الخاص فإذا تمكن فى مجلسه بدأ القراء بقراءة آيات من الذكر الحكيم . ثم يقف المختص بقراءة القصة النبوية الشريفة ، فإذا انتهى منها أخذ فريق من الصوفية فى قراءة دلائل الخيرات . ثم ينتظم بعض مشايخ الطرق فى حلقات الذكر ، فينشد المنشدون وترتفع الأصوات بالصلاة والسلام على خير الأنام ، وبالدعاء للحضرة السلطانية بطول العمر ودوام التأييد .

وبعد فترة ينهض جلالته فى أبهته وبهائه ، فيمتطى جواده ، وأحياناً مركبته السلطانية ، عائداً فى موكبه الفخم إلى مقر عرشه بقصر يلديز . وتكون العساكر فى حال مجيئه وذهابه ، لاتزال واقفة بنظام ، تحت إشراف ضباطها العظام ، تستقبله بالتحية وتودعه بالسلام ؛ وفى خلال ذلك لاتزال الموسيقى الشاهانية ، تصدح بأنغامها الشجية .

وفى صباح اليوم الثانى عشر من ربيع ، يفد على أبهاء المابين كبار الدولة على اختلاف رتبهم ، لتهنئة الحضرة السلطانية . كما يهنئ بعضهم بعضاً بهذه الليلة المباركة .

ومما لاريب فيه أن هذه الأعياد والمواسم ، والليالى المباركة ، كانت توزع فيها الهدايا والصدقات ، وتفرق فيها المنح والهبات ، ويتذوق فيها فريق من أهل الخصاصة بعض مايفرج كروبهم ، ويلطف من وطأة العيش عليهم . كما كان أرباب الطرق الصوفية يساهمون فى إحيائها بنصيب وافر ، فى تكاياهم ومنازلهم ، فى جميع أنحاء بلاد السلطنة .

الاحتفال بالمولد فى تلمسان

كان فيما وقفت عليه من الاحتفالات بالمولد النبوى التى تسترعى النظر ، ما كان يحدث من ذلك فى مملكة تلمسان من ممالك أفريقية الإسلامية . فقد كان سلاطين آل زَيّان أصحاب هذه المملكة يحتفلون بالمولد الشريف ، على رسوم وتقاليد ، غاية فى البهجة والجلال . وكانوا يتبارون فى الحفاوة به ، والافتنان فى شؤونه ، بما يجعل رسومه وتقاليده متجددة . . لا سيما فى عهد السلطان (أبو حَمُّو) من آل زيان . فقد عنى به عناية خاصة تفوّق بها على أسلافه . وقد كان ذلك فى القرن الثامن للهجرة .

وقد ذكر الحافظ أبو عبد الله التنسى التلمسانى ، فيما نقله عنه العلامة المقَّرى فى نفح الطيب ، أن هذا السلطان (أبو حَمُّو) كان يحتفل بليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم . كما كان ملوك المغرب والأندلس فى ذلك العصر وما قبله . قال :

كان [السلطان أبو حمُّو] يقيم ليلة الميلاد النبوى بمَشْوَرِهِ من تلمسان المحروسة ، بمدعاة حفيلة ، يحشر فيها الأشراف والسوقة ، والخاصة والعامة . فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابىّ مبثوثة ، وبسط مُوَشَّاة ، ووسائد بالذهب مُغَشَّاة ، وشمع كالاسطوانات ، وموائد كالهالات ، ومباخر كالقباب ، يخالها البصر التبر المذاب . وقد رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال ، وقد علت الجميع أبهة الوقار والجلال . وتقدم إليهم أنواع الأطعمة ، كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، مما تشتهيه الأنفس وتستلذه النواظر ، ويخالط حسن

رياها الأرواح ويُخامر . وأعيان الحضرة على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملوّن ، وبأيديهم مباخر ومِرَشّاة [يتبخر منها الحضور ، ويتطيب بطيبها الجمهور] وينال كل منها بحظه . وبعقب ذلك يحتفل المُسْمِعُون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبمكفرات ترغب فى الإقلاع عن الآثام . يخرجون فيها من فن إلى فن ، ومن أسلوب إلى أسلوب . ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس ، وترتاح إلى سماعه القلوب .

وبالقرب من [مقعد] السلطان ، خزانة (المنجانة) وقد زخرفت كأنها حلة يمانية ، ذات تماثيل لُجَين محكمة الصنعة ، وبأعلاها أيكة تحمل طائرا ، فرخاه تحت جناحيه ، وفى جذر الأيكة كَوة يخرج منها أرقم يذهب صاعدا لِيختِل أحد الفرخين . وبصدر الخزانة أبوابٌ مُرتجة ، على عدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوقها ـ دُوين الرأس ـ قمر يسير على خط الاستواء ، سير نظيره فى فلك السماء . ويسامت أول كل ساعة بابها المُرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عُقابان ، فى مِخلب كل واحد منهما صَنجة صُفر يلقيها فى طست من الصفر مجوف ، بوسطه ثقب يفضى إلى داخل الخزانة ، فيرنّ ، ويقع النقر بقدر حساب الساعات الماضية من الليل . ويحاول الأرقم نهش أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، فعند ذلك يفتح باب من أبواب الساعات الذاهبة فتبرز منه [دُمية] جارية صُوِّرت فى أحسن صورة كأظرف ما أنت راء ، وفى يدها اليمنى رقعة مشتملة على أبيات من الشعر فيها اسم الساعة . فتضعها بين يدى السلطان بلطافة ، ويدها اليسرى على فمها ، كالمبايعة بالخلافة .

أما الأبيات التى ترد فى رقعة الجارية فهى ؛ إذا مضى من الليل ساعتان :

أَخليفةَ الرَّحمٰن والملك الذى   تعنو لعز عُلاه أملاك البشر
لله مجلسك الذى يحكى عُلا   بك مالكى أفق السماء لمن نظر
أو ما تُرى فيه النجوم زواهر   وجه الخليفة بينهن هو القمر
والليلُ منه ساعتان قد انقضت   تُثنى عليه ثنا الرياض على المطر
لا زال هذا الملك منصوراً بكم   وبلغت مما ترتجى أسنى الوطر

وفى مضى ثلاث ساعات :

أَمولاَى يابن الملوك الأُلَى   لهم فى المعالى سَنِىُّ الرتب
توالت ثلاث من الليل أبقت   لك الفخرَ فى عُجمها والعرب
فَدُم حجة الله فى أرضه   تنال الذى شئته مِن أرب

وفى مضى ست ساعات :

يا ماجداً وهو فرد   تخالهُ فى عساكر
ستٌّ من الليل وات   ما إن لها من نظائر
دامت لياليك حتى   إلى المعاد نواضر

وفى مضى ثمان ساعات :

يا أكرم الخلق ذاتاً   وأشرفَ الناس أُسره
مرت ثمان وأبقت   فى القلب منى حسره
فيهن كان شبابى   أخا نعيم ونَضره
ولّى بها الدهر عنى   تُرى لها بعدُ كرَّه ؟
فالله يبقيك مولًى   يُطيل فى السعد عمره

وفى مضى عشر ساعات :

يا مالك الخير والخيل التى حكمت ... له بعز على الأيام مقتبل
هذا الصباح الذى لاحت بشائره ... والليل ودعنا توديع مرتحل
لله عشرٌ من الساعات باهرة ... مضين لا عن قِلًى منا ولا ملل
كذا تمر ليالى العمر راحلةً ... عنا ونحن من الآمال فى شغل
نُمسى ونُصبحُ فى لهو نُسرُّ به ... جهلا وذلك يُدنينا من الأجل
والعمر يمضى ولا ندرى فوا أسفَى ... عليه إذ مر فى الآثام والزلل
ياليت شعرى غدا كيف الخلاص به ... ولم نقدم له شيئاً من العمل
يارب عفوك عما قد جنته يدى ... فليس لى بجزاء الذنب من قِبَل
يارب وانصر أمير المسلمين أبا ... حَمُّو الرِّضَى وأنله غاية الأمل
وأبق فى العز والتمكين مدته ... وأعل دولته الغرا على الدول

قلت . ولا يسعنى إلا أن أقرر أن ما كتب فى هذه الرقاع من أبيات الشعر ، لايعد من الشعر فى شىء . وقد كان فى غاية من الركاكة ، لكنى اضطررت إلى إيراده إتماماً للبحث ، وإكمالا للوصف . ولولا هذا السبب ما رويته .

وفى أثناء هذه الساعات ، لايزال المُسمعون آخذون فى إنشاد المدائح النبوية ، حتى إذا فرَغوا منها فى آخر الليل ، قدمت إليهم الأطعمة فتمد موائدها ، ويتناول كل أحد منها ما تشتهيه نفسه ، وتلذ عينه . والسلطان فى خلال ذلك لايفارق مجلسه حتى يؤذن بصلاة الصبح .

وما من ليلة مولد مرت فى أيامه إلا تبارى فيها الشعراء بنظم القصائد

فى مدح خير البرية ، يبتدئ بها المسمع فى أول الحفل فينشدها ، ثم تنشد القصيدة التى وقع عليها الاختيار من شعر الشعراء . وهكذا مضت ليالى المولد طوال أيام الدولة الزيانية .

الاحتفال بالمولد بالمغرب الأقصى

أما فى المغرب الأقصى ، فقد كان لسلاطينه ، بالاحتفال بالمولد الشريف ، همة عالية ، ومروءة واسعة . لا سيا فى عهد السلطان أبى العباس أحمد المنصور الذى تولى الملك فى أواخر القرن العاشر من الهجرة .

قال القشتالى ـ وكان وزيرا لهذا السلطان فى أوائل القرن الحادى عشر ـ :

كان ترتيب [السلطان أحمد] فى الاحتفال بالمولد النبوى ، إذا طلعت طلائع ربيع الأول ، صرف الرقاع إلى الفقراء ، أرباب الذكر على رسم الصوفية ، من المؤذنين النعّارين فى الأسحار بالأذان . فيأتون من كل جهة ، ويحشرون إليه من سائر حواضر المغرب .

ثم يأمر الشماعين بتطريز الشموع وإتقان صنعها . فيتبارى فى ذلك مهرة الشماعين ، كما يتبارى النحل فى نسيج أشكالها لطفا وإدماجا . فيصوغون أنواعا من الشموع تحير الناظر ، ولا تزيل زهورها النواضر . فإذا كان ليلة المولد النبوى ، تهيأ لحملها وزفاف كواعبها ، الحمالون المحترفون لحمل خدور العرائس عند الزفاف . فيتزينون فى أجمل شارة ، وأحسن منظر . ويجتمع الناس من أطراف المدينة لرؤيتها . فيمكثون حتى يسكن حر الظهيرة وتجنح الشمس للغروب . فيخرجون بها على رؤسهم كالعذارى يرفلن فى حلل الحسن . وهي عدد كثير كالنخل . فيتسابق الناس لرؤيتها ، وتمتد الأعناق إليها ،

وتتبرج ذوات الخدور ، وتتبعها الأطبال والأبواق من المعازف والملاهى ، حتى تستوى على منصات معدات لها بالإيوان الشريف . فتصطف هنالك .

فإذا طلع الفجر خرج [السلطان] فصلى بالناس وقعد على أريكته ، وعليه حلة البياض ، شعار الدولة ، وأمامه تلك الشموع المختلفة الألوان ، من بيض كالدمى ، وحمر جليت فى ملابس أرجوانية ، وخضر سندسية . واستحضر من أنواع المسك والمباخر ، ما يدهش الجالس ويبهر الناظر .

ثم يدخل الناس أفواجا ، على طبقاتهم . فإذا استقربهم الجلوس ، تقدم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعجزاته ، وذكر مولده وإرضاعه وما وقع فى ذلك باختصار . فإذا فرغ اندفع القوم فى الأشعار المولَديات . فإذا فرغوا تقدم أهل الذكر المزمزمون بكلام الششترى وكلام غيره من الصوفية . ويتخلل ذلك نوبة المنشدين للبيتين . فإذا فرغوا من ذلك كله ، قام الشعراء ، فيتقدم قاضى الجماعة ، بلبل منابر الجمع والأعياد : قاسم بن على الشاطبى . فينشد قصيدة يستفتحها بالتغزل والنسيب ، ثم يتخلص لمدح النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يختم بمدح المنصور والدعاء له ولولى عهده . ثم يتقدم الإمام المفتى أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف الفلالى ، فينشد قصيدته على ذلك المنوال . ثم يتلوه الوزير أبو الحسن على بن منصور الشياظمى . ثم يتلوه الكاتب أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم القشتالى . ويليه الكاتب أبو عبد الله محمد بن على القشتالى ، ويليه الأديب أبو عبد الله محمد بن على الهوزالى المعروف بالنابغة ، ويليه الفقيه الأديب أبو الحسن على بن أحمد المسفيوى .

فإذا طُوى بساط القصائد، نُشرخِوان الأطعمة والموائد. فيبدأ بالأعيان، على مراتبهم. ثم يؤذن للناس فيدخلون جملة. فإذا انقضت أيام المولد الشريف، برزت صِلات الشعراء، على أقدارهم.

هكذا كان دأبه فى جميع الموالد. ولا يحصى ما يوزع فيه، من أنواع الإحسان على الناس.

وذكر صاحب المسكية أنه حضر المولد الشريف فى بلاد المغرب بعد قفوله من بلاد الترك، فقال:

استدعى المنصور الناس لإيوانه السعيد، واستدخلهم لقصره البديع المحتوى على قباب عالية، وقد مهدت فيه فُرش الحرير، وصفت النمارق، وتدلت الأستار والكلل والحِجال المخوصة بالذهب، على كل قبة وحنية كل سرير. ودار على الحيطان حيطيات الحرير التى هى كأزهار الخمائل، ما رؤيت قط فى عهد الأوائل. مرفوعة الجوانب على قواعد وأساطين من رخام مُجزّع، مطلية الرؤس بالذهب الذائب، مفروش جلها بالمرمر الأبيض المخطط بالسواد. يتخلل ذلك ماء عذب. فيدخل الناس، على طبقاتهم ويأخذ كل منهم مرتبته، من: قضاة، وعلماء، وصلحاء، ووزراء، وقواد، وكتاب، وأضياف، وأجناد. حتى ليخيل لكل واحد منهم أنه فى جنة النعيم.

ويجلس السلطان فى أفخر ملابسه، تعلوه الهيبة والوقار، وترمقه الأعين والأبصار، بالتعظيم والإكبار. ويجلس مَن عادته الجلوس، ويقف على رأس السلطان الوُصفاء، والعلوج، وعليهم الأقبية والمناطق المدورة، المشدودة المذهبة، والحُزُم الذهبية، مما يدهش الناظر. ورُكزت أمامه

الشموع ، وأذن لعامة الناس من أصناف القبائل فدخلوا ، على أجناسها ، من الأجناد ، والطلبة ، وسكنت بعد حين الجلبة . وأتى بأنواع الطعام فى القصاع المالقية والبلنسية المذهبة ، والأوانى التركية والهندية . وأتى بالطسوس والأباريق ، وصب الماء على أيدى الناس ، ونصبت مباخر العنبر والعود ، وأبرزت صحائف الفضة والذهب ، وأغصان الريحان الغضّ ، فرشّ بها من ماء الورد والزهر ، ما يبقى منه الأثر . وتكلم المنشدون ، وأحسن إليهم الأمير . ثم ختموا المجلس بالدعاء للسلطان .

قال : فإذا كان يوم السابع يكون ترتيب أبدع من الأول . وهذه كانت سيرته دائما .

الاحتفال بالمولد فى تونس

بحثت فى كثير من المراجع عما قد يكون لتونس ، من حظ فى شأن الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، وترجح لدى أنه لا بد أن تكون قد ساهمت فى هذا الأمر بقسط حسن . غير أنى لم أهتد إلى ذلك ، بعد الاستقصاء ، وبينا أنا بين الرجاء والأمل ، نبهنى صديقى المفضال الأستاذ حسن عبد الوهاب مفتش الآثار العربية إلى أنه يذكر أن شيئا من هذا وقع تحت نظره ، وأنه يرجح أن يكون فى كتاب (المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس) فرجعت إليه فإذا بمؤلفه الشيخ أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم الرُّعينى القيروانى المعروف بابن أبى دينار يقول :

ومن أعيادهم المشهورة ، ومواسمهم المذكورة ، ومساعيهم المشكورة ،

تعظيمهم لليلة المولد الشريف . وذلك لأجل محبتهم لمن ولد فيه ، وهو سيد الكائنات ، صلى الله عليه وسلم .

وأول من عُنى بتعظيمه فى البلاد المغربية وأظهر شعائر الولادة المحمدية : السلطان أبو عنان المرينى ، شكر الله سعيه ، ثم اقتدى به بنو أبى حفص فى الديار التونسية . وأولهم أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز . وكان فى أول المائة الثامنة . واحتفل بتشييد شعائر هذا اليوم المبارك ... واقتدى به بنو أبى حفص من بعده ، ولم تزل عادتهم مستمرة على تعظيمه . [لاسيما] ليلة الثانى عشر من شهر ربيع الأول . وينشدون الأشعار فى المكاتب وربما يجعلون ديدوبانات ، وهى المعبر عنها بالاصطلبات . وتقرأ فيها التخاميس ، وتنشد الأبيات الشعرية التى تضمنت مدائح خير البرية وتوقد القناديل ، وتسرج الشموع ، وتكون هذه الليلة أشهر ليالى سنتهم . ويصنعون الأطعمة الفاخرة ، احتساباً لله . وربما يجعلها بعضهم للمباهاة والتفاخر . ولكل امرئ مانوى .

وتكون ليلة عظمى بدار نقيب الأشراف ، يحضرها الأجلة من الناس والقراء ، والفقهاء . ويقع فيها السماع والأناشيد بالمدائح النبوية ويهرع الناس إليها من أطراف البلد . وتكون عندهم من الليالى العُقم . ولنقيب الأشراف عادة يأخذها من السلطنة ، من زيت وشمع ، وما يحتاج إليه . وهذه العادة جارية من زمن بنى أبى حفص . ودامت هذه الدولة عليها .

وأدركنا قبل اليوم بالزاويتين المشهورتين : القشاشية ، والبكرية ، محاسن جمة ، بحيث تدوم زينتها ١٥ يوماً ، لاتخليان من المدائح ، وتهرع الناس

للتفرج والمبيت . وقد تلاشى الحال . وأما غيرهما فبحسب الإمكان والأوقات

وهذا الشهر المبارك له حرمة عند أهل الحضرة (تونس) لتعظيمهم لهذا اليوم ...

* * *

إلى هنا أمسك القلم عن الاسترسال ، وأختتم القول بالحمد لله حمد الشاكرين ، وأسأله العون على ما اعتزمته من تحرير كتاب (المواسم والأعياد) الذى سأجعله متمما لهذا البحث الطريف ، إن شاء الله تعالى ؛ ومنه أستمد التوفيق وحسن الختام ؟

القاهرة فى ٢٠ من شعبان سنة ١٣٦٧ هـ و ٢٧ من يونيه سنة ١٩٤٨ م

حسن السندوبي

فهرس الكتاب

(١) جاء بالأصل : قمبيز المساوى . وهو تحريف

مصنفات صاحب الكتاب

الكتاب		السنة		
أعيان البيان	طبع فى سنة	١٩١٤	جزء	١
الشعراء الثلاثة	» » »	١٩٢٢	»	١
شرح على المفضليات	» » »	١٩٢٦	»	١
شرح على المقابسات	» » »	١٩٢٩	»	١
أدب الجاحظ	» » »	١٩٣١	»	١
رسائل الجاحظ	» » »	١٩٣٣	»	١
شرح ديوان امرىء القيس	» » »	١٩٣٩	»	١
أخبار المراقسة وأشعارهم	» » »	١٩٣٩	»	١
أبو العباس المرسى	» » »	١٩٤٤	»	١
شرح على البيان والتبيين طبعة ثالثة	» » »	١٩٤٨	»	٣

تحت الطبع

كتاب المواسم والأعياد

وسيصدر قريبا إن شاء الله

....